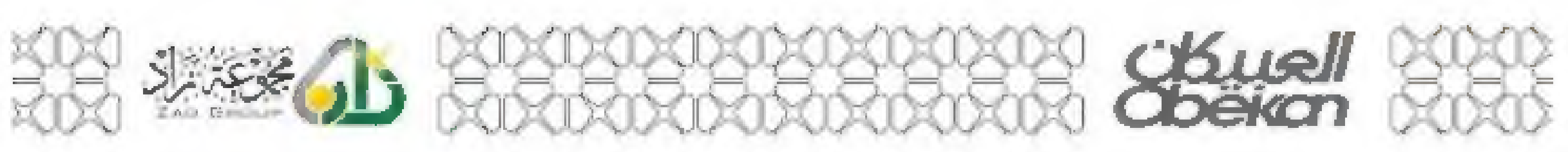
مفسدات القلوب









مفسدات القلوب

محمد صالح المنجد



فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

المنجد، محمد صالح

مفسدات القلوب. / محمد صالح المنجد، - الرياض، ١٤٣٨هـ

٣٨٠ص، ١٦,٥×٢٤سم

ردمك: ٩٧٨-٦٠٣-٨٠٤٧-٨٧-٣

١. المعاصي والذنوب أ. العنوان

ديوي: ٢١٢,٣ ١٤٣٨/١١٩٤

الطبعة الأولى

١٤٣٨هـ/ ٢٠١٧م

الناشر



المملكة العربية السعودية

الخبر - هاتف: ٨٦٥٥٣٥٥

جدة - هاتف: ٦٩٢٩٢٤٢

ص.ب: ١٢٦٣٧١ جدة ٢١٣٥٢

www.zadgroup.net

امتياز التوزيع



المملكة العربية السعودية - الرياض - المحمدية

طريق الأمير تركي بن عبدالعزيز الأول

هاتف: ٤٨٠٨٦٥٤ - فاكس: ٤٨٨٩٠٢٣

هاتف مجاني: ٩٢٠٠٢٠٢٠٧

ص.ب: ٦٢٨٠٧ الرياض ١١٥٩٥



المحتويات



المقــدمة

الحمدُ لله ربِّ العالمين، وأشهدُ ألا إله إلا اللهُ، وحده لا شريكَ له، وأشهد أن محمداً عبدُه ورسولُه، صلى اللهُ عليه وعلى آله وسلم، أما بعدُ:

فكما أنّ للقلوب أعمالاً تحيا بها فتُسعدُها، فإنها تطرأُ عليها مفسداتٌ تُمرضُها وتُشقيها، وهي آفاتٌ تَعرِضُ للقلب، فإذا تمكّنت منه أمرضَته، وحَرَفته عن سبيلِ المتقينَ، وألزمتهُ غَيّه، وما أُشرِبَ مِن هَواهُ .

وقلبُ المؤمن هو القلبُ السليمُ، وهو السالمُ من تلك الآفاتِ والأمراضِ، فيَنزِلُ -ببِرّه وصلاحِه- منازلَ المتّقين، ويَسلُكُ سبيلَ الصالحين، ويَحيا حياةً طيّبة .

فإذا أصابت قلبَ العبدِ هذه الأمراضُ وتمكّنت منه فَسدت مادتُه، فرأى المُنكرَ معروفاً، والمعروفَ منكراً، وأحبّ هواه الذي هو قاتِلُه، وأطاع عدوَّه الذي يأمُرُه بالكُفرِ والفُسوقِ والعِصيانِ.

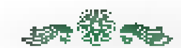
ويا خَيبةَ مَن عَصى مولاهُ، وأطاعَ عدوَّه، واختار سبيلَ الغَيّ على سبيلِ الرَّشادِ، وأبدلَ التوكّلَ على الله، وحسنَ الظن به، وحُبَّه، وابتغاءَ مرضاتِه، والإخلاصَ له في عبادَتِه، بالنفاقِ، والغفلةِ، والشهوةِ، واتباعِ الهوى، وحبِّ الدّنيا.

إنَّ هذه الأمراضَ -وغيرَها- تصرفُ العبدَ عن عِبادةِ ربِّه، وتُرَغِّبُ إليه هَواهُ، فيُغازِلُ قلبَه حُبُّ الدنيا، وتَمُرُقُ فيه الشهوةُ والغفلةُ، ويُسيطرُ عليه الكِبرُ وحُبُّ الرّئاسةِ، ويَتخَلّلُه النفاقُ، ويَستميلُه الجدالُ والمِراءُ، ويَعتريه الشكُّ والرِّيبُ، فيَضعُفُ فيه نُورُ الإيمانِ، فلا يَستبصِرُ بما يَستبصرُ به المتّقون، ولا يَتحلَّى بما يتحلّى به الصالحون، ويَبقَى رَهينَ شَيطانِه، وحَبيسَ هَواهُ، ثمّ يَندَمُ، وَلاتَ ساعةَ مَندَم.

فأردنا في هذا الكتاب أن نتكلَّمَ عن هذه الأمراضِ والآفاتِ، التي تُعَدّ عقباتٍ في طريقِ السالكين، وآفاتٍ تُصيبُ قلوبَ العباد، وأن نكشفَ عن آثارِها، ونتعرّفَ على كيفيّةِ التّخلُّصِ منها.

ومَن لم يتّقِها قعدَ به ذنبُه، وعاجله خُسرُه، ومَن وقاهُ اللهُ شرَّها سَلِمَ له قلبُه، وأصلحَ اللهُ له حالَه.

نسألُ اللهَ أن يرزقَ قلوبَنا تقواها، وأن يحفظَها من هذه الأمراضِ، وتلك الآفاتِ؛ فإنه ما من قلبٍ إلّا بَين أُصبعَينِ من أصابعِ الرّحمنِ، إن شاءَ أقامَهُ، وإن شاءَ أزاغَهُ.





الترف



مُقدِّمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، سيدنا محمد، وعلى آله وأصحابه أجمعين.

أما بعد:

فإن الترف داء عُضال، ومرض مهلك، إذا استشرى في أمة؛ ذهب بعزمها، وأورثها تباطؤاً، وخمولاً، وكسلاً، ودعة، وعلقها بالحياة الدنيا، وحببها إليها، والترف إن التصق بشخص، حتى صار يوصف به؛ كان ذلك إيذاناً بضعفه، وإعلاماً بوهنه، ودليلاً على تراخي شأنه، وعدم ضبطه أمره، وأنه آثر لذائذ الحياة على الجد والاجتهاد.

ومع خطورة هذا المرض وكثرة أضراره، كان لا بُدَّ لنا أن نضع أيدينا على هذا الجرح، ونحاول معالجته

فما حقيقة الترف؟

وما مساوئه؟

وكيف نعالج مجتمعاتنا التي استشرى فيها هذا الداء؟

وفي هذا الفصل أحببت أن نجيب على هذه التساؤلات.

وأشكر كل من ساهم في إعداد هذه المادة، وإخراجها بالصورة المرضية.

اللهم سدد خطانا، وأصلح نياتنا وأعمالنا، ووفقنا للخير والهدى.

* * *

تعريف الترف

الترف في اللغة:

الترفه: التوسع في النعمة، يقال: أترف فلان فهو مترف، ﴿وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [المؤمنون: ٣٣]، ﴿وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَآ أُتْرِفُوا۟ فِيهِ وَكَانُوا۟ مُجْرِمِينَ﴾ [هود: ١١٦]، وقال: ﴿وَٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ﴾ [الأنبياء: ١٣]، وقال: ﴿أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم﴾ [المؤمنون: ٦٤]، وهم الموصوفون بقوله سبحانه: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ﴾ [الفجر: ١٥][1].

ويطلق على معنى الترف ألفاظ أخرى منها: التنعم، الترفّه، الرفاهية.

الترف في الاصطلاح:

هو مجاوزة حد الاعتدال في النعمة، والإكثار من النعم الجالبة للرفاهية.

فالمترَفون إذن: هم الذين أبطرتهم النعمة وسعة العيش، وحرصوا على الزيادة من الملذات والملهيات، وسعوا إلى بلوغ الغاية في أنواع الترف من المآكل، والمشارب، والمساكن، والمراكب.

* * *

---

(١) المفردات في غريب القرآن (ص١٦٦).

ذم الترف في القرآن الكريم

ذم الله تعالى الترف في القرآن الكريم في عدة مواضع، وبيّن فساده وأثره السيئ، وأنه من أسباب الهلاك والعذاب:

أولاً: الترف من صفات الظالمين والكافرين:

قال الله عَزَّوَجَلَّ في وصف الكفار: ﴿وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَآ أُتْرِفُوا۟ فِيهِ وَكَانُوا۟ مُجْرِمِينَ﴾ [هود ١١٦].

قال ابن جرير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إن الله تعالى أخبر أن الذين ظلموا أنفسهم من كل أمة سلفت فكفروا بالله؛ اتبعوا ما أُترفوا فيه من لذات الدنيا، فاستكبروا عن أمر الله، وتجبروا وصدوا عن سبيله، وذلك أن المترف في كلام العرب هو: المنعّم الذي قد غذّي باللذات»[1].

ثانياً: الترف سبب لعذاب الآخرة:

قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ ۖ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ [مريم ٥٩].

قال كعب الأحبار رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والله إني لأجد صفة المنافقين في كتاب الله عَزَّوَجَلَّ: شرّابين للقهوات[2]، تّراكين للصلوات، لعّابين بالكعبات[3]، رقّادين عن العتمات[4]، مفرطين في الغدوات، ترّاكين للجُمُعات»، ثم تلا هذه الآية ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ ۖ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾[5].

(١) تفسير الطبري (١٥/ ٥٢٩).
(٢) أي: يشربون الخمر.
(٣) أي: يلعبون بحجر النرد (الزهر) المحرم.
(٤) أي: صلاة العشاء والفجر.
(٥) أخرجه ابن أبي حاتم (٩/ ٢٦٨).

ثالثاً: الترف سبب للهلاك في الدنيا:

قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ۝١١ فَلَمَّآ أَحَسُّوا۟ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ۝١٢ لَا تَرْكُضُوا۟ وَٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ﴾ [الأنبياء: ١١-١٣].

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «﴿لَا تَرْكُضُوا۟ وَٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ﴾ هذا تهكم بهم قدراً، أي: قيل لهم قدراً: لا تركضوا هاربين من نزول العذاب، وارجعوا إلى ما كنتم فيه، من النعمة والسرور والمعيشة والمساكن الطيبة»[1].

رابعاً: الترف سبب لهلاك الغير:

إن أذى المترفين قد يتعدى إلى غيرهم، فيُهلكون أقوامهم بسبب ترفهم، قال تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا﴾ [الإسراء: ١٦].

ولعلك تلاحظ في حياة الناس، أن فساد المترفين لا يقتصر عليهم، بل يتعداهم إلى غيرهم دائماً، ويجعلون الناس يتطلعون إلى ما في أيديهم، ويحاولون تقليدهم.

خامساً: الترف سبب للقعود عن الأعمال الصالحة:

قال الله عَزَّوَجَلَّ في المترفين الذين لم يطيقوا الجهاد لشدة الحر، واعتادوا الظلال والأماكن الباردة: ﴿فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓا۟ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُوا۟ لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُوا۟ يَفْقَهُونَ﴾ [التوبة: ٨١].

فثقُل النفير على المترفين بسبب المشقة والحر، فقدّموا راحة قصيرة منقضية على الراحة الأبدية التامة، وحذروا من الحر الذي تقي منه الظلال، وتذهبه البكور والآصال، على الحر الشديد الذي لا يقدر قدره، وهي النار الحامية.

(١) تفسير ابن كثير (٥/ ٣٣٥).

سادساً: الترف سبب للاعتراض على أقدار الله:

قال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ۝ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ﴾ [الفجر: ١٥-١٦].

فهذه هي حال المترف، إذ أنعم الله عليه بالرزق والنعم، يقول: إن ربي أكرمني لأنه يحبني، وإذا ابتلاه الله بأنواع المكاره تراه يعترض ويجزع، ولا يصبر على ما أصابه، كل هذا بسبب الترف، ولو أنه عاش زاهداً بسيطاً؛ لتقبل تلك المصائب ورضي بها، بل وحمد الله عليها.

ولو تأملنا لوجدنا أن الصبر على الفقر أهون من الصبر على الغنى.

* * *

ذم الترف في السنة النبوية

ورد النهي عن الترف في عدد من الأحاديث النبوية، تحذيرا منه؛ لئلا يتعلق القلب بالدنيا، وينغمس في ملذاته، ومتعها الزائلة.

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وسلم جلس ذات يوم على المنبر، وجلسنا حوله، فقال: «إِنَّ مِمَّا أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِي: ما يُفْتَحُ عَلَيْكُم مِنْ زَهْرَةِ الدُّنيا وَزِينَتِها»[1].

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إِنَّ الدُّنيا حُلوَةٌ خَضِرَةٌ، وَإِنَّ الله مُستَخلِفُكُم فيها؛ فَيَنظُرُ كَيفَ تَعمَلُونَ، فاتَّقُوا الدُّنيا، واتَّقُوا النِّساءَ»[2].

وعن عبد الله بن بريدة رضي الله عنه: «أن رجلا من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم رحل إلى فضالة بن عبيد رضي الله عنه وهو بمصر، فقدم عليه، فقال: أما إني لم آتك زائرا، ولكني سمعت أنا وأنت حديثا من رسول الله صلى الله عليه وسلم، رجوت أن يكون عندك منه علم، قال: وما هو؟ قال: كذا وكذا، قال: فما لي أراك شعثًا، وأنت أمير الأرض؟ قال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان ينهانا عن كثير من الإرفاه[3]، قال: فما لي لا أرى عليك حذاء؟ قال: كان النبي صلى الله عليه وسلم يأمرنا أن نحتفي أحيانا»[4].

فكان يأمرهم بالاحتفاء أحيانا؛ لتخشوشن أرجلهم، وتتعود على المشي في الأماكن المختلفة.

---

(١) رواه البخاري (١٤٦٥) ومسلم (١٠٥٢).

(٢) رواه مسلم (٢٧٤٢).

(٣) الإرفاه: الاستكثار من الزينة.

(٤) رواه أبو داود (٤١٦٠)، وصححه الألباني.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**اللَّهُمَّ اجعَل رِزقَ آلِ مُحَمَّدٍ قُوتاً**»(١)، أي: اكفهم من القوت بما لا يحوجهم إلى ذل المسألة، ولا يكون فيه زيادة تبعث على الترفّه في الدنيا.

❊ ❊ ❊

(١) رواه مسلم (١٠٥٥)

لا تفرحوا أيها المترفون!

أولاً: النعم امتحان وابتلاء:

بيّن الله عَزَّوَجَلَّ أن التوسعة في النعم على العبد في الدنيا إنما هي امتحان وابتلاء، وليست دليلاً على رضى الله على المنعم عليه، ولا محبته، خلافاً لما يعتقده كثيرٌ من المترفين؛ فإنهم يظنون أن النعم التي تأتيهم علامة على رضى الله عنهم.

وكيف يرضى الله على المترف الذي عصاه، واستعمل نعمته في البطر والتكبر!.

وقد ظن الكفار من قبلهم هذا الظن، فعندما رأوا كثرة الأموال والأولاد قالوا: ﴿نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [سبأ: ٣٥].

فأخبرهم سبحانه بعدم صواب اعتقادهم، فقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ﴾ [سبأ: ٣٧].

وقال تعالى: ﴿ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّآ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِءَايَٰتِنَا عَنِيدًا﴾ [المدثر: ١١-١٦]، أي: أيحسب أن نزيده في الآخرة من المال والبنين، كلا.

وقد بين سبحانه لهؤلاء المترفين: أن إنعامه عليهم إنما هو من باب الاستدراج، فقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٥-٥٦]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [التوبة: ٨٥]، وقال تعالى: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [التوبة: ٥٥]، وقال سبحانه: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ

عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [آل عمران: ١٧٨]، وقال جل شأنه: ﴿فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [القلم: ٤٤-٤٥].

ثانياً: النعم الدنيوية سبب لزوال النعم الأخروية:

أخبر عَزَّوَجَلَّ أن هناك أناساً تُعجَّل لهم طيباتهم في الدنيا، فقال سبحانه: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٠].

قال أبو مجلز رَحِمَهُ اللَّهُ: «ليفقدن أقوام حسنات كانت لهم في الدنيا، فيقال لهم: (أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها)»[1].

أي: إنه سيأتي أقوامٌ يوم الحساب، فيسألون عن حسناتٍ كانت لهم لا يرون جزاءها، فيخبرون أنهم أفنوا تلك الحسنات بتنعمهم بأنواع النعم في الدنيا.

وقد كان الصحابة والتابعون يتقللون من التنعم في هذه الحياة الدنيا؛ ليستبقوا نعمهم للحياة الأخرى.

عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «رآني عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وأنا متعلق لحماً، فقال: يا جابر، ما هذا؟ قلت: لحم اشتريته بدرهم لنسوة عندي قَرِمن إليه[2]، فقال: أما يشتهي أحدكم شيئاً إلا صنعه؟! أما يجد أحدكم أن يطوي بطنه لجاره وابن عمه؟! أين تذهب هذه الآية ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا﴾؟! قال: فما انفلتّ منه حتى كدت أن لا أنفلت»[3].

وكان عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: «لو شئت كنت أطيبكم طعاماً، وألينكم لباساً، ولكني أستبقي طيبتي»[4] يعني للآخرة.

وكان حفص بن أبي العاص رَحِمَهُ اللَّهُ يكثر غشيان عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وكان إذا قرّب طعامه اتقاه.

---

(١) تفسير ابن كثير (٧/ ٢٨٥).

(٢) يعني: اشتهين اللحم.

(٣) أخرجه عبد بن حميد، كما في الدر المنثور (٧/ ٤٤٧).

(٤) تفسير الطبري (٢٢/ ١٢٠).

فقال له عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «ما لك ولطعامك؟» قال: يا أمير المؤمنين، إن أهلي يصنعون لي طعاماً هو ألين من طعامك، فأختار طعامهم على طعامك. قال: «ثكلتك أمك، أما تراني لو شئت أمرت بشاة فَتِيَّةٍ سمينة فألقي عنها شعرها، ثم أمرت بدقيق فنخل في خرقة، فجعل خبزاً مرققاً، وأمرت بصاع من زبيب، فجعل في سمن حتى يكون كدم الغزال».

قال حفص: إني أراك تعرف لين الطعام. فقال عمر: «ثكلتك أمك، والذي نفسي بيده لولا كراهية أن ينقص من حسناتي يوم القيامة لأشركتكم في لين طعامكم»[1].

وعن حفصة بنت عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أنها قالت لأبيها: يا أمير المؤمنين، ما عليك لو لبست ألين من ثوبك هذا؟! وأكلت أطيب من طعامك هذا؟!؛ قد فتح الله عليك الأرض، وأوسع عليك الرزق، فقال: «سأخاصمك إلى نفسك، أما تعلمين ما كان يلقى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من شدة العيش؟» وجعل يذكرها شيئاً مما كان يلقى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتى أبكاها، قال «قد قلت لك إنه كان لي صاحبان سلكا طريقاً، فإني إن سلكت غير طريقهما سلك بي غير طريقهما، فإني والله لأشاركنهما في مثل عيشهما الشديد؛ لعلي أدرك معهما عيشهما الرخي».

يعني بصاحبيه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأبا بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[2].

ولما قدم عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى الشام صُنع له طعام لم ير قبله مثله، قال: «هذا لنا، فما لفقراء المسلمين الذين ماتوا وهم لا يشبعون من خبز الشعير؟». قال خالد بن الوليد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لهم الجنة. فاغرورقت عينا عمر، وقال: «لئن كان حظنا في الحطام وذهبوا بالجنة لقد باينونا بوناً بعيداً»[3].

ويقول قتادة: «تعلمون والله أن أقواماً يسترطون[4] حسناتهم، ليستبق رجلٌ طيباته إن استطاع، ولا قوة إلا بالله»[5].

(١) أخرجه ابن سعد وعبد بن حميد، كما في الدر المنثور (٧/ ٤٤٧)

(٢) رواه ابن أبي شيبة (٣٤٤٣٤)

(٣) تفسير الطبري (٢٢/ ١٢٠)

(٤) أي: يبتلعون، من سرط الشيء إذا ابتلعه، والمعنى: تنقص حسناتهم

(٥) تفسير الطبري (٢٢/ ١٢٠)

ثالثاً: هذا النعيم مما يُسأل عنه العبد يوم القيامة:

أخبر تعالى في كتابه الكريم أن هذا النعيم الذي يعيش فيه العبد في الدنيا سيُسأل عنه يوم القيامة، هل أدى شكره أم لا؟ قال تعالى: ﴿ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ [التكاثر: ٨].

قال مجاهد رَحِمَهُ اللَّهُ في الآية: «عن كل لذة من لذات الدنيا»[١].

وقال سعيد بن جبير رَحِمَهُ اللَّهُ «حتى عن شربة عسل»[٢].

وقال الحسن البصري رَحِمَهُ اللَّهُ: «من النعيم: الغداء، والعشاء»[٣].

وقال أبو قلابة رَحِمَهُ اللَّهُ: «من النعيم: أكل العسل والسمن بالخبز النقي»[٤].

وكان الحسن وقتادة يقولان: «ثلاث لا يُسأل عنهم ابن آدم يوم القيامة، وما خلاهن فيه المسألة والحساب، إلا ما شاء الله: كسوة يواري بها سوءته، وكسرة يشد بها صلبه، وبيت يظله»[٥].

وإليك هذه القصة، عن أعظم ثلاثة رجال في الأمة بأسرها: الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأبو بكر، وعمر، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: خرج رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذات يوم، فإذا هو بأبي بكر وعمر، فقال: «ما أَخرَجَكُما مِن بُيُوتِكُما هَذِهِ السَّاعَةَ؟» قالا: الجوع يا رسول الله. قال: «وَأَنا والَّذِي نَفسِي بِيَدِهِ لأَخرَجَنِي الَّذِي أَخرَجَكُما، قُومُوا». فقاموا معه، فأتى رجلاً من الأنصار... فانطلق فجاءهم بعذق فيه بسر وتمر ورطب، فقال: كلوا من هذه. وأخذ المدية... فذبح لهم، فأكلوا من الشاة ومن ذلك العذق وشربوا، فلما أن شبعوا ورووا قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأبي بكر وعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا «والَّذِي نَفسِي بِيَدِهِ لَتُسأَلُنَّ عَن هَذا النَّعِيمِ يَومَ القِيامَةِ، أَخرَجَكُم مِن بُيُوتِكُمُ الجُوعُ، ثُمَّ لَم تَرجِعُوا حَتَّى أَصابَكُم هَذا النَّعِيمُ»[٦].

---

(١) تفسير ابن كثير (٨/ ٤٧٧)
(٢) تفسير ابن كثير (٨/ ٤٧٧)
(٣) تفسير ابن كثير (٨/ ٤٧٧)
(٤) تفسير ابن كثير (٨/ ٤٧٧)
(٥) تفسير الطبري (٢٤/ ٥٨٦)
(٦) رواه مسلم (٢٠٣٨)

فإن كانوا سيُسألون عن نعيمٍ حصّلوه لمرة واحدة بعد جوع شديد؛ فكيف بنا نحن أصحاب الوجبات اليومية الثلاثة؟!

* * *

هل الترف والغنى متلازمان؟

الترف في أغلب أحواله قائم على الغنى ومبني عليه، لكنه ليس بلازمٍ له، فكم من غنيٍّ عاش حياة البخلاء، وأصاب أهله البؤس والعوز!.

وكم من فقير حرص على توفير النعم وتحصيل الملذات والشهوات من كل طريق، حتى ركبته الديون لأجل ذلك!.

كما أن الزهد ليس ملازماً للفقر، فكم من غني عاش عيشة الزهاد، مع ما حباه الله من النعمة والجاه والمال!.

فليس المقصود أن يتخلى الإنسان عن أمواله وتجاراته وممتلكاته حتى يبتعد عن الترف، بل من الممكن أن يبقى محافظاً على هذا ولا يكون مترفاً، فيتاجر، ويصرف على نفسه وأهله بالمعروف، ويتصدق على الفقراء والمساكين، ويُبقي من المال ما يقيم به تجارته وحياته.

وكان النبي ﷺ إذا بلغه أن بعض أصحابه يريد أن يتعدّى؛ فيزيد في الزهد أو العبادة على المشروع؛ يغضب لذلك، ولما بلغه أن بعض أصحابه قال: أما أنا فإني أصلي الليل أبداً. وقال آخر: أنا أصوم الدهر ولا أفطر. وقال آخر: أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبداً، فجاء رسول الله ﷺ فقال: **«أَما والله إِنِّي لَأَخْشَاكُم لله وَأَتقاكُم لَهُ، لكِنِّي أَصُومُ وَأُفطِرُ، وَأُصَلِّي وَأَرقُدُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّساءَ، فَمَن رَغِبَ عَن سُنَّتِي فَلَيسَ مِنِّي»**[1].

(١) رواه البخاري (٥٠٦٣)، ومسلم (١٤٠١).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «فأما الإعراض عن الأهل والأولاد، فليس مما يحبه الله ورسوله، ولا هو من دين الأنبياء»[1].

إن حقيقة الزهد: أن لا يتعلق القلب بشيء من أمور الحياة، فلا يتعلق بمال، ولا بجاه، ولا بمنصب، ولا بصورة، ولا رئاسة.

* * *

(١) مجموع الفتاوى (١٠/ ٦٤٢).

صور الترف المعاصرة

في حياتنا المعاصرة توجد صور مختلفة للترف، منها - على سبيل المثال - :

المبالغة في الاهتمام بالشَّعر:

وذلك بترجيله، وتمشيطه، وتسريحه، وشراء أنواع الكريمات؛ لإبرازه في أحسن صورة.

وقد جاء الإسلام وسطاً في قضية الاهتمام بالشعر، فأمر بإكرام الشعر لمن كان له شعر، ونهى عن الترجل والتمشط يومياً، ولكن يوماً بعد يوم.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «مَنْ كانَ لَهُ شَعرٌ فَلْيُكرِمهُ»[1].

وعن عبد الله بن مغفل رضي الله عنه قال: «نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن التَّرَجُّلِ إلا غِبّاً»[2].

والترجل غباً، أي: يوماً بعد يوم.

يقول ابن القيم رحمه الله عن هذين الحديثين: «الصواب: أنه لا تعارض بينهما بحال؛ فإن العبد مأمور بإكرام شعره، ومنهي عن المبالغة والزيادة في الرفاهية والتنعم، فيكرم شعره، ولا يتخذ الرفاهية والتنعم ديدنه، بل يترجل غباً»[3].

المبالغة في التنظف والتزين:

يمكث الرجل الساعات الطوال في المغتسل للاستحمام، وبعضهم يجعل فيه أنواعاً من المعطرات، والرغوة الصابونية، وغير ذلك من أنواع الترف الحديثة التي لم تكن معروفة من قبل.

(١) رواه أبو داود (٤١٦٣)، وصححه الألباني.

(٢) رواه أبو داود (٤١٥٩)، وصححه الألباني.

(٣) حاشية ابن القيم على سنن أبي داود (٢/ ٢٨٤).

نعـم، لقد دعا الإسـلام إلى التزيـن والتنظف، بل وأمر به، قـال تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾ [الأعراف: ٣١].

ولكن، هذا مرتبط بعدم الإسراف والترف.

يقـول ابـن عبـد الـبر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «التزين والتنظف مبـاح، ما لم يكـن إسرافاً وتنعماً وتشـبهاً بالجبارين»[1].

فليـس مـن الترف في شيء أن يغتسـل الرجل ويتنظـف، وأن يسـتعمل مزيلات العرق ونحوها؛ ليبقى نظيفاً، ولا يؤذي غيره برائحته، لا في المسجد ولا في غيره.

ولكـن الـترف أن يبالغ في ذلك، وأن يصرف عليه الأمـوال الطائلة، ويضيع له الأوقات الكثيرة.

المبالغة في شراء أنواع الملابس ذات الماركات العالمية بأسعار خيالية:

كان الرجل قبل مدة ليست بالبعيدة لا يملك إلا ثوباً واحداً، فإذا أراد أن يغسله وينظفه، اضطر أن يبقى في منزله حتى ينتهي أهله من تنظيفه وتنشيفه، وهو لا يسـتطيع الخروج إلى الناس ما دام الثوب مبللاً.

وأنعم الله على الناس فأصبح الشخص يملك الثوبين، والثلاثة، بل والعشرة، ولا بأس في ذلك كله، ما دام في حدود المعروف والعادة.

بعـض النـاس لا يلبـس إلا من شركـة معينة، بناء على طلبيـة خاصة بـه، يطلبها منهم شخصياً؛ ليستطيع أن يتميز بها عن غيره.

فإن لم يكن هذا هو الترف بعينه، فما هو الترف؟!

نحـن مأمورون أن نلبس ثياباً حسـنة تدل على نعمة الله علينـا، لكن في حدود الاعتدال والاقتصاد.

عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «لا يَدخُلُ الجَنَّةَ مَن كانَ في قَلبِهِ

(١) التمهيد (٥/ ٥١).

مِثقالُ ذرَّةٍ مِن كِبرٍ» قال رجل. إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنا ونعله حسنة. قال «إنَّ الله جميلٌ يُحِبُّ الجمالَ، الكِبرُ: بَطرُ الحَقِّ وَغَمطُ النّاسِ»[1].

قال أبو الفرج ابن الجوزي رَحِمَهُ اللَّهُ «كان السلف يلبسون الثياب المتوسطة، لا المترفعة، ولا الدون، ويتخيرون أجودها للجمعة والعيد وللقاء الإخوان، ولم يكن تخير الأجود عندهم قبيحاً، وأما اللباس الذي يزري بصاحبه فإنه يتضمن إظهار الزهد وإظهار الفقر، وكأنه لسان شكوى من الله تعالى، ويوجب احتقار اللابس، وكل ذلك مكروه منهي عنه»[2]

فخير الأمور أوسطها.

المغالاة في المآكل والمشارب:

أهل الترف تجدهم يغالون في الأكل والشرب، فلا يأكلون من الطعام ولا يشربون من الشراب إلا أعلاه ثمناً، ولا يرضون إلا بأنفس الأشياء وأفخرها.

ولا يكتفون في الوجبة الواحدة بنوع واحد أو نوعين من الطعام، بل لابُدَّ أن تحتوي السفرة الواحدة على أنواع وأشكال من الأطعمة، ولو وضع أمامهم نوع واحد من الطعام لتأففوا وتبرموا.

وقد ذكر القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ: أنه يحرم الأكل الزائد على قدر الكفاية، المبتغى به الترفه والسِّمَن[3].

ومن صور الترف في الطعام والشراب. أن كثيراً من الناس لا يأكلون الطعام إلا إذا كان طازجاً، أما إذا كان قد حُفظ في الثلاجة فلا يمكن أن يضعه في فمه، بل يلقيه في القمامة، ويعتبر نفسه أكبر من أن يأكل طعاماً قد بات في الثلاجة، حتى ولو لم يتغير طعمه أو يتبدل شكله، ولكنه الترف - والعياذ بالله

لا بأس أن يجود الإنسان على نفسه بطعام جيد من آن لآخر، أو أن يشتري أكلة نفيسة

(١) رواه مسلم (٩١).
(٢) تفسير القرطبي (٧/ ١٩٧)
(٣) تفسير القرطبي (١١/ ٦٧)

سعرها مرتفع بعد كل مدةٍ وأخرى، ولكن أن يكون هذا ديدنه وعادته؛ فهو أمرٌ غير مقبول، وطريقة غير مستساغة، لا يقبلها شرعٌ ولا عقل.

ومن صور الترف المتعلقة بالمآكل والمشارب: استعمال الأواني الفاخرة الغالية الثمن، فترى من الأسر المترفة من لا تأكل إلا في الصحون ذات الماركات الفخمة، والقدور من الشركات الكبرى، ولا يقبلون بالأنواع المعتدلة من الصحون والقدور والكاسات وغيرها.

ومن صور الترف المتعلقة بالمآكل والمشارب: ارتياد المطاعم الفاخرة ذات الأسماء العالمية، والتي لا يفرقها عن غيرها من المطاعم إلا اسمها وشهرتها، وديكوراتها الجميلة.

ومن صور الترف في المطاعم والمشارب: كثرة استعمال المشروبات الغازية، واعتبارها أمراً ضرورياً لا بُدَّ منه، فيشرب الشخص مع كل وجبة أو بعدها مشروباً غازياً.

كيف لا؟ والناس بحاجة إلى هضم ما أكلوه، بعد أن أتخموا أنفسهم، وملؤوا بطونهم بأنواع وأشكال من الأطعمة والحلويات، حتى احتاجوا إلى ما يساعدهم على هضم ذلك المأكول.

عن ابن سيرين رحمه الله أن رجلاً قال لابن عمر رضي الله عنه: أجعل لك جوارش؟ قال: وأي شيء الجوارش؟ قال: شيء إذا كظك الطعام فأصبت منه سهل عليك[1]. قال: فقال ابن عمر: «ما شبعت من طعام منذ أربعة أشهر، وما ذاك أن لا أكون له واجداً؛ ولكني عهدت قوماً يشبعون مرة، ويجوعون مرة»[2].

حفلات الزفاف وما يصاحبها:

لقد أصبحت ليلة الزفاف في البلاد الإسلامية -على وجه العموم- مضرباً للمثل في الإسراف والتبذير والترف، كلٌّ يتنافس في تقديم الجديد، ومسابقة الآخرين في هذا المجال.

وأصبحت قصور الأفراح وقاعاتها ذات أسعار خيالية، وثوب الزفاف وحده حكاية مستقلة، فأسعار ثياب الزفاف خيالية، ولا بُدَّ للعريس أن يصلى نيرانها، فلا تقبل الفتاة ولا أهلها إلا بأجود الأنواع، وأفخر الأقمشة، وأشهر الماركات العالمية.

---

(١) أي: يهضم الطعام إذا ثقل بطنك، أي أنه يؤدي دور المشروبات الغازية اليوم.

(٢) الزهد للإمام أحمد (١٨٩).

إن الترف في حفلات الزواج لا يقتصر ضرره على إضاعة الأموال، وانتشار الحسد والبغضاء بين الناس؛ بل إن ضرره متعدٍ إلى عزوف الشباب عن الزواج، لما يرونه من المصاريف والتكاليف التي لا قِبَل لهم بها، فيعيش الشاب بين نارين: إما نار العزوبية، أو نار الزواج في حياة الدَّين الذي سببه له هذا الزواج.

الجوالات وإكسسواراتها وأرقامها

من صور الترف التي استولت على قلوب كثير من الناس: اقتناء أحدث الجوالات، وتزيينها بأفضل الإكسسوارات.

وتقام مزادات علنية لأرقام الجوالات المتميزة، وتباع بأسعار خيالية.

السيارات وزينتها وأرقام لوحاتها:

من صور الترف المنتشرة في مجتمعاتنا اقتناء كثير من المترفين لأحدث أنواع السيارات، وتجديدها سنويا، ودفع مبالغ باهظة للحصول على أرقام لوحات متميزة، فقد أقيم في أحد المدن الخليجية مزاداً للوحات السيارات المتميزة، وتم إنفاق الملايين في هذا المزاد فقط.

المبالغة في بناء المنازل، وتأثيثها

كثير من الأسر تقوم بتغيير أثاث منزلها بشكل دوري ومستمر، فبعض الأسر تغيره كل ستة أشهر، وبعضها كل سنة، وبعضها كل ثلاث سنين أو خمس، حسب القدرة المادية لكل أسرة

وأما التفنن في زخرفة البيوت وملؤها بأنواع الترف: فحدث ولا حرج!.

فتُجلب أنواع الزينة والزخرفة من الداخل والخارج، وأناس متخصصون في هذا الشأن تُدفع لهم أموال كثيرة لصناعة الديكورات.

لقد أصبحت دورات المياه في فخامتها كأنها مجالس، تزين بالفسيفساء[1]، والرخام، والزجاج المعشق، وغير المعشق.

(١) الفُسيفِساء: ألوان من الخرز يؤلف بعضه إلى بعض، ثم يُركَّب بعضه إلى بعض، ثم يُركَّب حيطان البيوت من داخل، كأنه نقشٌ مصوَّر. (تهذيب اللغة، ٤/ ٢٤٧)

المبالغة في استخدام الخدم:

لم يعد الأمر مقتصراً على وجود خادمة تُعين ربة المنزل على أمورها، بل أصبحت هناك خادمات متخصصات فخادمة للتنظيف، وأخرى للطبخ، وثالثة للاعتناء بالأطفال.

وهناك البستاني المسؤول عن العناية بأشجار الحديقة، والحارس، والسائق، وقد يكون لكل فرد من أفراد العائلة سائق.

وفي بعض المنازل يكون عدد الخادمات والعاملين أكثر من عدد أفراد الأسرة.

المبالغة في الألعاب والترفيه والترويح عن النفس:

ففنادق ومدن ترفيهية يُكلِّف بناؤها الملايين، ثم يقدم الناس للإقامة فيها والاستفادة من برامجها الترفيهية، وآخر صيحات الأطعمة والألعاب، ولك أن تتخيل المبالغ الباهظة التي يدفعها من يرتاد هذه الأماكن.

اقتناء أغراض المشاهير:

بيعَ منديل أم كلثوم بخمسة ملايين دولار.

وبيع قلم نجيب محفوظ –الذي كتب به الإلحاد– بستة آلاف دولار.

أما الأميرة ديانا: قرروا أن يقطعوا ثوبها إلى قطع كثيرة جداً، كل قطعة (٢ملم)، وتباع كل قطعة بسعر ٢٥ دولار، حتى يصل سعر الثوب إلى ١٠٠ مليون دولار!

فهذه نماذج وصور من الترف التي تقع في مجتمعات المعاصرة، وهي قضية خطيرة جداً، يجب علينا مراجعة أنفسنا فيها قبل فوات الأوان.

* * *

أسباب الترف

أسباب الترف كثيرة، ومنها:

أولاً: طول الأمل، ونسيان الموت

ثانياً: التقليد الأعمى، والتأثر بالمجتمع الذي يعيش فيه الإنسان، فهناك كثير من الناس إمّعات يقلدون غيرهم تقليداً أعمى، ولا يتأملون في أفعالهم هل لها حظ من النظر والعقل، أم لا؟!

وكما يقال: يرغب الإنسان أن يكون ابن بيئته، وهذه البيئة مليئة بالبذخ والترف، فلا بد أن يواكب هذه البيئة، فيسرف في طعامه وشرابه ولبسه وسكنه.

وقد يخرج الأمر عن حد التقليد إلى جانب المباهاة والمفاخرة، فكلٌّ يريد أن يفوز على صاحبه في هذا الجانب.

ثالثاً: سوء التربية، وضعف التوجيه المناسب للأبناء، خاصة مع ما يرونه حولهم من أنواع الترف والبذخ

رابعاً: كثرة المال ووفرة النعم؛ فالمال يعمي ويصم، ويدعو إلى الركون والمتعة والراحة، ويدفع صاحبه إلى البذخ والإنفاق في غير حاجة، وقد قال تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ۝ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ﴾ [العلق: ٦-٧]، ومن أجلى صور الطغيان وأوضحها: البطر بالنعمة، والإنفاق في غير حاجة؛ ترفاً ومباهاةً وحباً للظهور.

خامساً: حب النفس للشهوات، وهذا حب غريزي، كما قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ

ﭐلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾ [آل عمران: ١٤]، وهذه المحبة الغريزية بحد ذاتها لا لوم فيها، لكن المحظور أن تقدم هذه الأشياء على حب الله ورسوله: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [التوبة: ٢٤]، فملذات الدنيا كلها بمنزلة الخمر، إذا أدمنها الإنسان صعُب عليه فراقها، والدنيا خمر الشيطان، مَنْ سَكِرَ منه لم يفُق إلا في عسكر الموتى، نادماً مع الخاسرين.

سادساً: كيد الأعداء. فإن أعداءنا عندما عرفوا أن الترف هو سبب هلاك الأمم؛ سارعوا لوضع المخططات التي تغرق الأمة الإسلامية في أنواع الترف والملذات والملهيات؛ حتى يبقى حريصين على موالاتهم ومحبتهم، خاصة وأن أكثر أنواع الترف والملذات بأيديهم، وقد قال اليهود في بروتوكلاتهم: «سنشجع حب الترف المطلق»، وقالوا أيضاً: «سنلهي الناس والجماهير بأنواع شتى من الملاهي والألعاب ومُرحيات الفراغ والمجامع العامة..».

***

آثار الترف على القلب

الفرح بالدنيا والتنعم بها والترف بملذاتها سم قاتل يسري في العروق، ويصيب القلب بآثار شنيعة، ومن تلك الآثار:

تعبيد القلب لغير الله:

القلب السليم: هو الذي سلم من الشرك والشك ومحبة الدنيا والتعلق بها، لذلك كان صاحبه من الناجين يوم القيامة، بعكس هؤلاء المترفين الذين أصبحت قلوبهم تعبد الهوى والملذات، فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «تَعِسَ عَبدُ الدِّينارِ، وَعَبدُ الدِّرهَمِ، وَعَبدُ الخَمِيصَةِ؛ إِن أُعطِيَ رَضِيَ، وَإِن لَم يُعطَ سَخِطَ، تَعِسَ وانتَكَسَ، وَإِذا شِيكَ فَلا انتَقَشَ»[1].

والرسول صلى الله عليه وسلم قد وصف المترفين بأنهم عبيد الدنانير والدراهم والخمائص؛ لأنهم يحبون لأجلها، ويغضبون لأجلها، ويفعلون كل شيء في سبيلها.

التعلق بالدنيا، والإعراض عن الآخرة:

صاحب الترف يكون قلبه متعلقاً بالملذات، حريصاً عليها غاية الحرص، كما قال تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝١٦ وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [الأعلى: ١٦-١٧].

قال ابن القيم رحمه الله: «إذا زهدت القلوب في موائد الدنيا؛ قعدت على موائد الآخرة بين أهل تلك الدعوة، وإذا رضيت بموائد الدنيا؛ فاتتها موائد الآخرة»[2].

---

(١) رواه البخاري (٢٨٨٧).

(٢) الفوائد (ص٩٨).

انشغال القلب بتحقيق السعادة

إن هدف الناس من الحرص على الملذات وأنواع الترف هو تحقيق السعادة، والقلب إذا لم يستطع أن يوجد تلك السعادة؛ بقي قلقاً مضطرباً حتى يحصل على ما يريد، والسعادة بهذه الأشياء وَهم وسراب لا يتحقق، فلا يزال الإنسان يركض وراءها، دون أن يستطيع تحقيقها.

عن زيد بن ثابت رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم يقول: «**مَنْ كانَتِ الدُّنيا هَمَّــهُ فَرَّقَ اللهُ عَلَيـهِ أَمرَهُ، وَجَعَلَ فَقرَهُ بَينَ عَينَيهِ، وَلَمْ يَأْتِـهِ مِنَ الدُّنيا إِلّا ما كُتِبَ لَهُ، وَمَن كانَتِ الآخِرَةُ نِيَّتَهُ جَمَعَ اللهُ لَهُ أَمرَهُ، وَجَعَلَ غِناهُ في قَلبِهِ، وَأَتَتهُ الدُّنيا وَهِيَ راغِمَةٌ**»[1].

وابن القيم يحدث عن شيخه ابن تيمية، الذي كان مضطهداً معذباً مسجوناً، قد أُخذت منه أوراقه وأقلامه ومحبرته، ومنع من الاتصال بالعالم الخارجي، عندما كان مسجوناً في دمشق، يقول عنه: «وعَلِمَ الله ما رأيت أحداً أطيب عيشاً منه قط، مع ما كان فيه من ضيق العيش وخلاف الرفاهية والنعيم، بل ضدها، ومع ما كان فيه من الحبس والتهديد والإرهاق، وهو مع ذلك من أطيب الناس عيشاً، وأشرحهم صدراً، وأقواهم قلباً، وأسرِّهم نفساً، تلوح نضرة النعيم على وجهه، وكنا إذا اشتد بنا الخوف وساءت منا الظنون وضاقت بنا الأرض أتيناه، فما هو إلا نراه ونسمع كلامه فيذهب ذلك كله، وينقلب انشراحاً وقوةً ويقيناً وطمأنينة، فسبحان من أشهد عباده جنته قبل لقائه، وفتح لهم أبوابها في دار العمل، فأتاهم من رَوحها ونسيمها وطيبها ما استفرغ قواهم لطلبها والمسابقة إليها.

وكان بعضهم يقول: «لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه؛ لجالدونا عليه بالسيوف»[2].

الترف يجرّ على القلب أدواء أخرى:

كالكبر، والتباهي، والتفاخر، والعجب، وينفي عنه التواضع، ولين الجانب

---

(١) رواه ابن ماجة (٤١٠٥)، وصححه الألباني.

(٢) الوابل الصيب (ص٦٧).

الترف يدعو لمشاركة الفسّاق فسقهم ومجونهم:

لأنهم هم الذين يزدحمون على مواضع الشهوات، أما أهل الدين والمترفعين عن الدنيا: فإنهم لا يتعلقون بها ولا يزدحمون عليها.

قيل لبعضهم: ما الذي زهّدك في الدنيا؟ قال: قلة وفائها، وكثرة جفائها، وخسّة شركائها[1].

للترف أضرارٌ سيئة على الجسد:

أجساد أهل الترف لا تتحمل المشاق، وتصاب بالأمراض لأدنى الأسباب؛ لأن الله فطر الجسم على تحمل المشاق، فإذا خالف الإنسان الفطرة ركبته هذه الأدواء.

يقول ابن رجب رحمه الله: «... وليس المأمور به أن يتقي البرد حتى لا يصيبه منه شيء بالكلية؛ فإن ذلك يضر أيضاً، وقد كان بعض الأمراء يصون نفسه من الحر والبرد بالكلية حتى لا يحس بهما بدنه؛ فتلف باطنه وتعجل موته»[2].

فالترف يؤثر على الصحة، ويجعل مقاومة الأمراض ضعيفة، ويجعل الإنسان غير قادر على مواجهة شدائد العيش.

الترف مضيعة للوقت:

المُترف يستهلك الأوقات بحثاً عن الملذات والشهوات، ولو علم أهمية الوقت ما أضاعه في ملذاته الفانية.

عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: «**نِعمَتانِ مَغبُونٌ فيهِما كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ: الصِّحَّةُ والفَرَاغُ**»[3].

(١) مدارج السالكين (٢/١٦).
(٢) لطائف المعارف (ص٣٥٦).
(٣) رواه البخاري (٦٤١٢).

الترف يقود إلى التكاسل عن العبادات:

لأن المُترف يريد التنعم في ملذات الدنيا؛ فلا يجد وقتاً لقراءة القرآن، ولا لصيام النهار، ولا لقيام الليل، وسائر العبادات.

الترف يفسد المجتمع:

فالترف يصبح المجتمع كسولاً، وتقل فيه أنواع الإنتاج المتنوعة، فيقل فيه الإنتاج الزراعي، والصناعي، والتجاري، وغير ذلك؛ لأن الجميع يسعى إلى أنواع الترف والملذات التي تستهلك الأوقات والصحة.

* * *

علاج الترف

يكمن علاج الترف في أمور متعددة، منها:

عدم تعويد النفس على الراحة والدعة والكسل:

عن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ العَجزِ، والكَسَلِ، والجُبنِ، والهَرَمِ**»[1] فالعجز هو عدم القدرة، والكسل ترك الشيء مع القدرة عليه.

وَلَمْ أَرَ فِي عُيُوبِ النَّاسِ عَيباً ... كَنَقصِ القَادِرِينَ عَلَى التَّمَامِ[2]

فيُعَوِّدُ الإنسان نفسه على العمل، سواء كان العمل الوظيفي، أو العمل داخل البيت، كخدمة أهله، ونحو ذلك.

عن الأسود قال: سألت عائشة رضي الله عنها: ما كان النبي صلى الله عليه وسلم يصنع في بيته؟ قالت: «كان يكون في مهنة أهله»[3]. تعني: خدمة أهله.

فمن المناسب جداً أن تتعود البنتُ على غسل الصحون وتنظيف البيت، ويتعود الولدُ على قصِّ الزرع وتهذيب الحديقة، وغسل السيارة، وشراء حاجيات البيت من السوق، وغير ذلك.

---

(١) رواه البخاري (٢٨٢٣) ومسلم (٢٧٠٦).

(٢) مفتاح دار السعادة (١/ ١١٠).

(٣) رواه البخاري (٦٧٦).

الزهد في الدنيا والتقلل من مُتَعِها.

وهو أهم العلاجات، فيدعو الإنسان لنفسه ولأهله بأن يزهدوا في الدنيا، عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**اللَّهُمَّ اجعَل رِزقَ آلِ مُحَمَّدٍ كَفافاً**»[1].

ولو تأمل أحدنا في حقيقة الدنيا؛ لوجدها حقيرة لا تستحق كل هذا التعب والجري خلفها، فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مر بجدي أسكّ[2] ميت، فتناوله، فأخذ بأذنه ثم قال: «**أيُّكُم يُحِبُّ أَنَّ هَذا لَهُ بِدِرهَمٍ؟**». فقالوا: ما نحب أنه لنا بشيء، وما نصنع به؟ قال: «**أَتُحِبُّونَ أَنَّهُ لَكُم؟**». قالوا: والله لو كان حيا كان عيبا فيه؛ لأنه أسكّ، فكيف وهو ميت؟ فقال: «**فَوالله لَلدُّنيا أَهوَنُ عَلَى الله مِن هَذا عَلَيكُم**»[3].

عن سهل بن سعد رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**لَو كانَتِ الدُّنيا تَعدِلُ عِندَ الله جَناحَ بَعُوضَةٍ ما سَقَى كافِراً مِنها شَربَةَ ماءٍ**»[4].

وهذه الحياة لا تستحق أن يُفرح بنعيمها، ولا أن يُحزن بفوات ملذاتها، لما سئل الإمام أحمد رحمه الله: عمن معه ألف دينار ألا يكون زاهداً؟ قال: «نعم، بشرط أن لا يفرح إذا زادت، ولا يحزن إذا نقصت»[5].

عن عُبَيدِ اللهِ بنِ مِحصَنٍ الأنصاري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**مَن أَصبَحَ مِنكُم آمِناً في سِربِهِ مُعافًى في جَسَدِهِ عِندَهُ قُوتُ يَومِهِ فَكَأَنَّما حِيزَت لَهُ الدُّنيا**»[6].

فينبغي على الإنسان أن يأخذ الدنيا بسخاوة نفس، يعطي هذا، ويصل هذا، ويتصدق على هذا، فالمال الذي عنده كأنه للناس.

---

(١) رواه مسلم (١٠٥٥).

(٢) أي: صغير الأذنين.

(٣) رواه مسلم (٢٩٥٧).

(٤) رواه الترمذي (٢٣٢٠)، وصححه الألباني.

(٥) مدارج السالكين (١/ ٤٦٥)، فيض القدير (٤/ ٧٢).

(٦) رواه الترمذي (٢٣٤٦)، وحسنه الألباني.

أن ينظر الإنسان إلى من هو دونه في الدنيا، ولا ينظر إلى من هو فوقه:

حتى يعرف نعمة الله عليه، ولا يتطلع إلى الزينة التي فيها أصحاب الترف

تقصير الأمل.

عن عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «أخذ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بمنكبي فقال: «كُن في الدُّنيا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَو عابِرُ سَبِيلٍ». وكان ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يقول: إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء، وخذ من صحتك لسقمك، ومن حياتك لموتك»[١]

وعن حفص بن سليمان رَحِمَهُ اللَّهُ قال: دخل رجل على أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فجعل يقلّب بصره في بيته، فقال: يا أبا ذر أين متاعكم؟ قال: «إن لنا بيتاً نوجه إليه صالح متاعنا» -يقصد: في الآخرة- قال: إنه لابد لك من متاع ما دمت ها هنا. قال: «إن صاحب المنزل لا يدعنا فيه»[٢]

ودخلوا على بعض الصالحين، فقلّبوا أبصارهم في بيته، فقالوا: إنا نرى بيتك بيت رجل مرتحل!، فقال: «أَمُرتَحِلٌ؟ لا أَرتَحِلُ وَلَكِن، أُطرَدُ طَرداً»[٣].

فالمرء منا لا يُطلب منه أن يرحل من هذه الحياة، بل يُطرد منها طرداً، فيؤخذ في ثانية، وتخرج روحه بدون استئذان ولا إمهال، ولا إعطاء فترة مهلة للمغادرة.

النظر في سيرة الصالحين والزهاد:

مَن نظر في سيرة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وجد زهداً ليس له نظير، يدعوه إلى الامتثال والاتباع

عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «لم يأكل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على خوان[٤] حتى مات، وما أكل خبزاً مرققاً حتى مات»[٥].

وعن أبي حازم قال: سألت سهل بن سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقلت: هل أكل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

---

(١) رواه البخاري (٦٤١٦).

(٢) شعب الإيمان (١٠٦٥١)

(٣) جامع العلوم والحكم (ص٣٨١).

(٤) طبق مرتفع يوضع عليه الطعام، وهو ما يسمى الآن بالطاولة، والمنضدة.

(٥) رواه البخاري (٦٤٥٠)

النَّقِيَّ[1]؟ فقال سهل: «ما رأى رسول الله ﷺ النقي من حين ابتعثه الله حتى قبضه الله» قال: فقلت: هل كانت لكم في عهد رسول الله ﷺ مناخل؟ قال: «ما رأى رسول الله ﷺ منخلا من حين ابتعثه الله حتى قبضه». قال: قلت: كيف كنتم تأكلون الشعير غير منخول؟ قال: «كنا نطحنه وننفخه فيطير ما طار، وما بقي ثَرَّيناه[2] فأكلناه»[3].

وعن أبي بردة قال: أخرجت إلينا عائشة رضي الله عنها كساء وإزارا غليظا، فقالت: «قُبض روح النبي ﷺ في هذين»[4].

وقد ضرب كثيرٌ من الصحابة والتابعين أمثلة رائعة للزهد والتقلل من حياة الترف والملهيات والملذات.

فهذا مصعب بن عمير رضي الله عنه الذي كان يُضرب به المثل في الترف في قريش، فلم يكن هناك من يدانيه في لباسه وطيبه، ثم ترك حياة المترفين والتحق بركب الزاهدين، ولما مات ما وجدوا له كفناً يكفيه، وما وجدوا إلا بردة إذا غطوا بها رأسه بدت رجلاه، وإذا غطوا رجليه بدا رأسه[5].

وعمر بن عبد العزيز مثال رائع آخر لمن زَهِدَ بعد حياة الترف:

عن حجاج الصواف قال: أمرني عمر بن عبد العزيز وهو والٍ على المدينة أن أشتري له ثياباً، فاشتريت له ثوباً، فكان فيها ثوب بأربعمائة، فقطعه قميصاً ثم لمسه بيده، فقال: «ما أخشنه وأغلظه»، ثم أمر بشراء ثوب له وهو خليفة، فاشتروه بأربعة عشر درهماً فلمسه بيده، فقال: «سبحان الله، ما ألينه وأدقه»[6].

وأتى عبد الله بن عمر بن عبد العزيز إلى أبيه وهو خليفة، يستكسي أباه، فقال: يا أبت

---

(١) هو خبز الدقيق الأبيض النظيف من الغش والنخالة. فتح الباري (٩/ ٥٤٨).
(٢) أي: بللناه بالماء وعجناه، ثم خبزناه وأكلناه.
(٣) رواه البخاري (٥٤١٣).
(٤) رواه البخاري (٥٨١٨).
(٥) انظر: صحيح البخاري (١٢٧٥)، الثقات لابن حبان (١/ ٢٣٤).
(٦) الطبقات الكبرى لابن سعد (٥/ ٣٣٤).

اكسني. فقال: «اذهب إلى الخيار بن رباح البصري، فإن لي عنده ثياباً، فخذ منها ما بدا لك». قال: فذهب إلى الخيار بن رباح فقال: إني استكسيت أبي، فأرسلني إليك، وقال لي: إن لي عند الخيار بن رباح ثياباً. فقال: صدق أمير المؤمنين، فأخرج إليه ثياباً سنبلانية[1] أو قطرية[2] - وهي ثياب متواضعة -. فقال: هذه ما لأمير المؤمنين عندي، فخذ منها. فرجع عبد الله بن عمر إلى أبيه عمر بن عبد العزيز رحمه الله، فقال: يا أبتاه، استكسيتك فأرسلتني إلى الخيار بن رباح، فأخرج لي ثياباً ليست من ثيابي، ولا من ثياب قومي. قال: «فذاك ما لنا عند الرجل». فانصرف عبد الله بن عمر، حتى إذا كاد أن يخرج ناداه، فقال: «هل لك أن أسلفك من عطائك[3] مائة درهم؟» قال: نعم يا أبتاه. فأسلفه مائة درهم، فلما خرج عطاؤه حُوسب بها، فأُخذت منه[4].

وكان عمر بن عبد العزيز رحمه الله في غاية الزهد، قال مالك بن دينار رحمه الله: «الناس يقولون مالك بن دينار زاهد، إنما الزاهد عمر بن عبد العزيز؛ أتته الدنيا فتركها»[5].

ومن العلاجات المهمة: أن يترك الإنسان بعض النعيم الذي يقدر عليه.

عن معاذ بن أنس الجهني عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**مَن تَرَكَ اللِّبَاسَ تَوَاضُعاً للهِ وَهُوَ يَقْدِرُ عَلَيْهِ دَعَاهُ اللهُ يَوْمَ القِيَامَةِ عَلَى رُءُوسِ الخَلائِقِ حَتَّى يُخَيِّرَهُ مِن أَيِّ حُلَلِ الإيمانِ شَاءَ يَلْبَسُها**»[6].

وعن أبي عثمان قال: كتب إلينا عمر رضي الله عنه: «إياكم والتنعم وزي أهل الشرك ولبوس الحرير؛ فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن لبوس الحرير»[7].

---

(١) هي الثياب السابغة الطويلة.

(٢) ثياب حمراء مخططة فيها بعض الخشونة.

(٣) أي: عطاؤه من بيت المال.

(٤) تاريخ دمشق (١٧/ ٦٦-٦٧).

(٥) السنة لعبد الله بن أحمد (١/ ١١٩).

(٦) رواه الترمذي (٢٤٨١)، وصححه الحاكم.

(٧) رواه مسلم (٢٠٦٩).

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: «ذروا التنعم وزي العجم»[١].

وعن أبي أمامة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يا ابنَ آدمَ، إنَّكَ أن تَبذُلَ الفَضلَ خَيرٌ لَكَ، وَأن تُمسِكَهُ شَرٌّ لَكَ، وَلا تُلامُ عَلَى كَفافٍ، وابدَأ بِمَن تَعُولُ، واليَدُ العُليا خَيرٌ مِنَ اليَدِ السُّفلَى»[٢].

ومن وسائل محاربة الترف: مشاركة الفقراء في طعامهم وشرابهم:

عن ابن عباس رضي الله عنهما، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جاء إلى السقاية فاستسقى، فقال العباس: يا فضل، اذهب إلى أمك فأت رسول الله صلى الله عليه وسلم بشراب من عندها، فقال صلى الله عليه وسلم: «اسقِنِي» قال: يا رسول الله، إنهم يجعلون أيديهم فيه!، قال: «اسقِنِي» فشرب منه[٣].

فالعباس أراد أن يأتي النبي صلى الله عليه وسلم بماء لم يضع أحدٌ يده فيه، ولكنه صلى الله عليه وسلم أبى إلا مشاركة الناس في شرابهم.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «لَو دُعِيتُ إلى ذِراعٍ أو كُراعٍ لَأَجَبتُ، وَلَو أُهدِيَ إلَيَّ ذِراعٌ أو كُراعٌ لَقَبِلتُ»[٤].

أي: لو أهدي إليه شيء عليه لحم قليل جداً، أو ما عليه لحم أصلاً لقبله.

فهذه بعض السبل لمحاربة الترف الموجود الآن بكثرة في حياتنا، ولابُدَّ من مراعاة ذلك، خاصَّة مع أطفالنا؛ فهم جيل المستقبل، ومَعقِد الآمال.

* * *

---

(١) رواه أحمد في المسند (١/ ٣٩٤)، وصححه شعيب الأرنؤوط.

(٢) رواه مسلم (١٠٣٦).

(٣) رواه البخاري (١٦٣٦).

(٤) رواه البخاري (٢٥٦٨).

الخاتمة

إن هذه الحياة التي يعيشها هؤلاء المترفون ما هي إلا نعيم زائل، ومتاع قليل، أراد الله أن يختبر بها عباده، وقليلٌ من عباده الشكور، قال نفطويه:

إذا ما كَساكَ الدَّهرُ ثَوبَ مَصَحَّةٍ وَلَم يَخلُ مِن قُوتٍ يَحلَى وَيَعذُبُ

فَلا تَغبِطَنَّ المُترَفينَ فَإِنَّهُ عَلَى حَسبِ ما يُعطيهِمُ الدَّهرُ يَسلُبُ[1]

واحذروا متالف السرف، وسوء عاقبة الترف؛ فإنهما يعقبان الفقر، ويذلّان الرقاب، ويفضحان أهلهما.

والترف وإن كان مذموماً من جميع الناس إلا أنه في حق طلبة العلم والدعاة أكثر ذماً، وهذا المرض قد انتشر بين الناس عامتهم وخاصتهم، وقلَّ أن يسلم منه أحد.

وخير الأمور هو التوسط، وعدم الإفراط في ملازمة الطيبات؛ فإنه يؤدي إلى الترفه والبطر، ولا يأمن من الوقوع في الشبهات، فإن من اعتاد ذلك قد لا يجده أحياناً، فلا يستطيع الصبر عنه، فيقع في المحظور.

كما أن من منع نفسه من جميع الطيبات فقد يفضي به ذلك إلى التنطع، وهو التكلف المؤدي إلى الخروج عن السنة، المنهي عنه.

نسأل الله عَزَّوَجَلَّ أن يصلح نياتنا وذرياتنا، وأن يجعل عيشنا كفافاً وأمرنا سداداً، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين. وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم.

***

(١) فيض القدير (٦/ ٦٨).

اختبر فهمك

فيما يلي مستويات من الأسئلة حول الموضوع. أسئلة حلولها مباشرة، وهي أسئلة المستوى الأول.

وأسئلة تحتاج إلى بحث وتأمل، وهي أسئلة المستوى الثاني.

أسئلة المستوى الأول (المباشرة):

١. عرّف الترف لغة واصطلاحاً.

٢. اذكر ثلاثة من صور الترف المعاصرة.

٣. ما هي أسباب شيوع ظاهرة الترف؟

٤. اذكر ثلاثة من آثار الترف على الفرد والمجتمع.

٥. لكل داء دواء، فما دواء الترف؟

أسئلة المستوى الثاني (الاستنباطية):

١. لماذا ذُمّ الترف في القرآن الكريم؟

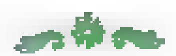
٢. هل الترف والغنى متلازمان؟ وضح ذلك.

٣. كيف يكون الترف سبيلاً لتعبيد القلب لغير الله؟

٤. (وعلم الله ما رأيت أحداً أطيب عيشاً منه) من القائل؟ ومن المقصود؟ وما مناسبته؟

٥. الترف مفسد للمجتمع، وضح ذلك.

٦. هل يجتمع الزهد في الدنيا وحب جمع المال؟.





النفاق



مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

فإن النفاق داء وبيل، وانحراف خطير، وشر مستطير، وهو من أخطر الأمراض التي تفسد القلب إن لم يكن أخطرها، والإنسان لا يرضى لنفسه النفاق غير أنه قد يقع فيه من حيث لا يشعر، وبالأخص النفاق العملي، وهذا لا يعني أن يقف الإنسان عاجزا عن مواجهته، ويخطئ من يستهين به دون أن يحصن نفسه منه؛ لأنه يسلب من الإنسان كل صفات الخير، ويحرمه من فعل الصالحات، وينتزع منه كل القيم السامية؛ حتى يجعله منبوذاً مدحوراً. وقد جاءت سور القرآن بكشف أهله، وذكر صفاتهم.

وسنتطرق في هذا الفصل إلى تعريف النفاق، وذكر أنواعه، وبيان صفات المنافقين، وسبل الوقاية منه.

أشكر كل من ساهم في إعداد هذه المادة وإخراجها، وصلى الله وسلم على نبينا محمد.

* * *

تعريف النفاق

النفاق لغة:

(نفق) النون والفاء والقاف أصلان صحيحان، يدل أحدهما على انقطاع شيء وذهابه، والآخر على إخفاء شيء وإغماضه.

مأخوذ من النفق، وهو السرب في الأرض الذي يُستَتَر فيه، وسمّي النفاق بذلك؛ لأنّ المنافق يستر كفرَه[1].

والنفاق اصطلاح شرعي، لم تعرفه العرب بالمعنى المخصوص به، وإن كان أصله معروفاً في اللغة العربية.

النفاق شرعاً:

إظهار الخير، وإسرار الشر.

عن ابن جريج قال: «المنافق يخالف قولُه فعلَه، وسرُّه علانيتَه، ومدخلُه مخرجَه، ومشهدُه مغيبَه»[2].

* * *

(١) انظر: لسان العرب (١٠/ ٣٥٧)، وانظر: معجم مقاييس اللغة (٥/ ٤٥٥).

(٢) تفسير القرآن العظيم (١/ ١٧٦).

أنواع النفاق

النفاق ينقسم إلى: نفاق أكبر ونفاق أصغر.

قال ابن تيمية رحمه الله: «والنفاق كالكفر، نفاق دون نفاق، ولهذا كثيراً ما يقال: كفر ينقل عن الملة، وكفر لا ينقل، ونفاق أكبر، ونفاق أصغر»[1].

١. النفاق الاعتقادي (النفاق الأكبر):

وهو أن يُظهر الإيمان والإسلام وهو كافر في الباطن، وهذا هو النفاق الذي كان على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، ونزل القرآن بذمّ أهله وتكفيرهم، وأخبر أن أهله في الدرك الأسفل من النار.

قال ابن رجب رحمه الله: «النفاق الأكبر، وهو أن يظهر الإنسان الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، ويبطن ما يناقض ذلك كلَّه أو بعضَه»[2].

وقد يطلق الفقهاء لفظ الزنديق على المنافق

قال ابن القيم رحمه الله: «طبقة الزنادقة، وهم قوم أظهروا الإسلام ومتابعة الرسل، وأبطنوا الكفر ومعاداة الله ورسله، هؤلاء هم المنافقون، وهم في الدرك الأسفل من النار»[3].

٢. النفاق العملي (النفاق الأصغر):

وهو ترك المحافظة على أمور الدين سراً، ومراعاتها علناً، مع الإيمان بالله وصحة الاعتقاد.

(١) مجموع الفتاوى (٧/ ٥٢٤).
(٢) جامع العلوم والحكم (ص٤٣١).
(٣) طريق الهجرتين (ص٥٩٥).

قال ابن رجب رحمه الله: «النفاق الأصغر، وهو نفاق العمل، وهو أن يُظهر الإنسان علانية صالحة، ويُبطن ما يخالف ذلك»[1].

والنفاق الأصغر العملي قد يجتمع في قلب المسلم مع أصل الإيمان، وهو من أكبر الذنوب والمعاصي، بخلاف النفاق الأكبر فإنه ينافي الإيمان، فلا يجتمع نفاق أكبر مع الإيمان بالله في قلب عبد.

ولكن إذا استحكم النفاق الأصغر وكمل؛ فقد يفضي بصاحبه إلى النفاق الأكبر، والانسلاخ من الدين بالكلية.

والنفاق العملي لا يخلّد صاحبه في النار، بل حكمه حكم سائر أهل الكبائر، فإن شاء الله غفر له وأدخله الجنة، وإن شاء عذبه على ذنوبه، ثم يكون مآله إلى الجنة.

والنفاق في الدين منه ما هو أصلي، ومنه ما هو طارئ:

فالمقصود بالنفاق الأصلي: النفاق الذي لم يُسبق بإسلام صحيح، فقد تدفع المصلحة الدنيوية بعض الناس، إلى التظاهر بالانتساب للإسلام وهو غير مؤمن به في قلبه، فيكون منافقاً منذ اللحظة الأولى لإعلان إسلامه، ثم يستمر على هذا النفاق.

وقد يعلن بعض الناس إسلامهم وهم صادقون، ثم يطرأ الشك والنفاق على قلوبهم، بعد تعرضهم لابتلاءات محتمة يمتحن الله بها صدق إيمانهم، فيرتدّون عن الإسلام رِدّة داخلية، ويخشون إعلان ردتهم، ويستمرون على التظاهر بالإسلام، مخافة إجراء أحكام الردة عليهم، أو مخافة فوات منافع دنيوية تأتيهم بوصفهم مسلمين، أو مخافة تعرضهم للذم وفقدهم مكانتهم في المجتمع، أو غير ذلك من صور المنافع التي يرونها، فيستمرون على إظهار الإسلام، بينما هم في الحقيقة كافرون مرتدون.

* * *

(١) جامع العلوم والحكم (١/ ٤٣١)

الخوف من النفاق

اشتد خوف الصحابة ومن بعدهم من الصالحين من النفاق حتى كان أبو الدرداء رضي الله عنه إذا فرغ من التشهد في الصلاة يتعوذ بالله من النفاق، ويكثر التعوذ منه، فقال له أحدهم: ومالك يا أبا الدرداء أنت والنفاق؟، فقال: «دعنا عنك، دعنا عنك، فو الله إنَّ الرَّجُلَ لَيُقْلَبُ عَن دِينِهِ في السَّاعَةِ الواحِدَةِ، فَيُخلعُ منهُ»[1].

وعن حَنظَلَةَ الأُسَيِّدِيِّ رضي الله عنه قالَ: لَقِيَنِي أَبو بَكرٍ، فَقالَ: كَيفَ أنتَ؟ يا حَنظَلَةُ قالَ: قُلتُ: نافَقَ حَنظَلَةُ، قالَ: سُبحانَ اللهِ ما تَقُولُ؟ قالَ: قُلتُ: نَكُونُ عِندَ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم، يُذَكِّرُنا بِالنّارِ والجَنَّةِ، حَتَّى كَأنّا رَأْيُ عَينٍ، فَإذا خَرَجنا مِن عِندِ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم، عافَسنا الأزواجَ والأولادَ والضَّيعاتِ، فَنَسِينا كَثِيرًا، قالَ أبو بَكرٍ: فَواللهِ إنّا لَنَلقَى مِثلَ هَذا، فانطَلَقتُ أنا وأبو بَكرٍ، حَتَّى دَخَلنا عَلَى رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم، قُلتُ: نافَقَ حَنظَلَةُ، يا رَسُولَ اللهِ فَقالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: «وَما ذاكَ؟» قُلتُ: يا رَسُولَ اللهِ نَكُونُ عِندَكَ، تُذَكِّرُنا بِالنّارِ والجَنَّةِ، حَتَّى كَأنّا رَأْيُ عَينٍ، فَإذا خَرَجنا مِن عِندِكَ، عافَسنا الأزواجَ والأولادَ والضَّيعاتِ، نَسِينا كَثِيرًا. فَقالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: **«والَّذِي نَفسِي بِيَدِهِ إن لَو تَدُومُونَ عَلَى ما تَكُونُونَ عِندِي، وَفي الذِّكرِ، لَصافَحَتكُمُ المَلائِكَةُ عَلَى فُرُشِكُم وَفي طُرُقِكُم، وَلَكِن يا حَنظَلَةُ ساعَةً وَساعَةً»** ثَلاثَ مَرّاتٍ[2].

ومعنى (نافق حنظلة): أنه خاف أنه منافق حيث كان يحصل له الخوف في مجلس النبي صلى الله عليه وسلم، ويظهر عليه ذلك، مع المراقبة والفكر والإقبال على الآخرة، فإذا خرج اشتغل

(١) سير أعلام النبلاء (٦/ ٣٨٢) قال الذهبي: إسناده صحيح.

(٢) رواه مسلم (٢٧٥٠).

بالزوجة والأولاد ومعاش الدنيا، وأصل النفاق إظهار ما يكتم خلافَه من الشرّ، فخاف أن يكون ذلك نفاقاً، فأعلمهم النبي ﷺ أنه ليس بنفاق، وأنهم لا يُكلَّفون الدوام على ذلك.

«ساعةً وساعةً» أي: ساعة كذا، وساعة كذا[1].

وعن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال: دُعي عمر لجنازة فخرج فيها أو يريدها، فتعلّقتُ به فقلتُ: اجلس يا أمير المؤمنين، فإنه من أولئك أي: من المنافقين، فقال: «نشدتك الله، أنا منهم؟» قال: لا، ولا أبرئ أحداً بعدك[2].

وقال ابن أبي مليكة رحمه الله: «أدركتُ ثلاثينَ مِن أصحابِ النَّبيِّ ﷺ، كُلُّهُم يخافُ النِّفاقَ علَى نَفسِهِ، ما مِنهُم أحَدٌ يقُولُ: إنَّهُ علَى إيمانِ جِبريلَ ومِيكائيلَ»[3].

وقال ابن القيم رحمه الله: «تالله لقَد مُلِئَت قُلُوبُ القومِ إيماناً ويَقيناً، وخوفُهُم مِنَ النِّفاقِ شَدِيدٌ، وهَمُّهُم لِذَلِكَ ثَقِيلٌ، وسِواهُم كَثِيرٌ مِنهُم لا يُجاوِزُ إيمانُهُم حَناجِرَهُم، وهُم يدَّعُونَ أنَّ إيمانَهُم كإيمانِ جِبرِيلَ ومِيكائِيلَ»[4].

وما عنوا به النفاق الذي هو ضد أصل الإيمان، بل المراد به ما يجتمع مع أصل الإيمان، فيكون مسلماً منافقاً. وله علامات كثيرة، فعن عبدِ اللهِ بنِ عمرٍو أنَّ النَّبيَّ ﷺ قالَ: **«أربَعٌ مَن كُنَّ فيهِ كانَ مُنافِقاً خالِصاً، ومَن كانَت فيه خَصلَةٌ مِنهُنَّ كانَت فيهِ خَصلَةٌ مِنَ النِّفاقِ حَتَّى يَدَعَها: إذا اؤتُمِنَ خانَ، وإذا حَدَّثَ كَذَبَ، وإذا عاهَدَ غَدَرَ، وإذا خاصَمَ فَجَرَ»**[5].

* * *

(١) شرح النووي على مسلم (١٧/ ٦٦-٦٧).

(٢) رواه البزار (٤٢٢٥)، وقال الهيثمي في المجمع (٣/ ٤٢): رجاله ثقات.

(٣) رواه البخاري (١/ ٢٦).

(٤) مدارج السالكين (١/ ٣٥٨).

(٥) رواه البخاري (٣٤)، ومسلم (٥٨)، وانظر: إحياء علوم الدين (٤/ ١٧٢).

صفات المنافقين
في الكتاب والسنة

جاء ذكر المنافقين في القرآن الكريم، وفي السنة المطهرة، في مواضع عديدة، تبيِّن صفاتهم، وتحذِّر المؤمنين منهم، حتى أفرد الله تعالى سورة خاصة بهم، ومن صفاتهم:

• **مرض القلب:**

قال الله تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ [البقرة: ١٠]

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «قد نهكت أمراض الشُّبهات والشَّهوات قُلُوبهم فأهلكتها، وغلبتِ القُصُودُ السَّيِّئةُ على إراداتِهم ونيَّاتِهم فأفسدتها، ففسادُهم قد ترامى إلى الهلاك، فعجز عنهُ الأطبَّاءُ العارفُون، ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾»[1]

• **الطمع الشهواني:**

قال الله تعالى: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾ [الأحزاب: ٣٢]

فيطمع الذي في قلبه ضعف، فهو لضعف إيمانه في قلبه: إما شاكٌّ في الإسلام منافق، فهو لذلك من أمره يستخفّ بحدود الله، وإما متهاون بإتيان الفواحش[2].

---

(١) مدارج السالكين (١/٣٤٩).

(٢) جامع البيان (٢٠/٢٥٨).

• **التكبّر والاستكبار:**

قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ [المنافقون: ٥].

يقول تعالى مخبرًا عن المنافقين - عليهم لعائن الله - أنهم إذا قيل لهم: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ أي: صدّوا وأعرضوا عمّا قيل لهم استكبارًا عن ذلك، واحتقارًا لما قيل، ولهذا قال تعالى: ﴿وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ ثم جازاهم على ذلك؛ فقال تعالى: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾[1].

• **الاستهزاء بآيات الله:**

قال الله تعالى: ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ٦٤].

يخشى المنافقون أن تنزل فيهم سورة تنبئهم بما في قلوبهم، أي: تُظهر المؤمنين على ما في قلوبهم. وقيل: إن الله أنزل هذه الآية على رسول الله ﷺ لأن المنافقين كانوا إذا عابوا رسول الله ﷺ وذكروا شيئًا من أمره وأمر المسلمين قالوا: لعلّ الله لا يفشي سرّنا. فقال الله لنبيه ﷺ: قل لهم: ﴿اسْتَهْزِئُوا﴾، متهدِّدًا لهم متوعِّدًا، ﴿إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ﴾[2].

• **الاستهزاء بالمؤمنين:**

قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ۝ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [البقرة: ١٤-١٥].

قال ابن القيم رحمه الله: «لكل منهم وجهان: وجه يلقى به المؤمنين، ووجه ينقلب به إلى إخوانه من الملحدين، وله لسانان: أحدهما يقبله بظاهره المسلمون، والآخر يُترجم به عن سرّه المكنون.

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٤٧٣).

(٢) جامع البيان (١٤/ ٣٣٦).

وقد أعرضوا عن الكتاب والسنّة؛ استهزاءً بأهلها واستحقاراً، وأبوا أن ينقادوا لحكم الوحيين؛ فرحاً بما عندهم من العلم الذي لا ينفع الاستكثار منه إلا أشراً واستكباراً، فتراهم أبداً بالمتمسكين بصريح الوحي يستهزؤون ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾»[1].

• صدّ الناس عن الإنفاق:

قال الله تعالى: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟ ۗ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَـٰكِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [المنافقون: ٧].

عَنْ زَيْدِ بنِ أَرْقَمَ، قَالَ: «كُنْتُ فِي غَزَاةٍ، فَسَمِعْتُ عَبْدَ اللهِ بنَ أُبَيٍّ، يَقُولُ: لاَ تُنفِقُوا عَلَى مَن عِندَ رَسُولِ اللهِ حَتَّى يَنفَضُّوا مِن حَوْلِهِ، وَلَئِن رَجَعنا مِن عِندِهِ لَيُخرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنها الأَذَلَّ، فَذَكَرتُ ذَلِكَ لِعَمِّي أَو لِعُمَرَ، فَذَكَرَهُ لِلنَّبِيِّ ﷺ، فَدَعانِي فَحَدَّثتُهُ، فَأَرسَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَى عَبدِ اللهِ بنِ أُبَيٍّ وَأَصحابِهِ، فَحَلَفُوا ما قالُوا، فَكَذَّبَنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ وَصَدَّقَهُ، فَأَصابَنِي هَمٌّ لَم يُصِبنِي مِثلُهُ قَطُّ، فَجَلَستُ فِي البَيتِ، فَقالَ لِي عَمِّي: ما أَرَدتَ إِلَى أَن كَذَّبَكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَمَقَتَكَ؟ فَأَنزَلَ اللهُ تَعالَى ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ﴾ [المنافقون: ١] فَبَعَثَ إِلَيَّ النَّبِيُّ ﷺ فَقَرَأَ فَقالَ: «إِنَّ اللهَ قَد صَدَّقَكَ يا زَيدُ»»[2].

• السّفه، ثم رمي المؤمنين بالسفه:

قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَـٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٣].

قال ابن القيم رحمه الله: «المتمسك عندهم بالكتاب والسنّة صاحب ظواهر، مبخوس حظّه من المعقول، والدائر مع النصوص عندهم كحمار يحمل أسفاراً، فهمّه في حمل المنقول، وبضاعة تاجر الوحي لديهم كاسدة، وما هو عندهم بمقبول، وأهل الاتباع عندهم سفهاء، فهم في خلواتهم ومجالسهم بهم يتطيرون»[3].

(١) مدارج السالكين (١/ ٣٥٠).

(٢) رواه البخاري (٤٩٠٠)، ومسلم (٢٧٧٢).

(٣) مدارج السالكين (١/ ٣٥٠).

• **موالاة الكافرين:**

قال الله تعالى: ﴿بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٣٨ - ١٣٩]

يقول الله لنبيه يا محمد ﴿بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ الذين يتخذون أهل الكفر بي والإلحاد في ديني أولياء، يعني أنصارا وأخلاء من دون المؤمنين، يعني: من غير المؤمنين. ﴿أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ﴾ يقول: أيطلبون عندهم المنعة والقوة باتخاذهم إياهم أولياء من دون أهل الإيمان بي ﴿فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ يقول: فإن الذين اتخذوهم من الكافرين أولياء ابتغاء العزة عندهم هم الأذلاء الأقلاء، فهلّا اتخذوا الأولياء من المؤمنين، فيلتمسوا العزّة والمنعة والنصرة من عند الله الذي له العزة والمنعة، الذي يعزّ من يشاء ويذلّ من يشاء، فيعزّهم ويمنعهم[1].

• **التربص بالمؤمنين:**

قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٤١].

يعني جل ثناؤه بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ﴾ الذين ينتظرون أيها المؤمنون بكم ﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ يعني: فإن فتح الله عليكم فتحا من عدوكم، فأفاء عليكم فيئا من المغانم، ﴿قَالُوٓا۟﴾ لكم ﴿أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾ نجاهد عدوّكم، ونغزوهم معكم، فأعطونا نصيبا من الغنيمة، فإنا قد شهدنا القتال معكم، ﴿وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ﴾ يعني: وإن كان لأعدائكم من الكافرين حظ منكم بإصابتهم منكم ﴿قَالُوٓا۟﴾ يعني: قال هؤلاء المنافقون للكافرين ﴿أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ﴾ ألم نغلب عليكم حتى قهرتم المؤمنين، ونمنعكم منهم بتخذيلنا إياهم، حتى امتنعوا منكم فانصرفوا، ﴿فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ يعني: فالله يحكم بين المؤمنين والمنافقين يوم القيامة،

(١) جامع البيان (٩/ ٣١٩)

فيفصل بينكم بالقضاء الفصل بإدخال أهل الإيمان جنته، وأهل النفاق مع أوليائهم من الكفار ناره[1].

- **مخادعة الله، والكسل في العبادات:**

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٤٢].

إن المنافقين يخادعون الله بإحرازهم بنفاقهم دماءهم وأموالهم، والله خادعهم بما حكم فيهم من منع دمائهم بما أظهروا بألسنتهم من الإيمان، مع علمه بباطن ضمائرهم واعتقادهم الكفر، استدراجا منه لهم في الدنيا، حتى يلقوه في الآخرة، فيوردهم بما استبطنوا من الكفر نار جهنم...

وأما قوله: ﴿وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ﴾ فإنه يعني أن المنافقين لا يعملون شيئا من الأعمال التي فرضها الله على المؤمنين على وجه التقرّب بها إلى الله؛ لأنهم غير موقنين بمعاد ولا ثواب ولا عقاب، وإنما يعملون ما عملوا من الأعمال الظاهرة بقاءً على أنفسهم، وحذارا من المؤمنين عليهم أن يُقتلوا أو يُسلَبوا أموالهم، فهم إذا قاموا إلى الصلاة التي هي من الفرائض الظاهرة قاموا كسالى إليها، رياءً للمؤمنين؛ ليحسبوهم منهم، وليسوا منهم؛ لأنهم غير معتقدي فرضها ووجوبها عليهم، فهم في قيامهم إليها كسالى.

وأما قوله: ﴿وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ فلعل قائلا أن يقول: وهل من ذكر الله شيء قليل؟! قيل له: إن معنى ذلك بخلاف ما إليه ذهبت، إنما معناه: ولا يذكرون الله إلا ذكرا رياء؛ ليدفعوا به عن أنفسهم القتل والسباء وسلب الأموال، لا ذكر موقن مصدّق بتوحيد الله، مخلص له الربوبية؛ فلذلك سماه الله قليلا؛ لأنه غير مقصود به الله، ولا مبتغى به التقرب إلى الله، ولا مرادا به ثواب الله وما عنده، فهو، وإن كثر، من وجه نصب عامله وذاكره، في معنى السراب، الذي له ظاهر بغير حقيقة ماء[2].

---

(١) جامع البيان (٩/ ٣٢٤).

(٢) جامع البيان (٩/ ٣٣١).

- **التذبذب والتردد:**

قال الله تعالى: ﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ [النساء: ١٤٣].

فهي تدل: أن المنافقين متحيرون في دينهم، لا يرجعون إلى اعتقاد شيء على صحة، فهم لا مع المؤمنين على بصيرة، ولا مع المشركين على جهالة، ولكنهم حيارى بين ذلك[١].

وعن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «مَثَلُ المُنافِقِ، كَمَثَلِ الشَّاةِ العائِرَةِ بَيْنَ الغَنَمَيْنِ، تَعِيرُ إلى هَذِهِ مَرَّةً، وَإلى هَذِهِ مَرَّةً»[٢].

قال النووي رحمه الله: «العائِرَةُ: المُتَرَدِّدَةُ الحائرةُ: لا تدري لأيِّهما تَتبَعُ. ومعنى تَعِيرُ: أي تَتَرَدَّدُ وتَذهَبُ»[٣].

- **مخادعة المؤمنين:**

قال الله تعالى: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ٩].

خداع المنافق ربّه والمؤمنين: إظهاره بلسانه من القول والتصديق خلاف الذي في قلبه من الشك والتكذيب؛ ليدرأ عن نفسه -بما أظهر بلسانه- حكم الله عز وجل اللازم من كان بمثل حاله من التكذيب، لو لم يظهر بلسانه ما أظهر من التصديق والإقرار من القتل والسباء، فذلك خِداعُه ربّه وأهلَ الإيمان بالله[٤].

- **التحاكم إلى الطاغوت:**

قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓاْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ۝٦٠ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾ [النساء: ٦٠-٦١].

---

(١) جامع البيان (٩/ ٣٣٢).
(٢) رواه مسلم (٢٧٨٤).
(٣) شرح النووي على مسلم (١٧/ ١٢٨).
(٤) جامع البيان (١/ ٢٧٢).

قال ابن القيم رحمه الله: «إن حاكمتهم إلى صريح الوحي وجدتهم عنه نافرين، وإن دعوتهم إلى حكم كتاب الله وسنة رسوله ﷺ رأيتهم عنه معرضين، فلو شهدت حقيقة لرأيت بينها وبين الهدى أمداً بعيداً، ورأيته معرضة عن الوحي إعراضاً شديداً»[1].

• **الإفساد بين المؤمنين:**

قال الله تعالى: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ [التوبة ٤٧].

﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾ أي: لأنهم جبناء مخذولون. ﴿وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ﴾ أي: ولأسرعوا السير والمشي بينكم بالنميمة والبغضاء والفتنة. ﴿وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ﴾ أي: مطيعون لهم، ومستحسنون حديثهم وكلامهم، يستنصحونهم وإن كانوا لا يعلمون حالهم، فيؤدي هذا إلى وقوع شر بين المؤمنين وفساد كبير[2].

• **الحلف الكاذب، والخوف، والجبن، والهلع**

قال الله تعالى: ﴿وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ۝ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾ [التوبة ٥٦-٥٧].

يخبر الله تعالى نبيه ﷺ عن جزعهم وفزعهم وفرقهم وهلعهم، أنهم ﴿وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ﴾ يميناً مؤكدة، ﴿وَمَا هُم مِّنكُمْ﴾ أي في نفس الأمر، ﴿وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ﴾ أي: فهو الذي حملهم على الحلف ﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً﴾ أي حصناً يتحصنون به، وحرزاً يتحرزون به، ﴿أَوْ مَغَارَاتٍ﴾ وهي التي في الجبال، ﴿أَوْ مُدَّخَلًا﴾ وهو السرب في الأرض والنفق ﴿مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾ أي يسرعون في ذهابهم عنكم؛ لأنهم إنما يخالطونكم كرهاً لا محبة، وودوا أنهم لا يخالطونكم، ولكن للضرورة أحكام، ولهذا لا يزالون في هم وحزن وغم؛ لأن الإسلام وأهله لا يزال في عز

---

(١) مدارج السالكين (١/ ٣٥٣).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٤/ ١٦٠).

ونصر ورفعة، فلهذا كلما سُرَّ المسلمون ساءهم ذلك، فهم يودّون أن لا يخالطوا المؤمنين؛ ولهذا قال: ﴿ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴾[1].

وقال الله تعالى: ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾.

قال ابن القيم رحمه الله: «أحسن الناس أجساماً، وأخلبهم لساناً، وألطفهم بياناً، وأخبثهم قلوباً، وأضعفهم جناناً، فهم كالخُشُب المسنّدة التي لا ثمر لها، قد قلعت من مغارسها، فتساندت إلى حائط يقيمها؛ لئلا يطأها السالكون»[2].

- **يحبون أن يُحمَدوا بما لم يفعلوا:**

قال الله تعالى: ﴿ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوا وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ ﴾ [آل عمران: ١٨٨].

عَن أَبِي سَعِيدٍ الخُدرِيِّ رضي الله عنه: «أَنَّ رِجالاً مِنَ المُنافِقِينَ عَلَى عَهدِ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم، كانَ إِذا خَرَجَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم إِلَى الغَزوِ تَخَلَّفُوا عَنهُ، وَفَرِحُوا بِمَقعَدِهِم خِلافَ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم، فَإِذا قَدِمَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم اعتَذَرُوا إِلَيهِ، وَحَلَفُوا وَأَحَبُّوا أَن يُحمَدُوا بِما لَم يَفعَلُوا»، فنزلت: ﴿ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوا وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا ﴾[3].

- **يعيبون العمل الصالح:**

قال الله تعالى: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴾ [التوبة: ٥٨].

يقول تعالى: ﴿ وَمِنْهُم ﴾ أي: ومن المنافقين ﴿ مَّن يَلْمِزُكَ ﴾ أي: يعيب عليك ﴿ فِي ﴾ قسم ﴿ الصَّدَقَاتِ ﴾ إذا فرقتها، ويتهمك في ذلك، وهم المتّهمون المأبونون، وهم مع هذا لا

(١) تفسير القرآن العظيم (٤/ ١٦٣).

(٢) مدارج السالكين (١/ ٣٥٤).

(٣) رواه البخاري (٤٥٦٧)، ومسلم (٢٧٧٧).

يبكرون للدين، وإنما يبكرون لحظ أنفسهم؛ ولهذا إن أعطوا من الزكاة ﴿رَضُوا وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾ أي: يغضبون لأنفسهم[1].

وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [التوبة: ٧٩].

عَنْ أَبِي مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: «لَمَّا أُمِرْنَا بِالصَّدَقَةِ كُنَّا نَتَحَامَلُ، فَجَاءَ أَبُو عَقِيلٍ بِنِصْفِ صَاعٍ، وَجَاءَ إِنْسَانٌ بِأَكْثَرَ مِنْهُ، فَقَالَ الْمُنَافِقُونَ: إِنَّ اللهَ لَغَنِيٌّ عَنْ صَدَقَةِ هَذَا، وَمَا فَعَلَ هَذَا الآخَرُ إِلَّا رِئَاءً، فَنَزَلَتْ: ﴿ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ﴾»[2].

لا يسلم أحد من عيبهم ولمزهم في جميع الأحوال، حتى ولا المتصدقون يسلمون منهم، إن جاء أحد منهم بمال جزيل قالوا: هذا مُراءٍ، وإن جاء بشيء يسير قالوا: إن الله لغني عن صدقته[3].

- **الرضا بأسافل المواضع:**

قال الله تعالى: ﴿وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُوا۟ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُو۟لُوا۟ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا۟ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ﴾ [التوبة: ٨٦].

يقول تعالى منكرًا وذامًا للمتخلفين عن الجهاد الناكلين عنه مع القدرة عليه ووجود السعة والطول، واستأذنوا الرسول في القعود، وقالوا: ﴿ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ﴾، ورضوا لأنفسهم بالعار والقعود في البلد مع النساء وهن الخوالف، بعد خروج الجيش، فإذا وقع الحرب كانوا أجبن الناس، وإذا كان أمن كانوا أكثر الناس كلامًا، كما قال تعالى عنهم في الآية الأخرى: ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾ [الأحزاب: ١٩] أي: علت ألسنتهم بالكلام الحادّ القوي في الأمن، وفي الحرب أجبن شيء[4].

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٢/ ١٨٢).

(٢) رواه البخاري (٤٦٦٨)، ومسلم (١٠١٨).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٤/ ١٨٤).

(٤) تفسير القرآن العظيم (٤/ ١٩٦).

• **الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف:**

قال الله تعالى: ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۗ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [التوبة: ٦٧].

يقول تعالى منكراً على المنافقين الذين هم على خلاف صفات المؤمنين، ولما كان المؤمنون يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر كان هؤلاء ﴿يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾ أي: عن الإنفاق في سبيل الله ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أي: نسوا ذكر الله ﴿فَنَسِيَهُمْ﴾ أي: عاملهم معاملة من نسيهم، كقوله تعالى: ﴿وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ أي: الخارجون عن طريق الحق الداخلون في طريق الضلالة[١].

• **كره الجهاد، والتخلف عنه:**

قال الله تعالى: ﴿فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓا۟ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُوا۟ لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُوا۟ يَفْقَهُونَ﴾ [التوبة: ٨١].

يقول تعالى ذاماً للمنافقين المتخلفين عن صحبة رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، وفرحوا بقعودهم بعد خروجه، ﴿وَكَرِهُوٓا۟ أَن يُجَٰهِدُوا۟﴾ معه ﴿بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُوا۟﴾ أي: بعضهم لبعض ﴿لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّ﴾، وذلك أن الخروج في غزوة تبوك كان في شدة الحر عند طيب الظلال والثمار؛ فلهذا قالوا: لا تنفروا في الحرّ، قال الله تعالى لرسوله ﷺ ﴿قُلْ﴾ لهم ﴿نَارُ جَهَنَّمَ﴾ التي تصيرون إليها بمخالفتكم ﴿أَشَدُّ حَرًّا﴾ مما فررتم منه من الحر، بل أشدّ حرّاً من النار[٢].

• **التخذيل والإرجاف:**

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا﴾

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٤/ ١٧٣).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٤/ ١٨٩).

﴿وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾ [الأحزاب: ١٢-١٣].

- **البطء عن المؤمنين:**

قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَىَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٧٢].

هذا نعت من الله تعالى ذكره للمنافقين، نعتهم لنبيه ﷺ وأصحابه، ووصفهم بصفتهم، فقال: ﴿وَإِنَّ مِنكُمْ﴾ أيها المؤمنون، يعني: من عدادكم وقومكم، ومن يتشبه بكم، ويُظهر أنه من أهل دعوتكم وملتكم، وهو منافق يبطّئ من أطاعه منكم عن جهاد عدوكم، وقتالهم إذا أنتم نفرتم إليهم، ﴿فَإِنْ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ﴾ يقول: فإن أصابتكم هزيمة أو نالكم قتل أو جراح من عدوكم ﴿قَالَ قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَىَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا﴾ فيصيبني جراح أو ألم أو قتل، وسرّه تخلّفه عنكم شماتةً بكم؛ لأنه من أهل الشكّ في وعد الله الذي وعد المؤمنين على ما نالهم في سبيله من الأجر والثواب وفي وعيده، فهو غير راجٍ ثواباً، ولا خائف عقاباً[1].

- **الاستئذان عن الجهاد:**

قال الله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّى وَلَا تَفْتِنِّىٓ ۚ أَلَا فِى ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [التوبة: ٤٩].

يقول تعالى: ومن المنافقين من يقول لك يا محمد: ﴿ٱئْذَن لِّى﴾ في القعود ﴿وَلَا تَفْتِنِّىٓ﴾ بالخروج معك بسبب الجواري من نساء الروم، قال الله تعالى: ﴿أَلَا فِى ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟﴾ أي: قد سقطوا في الفتنة بقولهم هذا[2].

- **اتخاذ الأعذار عند التخلف:**

قال الله تعالى: ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ ۚ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ

---

(١) جامع البيان (٨/ ٥٣٨).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٤/ ١٦٦).

قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ ۚ وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [التوبة: ٩٤].

أخبر تعالى عن المنافقين بأنهم إذا رجعوا إلى المدينة أنهم يعتذرون إليهم ﴿قُل لَّا تَعْتَذِرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ﴾ أي: لن نصدقكم، ﴿قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ﴾ أي: قد أعلمنا الله أحوالكم، ﴿وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ﴾ أي: سيظهر أعمالكم للناس في الدنيا، ﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: فيخبركم بأعمالكم، خيرها وشرها، ويجزيكم عليها[١].

- **الاستخفاء من الناس:**

قال الله تعالى: ﴿ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴾ [النساء: ١٠٨].

هذا إنكار على المنافقين في كونهم يستخفون بقبائحهم من الناس؛ لئلا ينكروا عليهم، ويجاهرون الله بها؛ لأنه مطّلع على سرائرهم، وعالم بما في ضمائرهم، ولهذا قال: ﴿وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا﴾ تهديد لهم ووعيد[٢].

- **الفرح بما يصيب المؤمنين من ضراء:**

قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا۟ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ هَٰٓأَنتُمْ أُو۟لَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ عَضُّوا۟ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۚ قُلْ مُوتُوا۟ بِغَيْظِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا۟ بِهَا ۖ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ [آل عمران: ١١٨-١٢٠].

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٢٠١).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٢/ ٤٠٧).

يقـول تبـارك وتعالى ناهيـا عباده المؤمنين عن اتخـاذ المنافقين بطانـة، أي: يطلعونهم على سرائرهـم، وما يضمرونه لأعدائهم، والمنافقون بجهدهم وطاقتهم لا يألون المؤمنين خبالا أي: يسـعون في مخالفتهـم، وما يضرهم بكل ممكن، وبما يسـتطيعون من المكـر والخديعة، ويودّون ما يعنت المؤمنين ويحرجهم ويشقّ عليهم[1].

• **إذا اؤتمن خان، وإذا حدّث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر:**

قـال الله تعـالى: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَـٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [التوبة: ٧٥-٧٦].

يقول تعالى: ومن المنافقين من أعطى الله عهده وميثاقه: لئن أغناه من فضله ليصدقن من مالـه، وليكونـنّ من الصالحين، فما وفّى بما قال، ولا صدق فيـما ادعى، فأعقبهم هذا الصنيع نفاقا سكن في قلوبهم إلى يوم يلقوا الله عز وجل يوم القيامة، عياذا بالله من ذلك[2].

وقال الله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٨].

قال ابن القيم رحمه الله: «رَأْسُ مالِهِمُ الخَديعَةُ والمَكرُ، وَبِضاعَتُهُمُ الكَذِبُ والخَتْرُ، وَعِندَهُمُ العقـلُ المَعيشِيُّ أَنَّ الفَريقَـينِ عنهُم راضُونَ، وَهُم بينَهُم آمِنُونَ، ﴿يُخَـٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾»[3].

وعـن عبـد الله بن عمرو رضي الله عنهما، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: **«أربَـعٌ مَن كُنَّ فيه كانَ مُنافِقاً خالِصـاً، وَمَـن كانَت فيهِ خَصلَـةٌ مِنهُنَّ كانَت فيهِ خَصلَةٌ مِنَ النِّفاقِ حَتَّـى يَدَعَها: إِذا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذا عاهَدَ غَدَرَ، وَإِذا وَعَدَ أَخلَفَ، وَإِذا خاصَمَ فَجَرَ»**[4].

قال النووي رحمه الله: «هذا الحديث مما عدّه جماعة من العلماء مشكلا من حيث إن هذه الخصال توجد في المسـلم المصدّق الذي ليس فيه شـك، فإن إخوة يوسـف عليه السلام جمعوا هـذه الخصـال، وكذا وُجد لبعض السـلف والعلماء بعـض هذا أو كلّـه، وهذا الحديث

(١) تفسير القرآن العظيم (٢/ ١٠٦).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٨٣).

(٣) مدارج السالكين (١/ ٣٤٩).

(٤) رواه البخاري (٣٤)، ومسلم (٥٨).

ليس فيه بحمد الله تعالى إشكال، ولكن اختلف العلماء في معناه، فالذي قاله المحققون والأكثرون، وهو الصحيح المختار: إن معناه أن هذه الخصال خصال نفاق، وصاحبها شبيه بالمنافقين في هذه الخصال ومتخلّق بأخلاقهم، فإن النفاق هو إظهار ما يبطن خلافه، وهذا المعنى موجود في صاحب هذه الخصال، ويكون نفاقه في حقّ من حدثه ووعده وائتمنه وخاصمه وعاهده من الناس، لا أنه منافق في الإسلام فيظهره وهو يبطن الكفر، ولم يرد النبي ﷺ بهذا أنه منافق نفاق الكفار المخلّدين في الدرك الأسفل من النار.

وقوله ﷺ: «كان منافقا خالصا» معناه: شديد الشبه بالمنافقين بسبب هذه الخصال. قال بعض العلماء: وهذا فيمن كانت هذه الخصال غالبة عليه، فأما من يندر ذلك منه فليس داخلا فيه، وهذا هو المختار في معنى الحديث»[1].

• **تأخير الصلاة عن وقتها:**

عن العلاء بن عبد الرحمن رحمه الله أنه دخل على أنس بن مالك رضي الله عنه في داره بالبصرة حين انصرف من الظهر، وداره بجنب المسجد، قال: فلما دخلنا عليه قال: أصليتم العصر؟ فقلنا له: إنما انصرفنا الساعة من الظهر، قال: فصلوا العصر، فقمنا فصلينا، فلمّا انصرفنا قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«تِلْكَ صَلَاةُ الْمُنَافِقِ، يَجْلِسُ يَرْقُبُ الشَّمْسَ حَتَّى إِذَا كَانَتْ بَيْنَ قَرْنَيِ الشَّيطانِ قامَ فَنَقَرَ أَرْبَعاً، لاَ يَذكُرُ الله فيها إلا قَلِيلاً»**[2].

قال ابن القيم رحمه الله: «يؤخّرون الصلاة عن وقتها الأوّل إلى شَرَقِ المَوْتَى[3]، فالصبح عند طلوع الشمس، والعصر عند الغروب، وينقرونها نقر الغراب؛ إذ هي صلاة الأبدان لا صلاة القلوب، ويلتفتون فيها التفات الثعلب؛ إذ يتيقّن أنّه مطرود مطلوب»[4].

---

(١) شرح النووي على مسلم (٢/ ٤٦-٤٧).

(٢) رواه مسلم (٦٢٢).

(٣) أراد أنّهم يصلّونها ولم يبق من النّهار إلا قدر ما يبقى من نفس المُحتَضِر إذا شَرِقَ بريقه. وانظر: القاموس المحيط (ص٨٩٧).

(٤) مدارج السالكين (١/ ٣٥٤).

- **التخلف عن صلاة الجماعة:**

عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «مَن سَرَّهُ أن يَلقى الله غداً مُسلِماً، فليُحافِظ عَلَى هَؤُلاءِ الصَّلَوَاتِ حَيثُ يُنادَى بِهِنَّ، فَإنَّ الله شَرَعَ لِنَبِيِّكُم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سُنَنَ الهُدَى، وَإنَّهُنَّ مِن سُنَنَ الهُدَى، وَلَو أَنَّكُم صَلَّيتُم فِي بُيُوتِكُم كَمَا يُصَلِّي هَذا المُتَخَلِّفُ فِي بَيتِهِ، لَتَرَكتُم سُنَّةَ نَبِيِّكُم، وَلَو تَرَكتُم سُنَّةَ نَبِيِّكُم لَضَلَلتُم، وَما مِن رَجُلٍ يَتَطَهَّرُ فَيُحسِنُ الطُّهُورَ، ثُمَّ يَعمِدُ إلى مَسجِدٍ مِن هَذِهِ المَساجِدِ، إلَّا كَتَبَ الله لَهُ بِكُلِّ خَطوَةٍ يَخطُوها حَسَنَةً، وَيَرفَعُهُ بِها دَرَجَةً، وَيَحُطُّ عَنهُ بِها سَيِّئَةً، وَلَقَد رَأَيتُنا وما يَتَخَلَّفُ عَنها إلَّا مُنافِقٌ مَعلُومُ النِّفاقِ، وَلَقَد كانَ الرَّجُلُ يُؤتَى بِهِ يُهادَى بَينَ الرَّجُلَينِ حَتَّى يُقامَ فِي الصَّفِّ»[1].

- **البذاء والبيان**

عن أبي أمامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**الحَياءُ والعِيُّ شُعبَتانِ مِنَ الإيمانِ، والبَذاءُ والبَيانُ شُعبَتانِ مِنَ النِّفاقِ**»[2].

قال الترمذي رَحِمَهُ اللَّهُ: «والعِيّ قلّة الكلام، والبذاء هو الفحش في الكلام، والبيان هو كثرة الكلام، مثل هؤلاء الخطباء الذين يخطبون فيوسّعون في الكلام، ويتفصّحون فيه، من مدح الناس فيما لا يُرضي الله».

وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «وجملة أمرهم أنهم في المسلمين كالزَّغل في النقود، يَروج على أكثر الناس لعدم بصيرتهم بالنقد، ويعرف حاله الناقدُ البصيرُ من الناس، وقليل ما هم، وليس على الأديان أضرّ من هذا الضرب من الناس، وإنما تفسد الأديان من قِبَلهم، ولهذا جلا الله أمرهم في القرآن، وأوضح أوصافهم، وبيّن أحوالهم، وكرّر ذكرهم، لشدة المؤنة على الأمة بهم، وعظم البلية عليهم بوجودهم بين أظهرهم، وفرط حاجتهم إلى معرفتهم، والتحرز من مشابهتهم والإصغاء إليهم، فكم قطعوا على السالكين إلى الله طرق الهدى، وسلكوا بهم سبيل الردى، وعدُوهم ومنّوهم، ولكن وعدوهم الغرور، ومنوهم الويل والثبور»[3].

(١) رواه مسلم (٦٥٤).

(٢) رواه الترمذي (٢٠٢٧)، وصححه الألباني في صحيح الترمذي.

(٣) طريق الهجرتين (ص٦٠٣).

• سماع الغناء:

قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «الغناء ينبت النفاق في القلب»(١).

قال ابن القيم رحمه الله: «فإن أساس النفاق: أن يخالف الظاهر الباطن، وصاحب الغناء بين أمرين: إما أن يتهتك فيكون فاجراً، أو يظهر النسك فيكون منافقاً، فإنه يظهر الرغبة في الله والدار الآخرة وقلبه يغلي بالشهوات، ومحبة ما يكرهه الله ورسوله من أصوات المعازف، وآلات اللهو، وما يدعو إليه الغناء ويهيجه، فقلبه بذلك معمور، وهو من محبة ما يحبه الله ورسوله وكراهة ما يكرهه قفر، وهذا محض النفاق.

وأيضاً: فإن الإيمان قول وعمل: قول الحق، وعمل بالطاعة، وهذا ينبت على الذكر، وتلاوة القرآن. والنفاق: قول الباطل، وعمل البغي، وهذا ينبت على الغناء.

وأيضاً: فمن علامات النفاق: قلة ذكر الله، والكسل عند القيام إلى الصلاة، ونقر الصلاة، وقلَّ أن تجد مفتوناً بالغناء إلا وهذا وصفه.

وأيضاً: فإن النفاق مؤسَّس على الكذب، والغناء من أكذب الشعر، فإنه يحسن القبيح، ويزينه، ويأمر به، ويقبِّح الحسن، ويزهد فيه، وذلك عين النفاق

وأيضاً: فإنّ النفاق غش ومكر وخداع، والغناء مؤسس على ذلك»(٢).

***

---

(١) شعب الإيمان (٥٠٩٨).

(٢) إغاثة اللهفان (١/ ٢٥٠).

الوقاية من النفاق

حتى يقي المسلم نفسه من النفاق يتحتم عليه التحلي بالصفات الحسنة، والأعمال الصالحة، والتي منها:

- **التبكير للصلاة، وإدراك تكبيرة الإحرام:**

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **«مَنْ صَلَّى لله أَرْبَعِينَ يَوماً في جَماعَةٍ يُدرِكُ التَّكبِيرَةَ الأُولَى كُتِبَ لَهُ بَراءتانِ. بَراءَةٌ مِنَ النَّارِ، وَبَراءَةٌ مِنَ النِّفَاقِ»**[1].

(بَراءَةٌ مِنَ النَّارِ) أي خلاصٌ ونجاة منها.

يقال برأ من الدين والعيب: خلص (وَبَراءَةٌ مِنَ النِّفَاقِ) قال الطِّيبيُّ: «أي: يُؤَمِّنُه في الدُّنيا أن يَعمَلَ عَمَلَ المُنافِقِ، ويُوَفِّقُهُ لِعَمَلِ أهلِ الإخلاصِ، وفي الآخرة: يؤمِّنه مما يُعذَّب به المُنافِقُ، وَيَشهَدُ لَهُ بِأَنَّهُ غيرُ مُنافِقٍ، يَعنِي بِأَنَّ المُنافِقِينَ إذا قامُوا إلى الصَّلاةِ قامُوا كُسالَى، وَحالُ هَذا بِخِلافِهِم»[2].

- **حسن الخلق، والتفقه في الدين:**

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **«خَصلَتانِ لا تَجتَمِعانِ في مُنافِقٍ حُسنُ سَمتٍ، وَلا فِقهٌ في الدِّينِ»**[3].

(١) رواه الترمذي (٢٤١)، وحسنه الألباني، وهو حديث مختلف فيه.
(٢) تحفة الأحوذي (٢/ ٤٠).
(٣) رواه الترمذي (٢٦٨٤)، وصححه الألباني.

(حسن سمت) تحري طرق الخير، والتّزيّي بزيّ الصالحين، مع التنزه عن المعائب الظاهرة والباطنة.

(ولا فقه في الدين) عطف بـ(لا)؛ لأن (حسن سمت) في سياق النفي، فـ(لا) لتأكيد النفي المُساق[1].

• **الصدقة:**

عن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**الطُّهُورُ شَطرُ الإيمانِ، والحَمدُ للهِ تَملأُ الميزانَ، وَسُبحانَ اللهِ والحَمدُ للهِ تَملآنِ -أو تَملأُ- ما بَينَ السَّماواتِ والأرضِ، والصَّلاةُ نورٌ، والصَّدَقةُ بُرهانٌ، والصَّبرُ ضِياءٌ، والقُرآنُ حُجَّةٌ لَكَ أو عَلَيكَ. كُلُّ النّاسِ يَغدُو: فَبايعٌ نَفسَهُ فَمُعتِقُها، أو مُوبِقُها**»[2].

الصدقة حجة على إيمان فاعلها؛ فإن المنافق يمتنع منها لكونه لا يعتقدها، فمن تصدق استُدِل بصدقته على صدق إيمانه[3].

• **قيام الليل:**

قال قتادة رحمه الله: «يقال: قلّما سهر الليل منافق»[4].

وذلك لأن المنافق إنما ينشط للعمل الصالح إذا رآه الناس، فإن كان خاليا لم يكن عنده الدافع للعمل الصالح، فإذا قام العبد الليل فهو دليل على عدم نفاقه، وعلى صدقه في إيمانه.

• **الجهاد في سبيل الله:**

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**مَن ماتَ وَلَم يَغزُ، وَلَم يُحَدِّث بِهِ نَفسَهُ، ماتَ عَلَى شُعبَةٍ مِن نِفاقٍ**»[5].

(١) تحفة الأحوذي (٧/ ٣٧٨).

(٢) رواه مسلم (٢٢٣).

(٣) شرح النووي على مسلم (٣/ ١٠١).

(٤) حلية الأولياء (٢/ ٣٣٨).

(٥) رواه مسلم (١٩١٠).

قال النووي رحمه الله: «المراد: أن من فعل هذا فقد أشبه المنافقين المتخلفين عن الجهاد في هذا الوصف؛ فإن ترك الجهاد أحد شعب النفاق، وفي هذا الحديث أن من نوى فعل عبادة فمات قبل فعلها لا يتوجه عليه من الذم ما يتوجه على من مات ولم ينوها»[1].

- **كثرة ذكر الله:**

قال ابن القيم رحمه الله: «إن كثرة ذكر الله عز وجل أمان من النفاق؛ فإن المنافقين قليلو الذكر لله عز وجل، قال الله عز وجل في المنافقين: ﴿وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ وقال كعب: «من أكثر ذكر الله عز وجل برئ من النفاق» ولهذا -والله أعلم- ختم الله تعالى سورة المنافقين بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾.

فإن في ذلك تحذيراً من فتنة المنافقين الذين غفلوا عن ذكر الله عز وجل فوقعوا في النفاق.

وسئل بعض الصحابة رضي الله عنهم عن الخوارج: منافقون هم؟ قال: «لا، المنافقون لا يذكرون الله إلا قليلاً».

فهذا من علامة النفاق: قلة ذكر الله عز وجل، وكثرة ذكره أمان من النفاق، والله عز وجل أكرم من أن يبتلي قلباً ذاكراً بالنفاق، وإنما ذلك لقلوب غفلت عن ذكر الله عز وجل»[2].

- **الدعاء:**

عن جُبَيْرِ بن نُفَيْرٍ: أَنَّهُ سَمِعَ أَبَا الدَّرداء وَهُوَ فِي آخِرِ صَلَاتِهِ، وَقَدْ فَرَغَ مِنَ التَّشَهُّدِ يَتَعَوَّذُ بِاللهِ مِنَ النِّفَاقِ، فَأَكْثَرَ التَّعَوُّذَ مِنْهُ.

فَقَالَ جُبَيْرٌ: وَمَا لَكَ يا أَبا الدَّرداءِ أَنْتَ وَالنِّفَاق؟ فَقَالَ: «دَعنا عَنكَ، دَعنا عَنك، فوالله إِنَّ الرَّجُلَ لَيَقْلِبُ عَنْ دِينِهِ فِي السَّاعَةِ الوَاحِدَةِ، فَيَخْلَعُ مِنْهُ»[3].

(١) شرح النووي على مسلم (١٣/ ٥٦).

(٢) الوابل الصيب (ص١١٠).

(٣) سير أعلام النبلاء (٦/ ٣٨٢) قال الذهبي: إسناده صحيح.

• **حبّ الأنصار** رضي الله عنهم:

عن أنس رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**آيَةُ الإِيمانِ حُبُّ الأَنصارِ، وَآيَةُ النِّفاقِ بُغضُ الأَنصارِ**»[١].

• **حبّ علي بن أبي طالب** رضي الله عنه

عن زر قال: قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «**والَّذِي فَلَقَ الحَبَّةَ، وبَرَأَ النَّسَمَةَ، إِنَّهُ لَعَهدُ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ** صلى الله عليه وسلم **إِلَيَّ أَنَّهُ لاَ يُحِبُّنِي إِلاَّ مُؤمِنٌ، وَلاَ يُبغِضُنِي إِلاَّ مُنافِقٌ**»[٢]

قال النووي رحمه الله: «وَمَعنَى هَذِهِ الأَحادِيثِ: أَنَّ مَن عرفَ مَرتَبَةَ الأَنصارِ، وما كانَ مِنهُم في نُصرَةِ دِينِ الإِسلامِ، والسَّعيِ في إظهارِهِ، وإِيواءِ المُسلِمِينَ، وَقِيامِهِم في مُهِمّاتِ دِينِ الإِسلامِ حَقَّ القِيامِ، وَحُبِّهِمُ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم، وحُبِّهِ إِيّاهُم، وبَذلِهِم أَموالَهُم وَأَنفُسَهُم بَينَ يَدَيهِ، وَقِتالِهِم وَمُعاداتِهِم سائِرَ النّاسِ؛ إِيثاراً لِلإِسلامِ، وَعَرَفَ مِن عَلِيِّ بنِ أَبِي طالِبٍ رضي الله عنه قُربَهُ مِن رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم، وَحُبَّ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم لَهُ، وَما كانَ مِنهُ في نُصرَةِ الإِسلامِ وَسَوابِقِهِ فِيهِ، ثُمَّ أَحَبَّ الأَنصارَ وَعَلِيّاً لِهَذا: كانَ ذَلِكَ مِن دَلائِلِ صِحَّةِ إِيمانِهِ، وَصِدقِهِ في إِسلامِهِ؛ لِسُرُورِهِ بِظُهُورِ الإِسلامِ، والقِيامِ بِما يُرضِي اللهَ سُبحانَهُ وَتَعالَى وَرَسُولَهُ صلى الله عليه وسلم. وَمَن أَبغَضَهُم كانَ بِضِدِّ ذَلِكَ، واستُدِلَّ بِهِ عَلَى نِفاقِهِ، وَفَسادِ سَرِيرَتِهِ»[٣].

* * *

(١) رواه البخاري (١٧)، ومسلم (٧٤)

(٢) رواه مسلم (٧٨)

(٣) شرح صحيح مسلم (٢/ ٦٤)

موقف المسلم من المنافقين

يجب عدم التهاون مع المنافقين، ولا يجوز التقليل من خطرهم، والمنافقون اليوم أشد خطراً منهم على عهد النبي ﷺ.

عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال: «إِنَّ الْمُنَافِقِينَ الْيَوْمَ شَرٌّ مِنْهُمْ عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ، كَانُوا يَوْمَئِذٍ يُسِرُّونَ، وَالْيَوْمَ يَجْهَرُونَ»[١].

والموقف منهم كالتالي:

عدم طاعتهم

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الأحزاب: ١].

قال الطبري رحمه الله: «يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ بطاعته، وأداء فرائضه وواجب حقوقه عليك، والانتهاء عن محارمه وانتهاك حدوده، ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ الذين يقولون لك: اطرد عنك أتباعك من ضعفاء المؤمنين بك حتى نجالسك، ﴿وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ الذين يظهرون لك الإيمان بالله والنصيحة لك، وهم لا يألونك وأصحابك ودينك خبالاً، فلا تقبل منهم رأياً، ولا تستشرهم مستنصحاً بهم، فإنهم لك أعداء، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ يقول: إن الله ذو علم بما تضمره نفوسهم، وما الذي يقصدون في إظهارهم لك النصيحة، مع الذي ينطوون لك عليه، حكيم في تدبير أمرك وأمر أصحابك ودينك، وغير ذلك من تدبير جميع خلقه»[٢].

---

(١) رواه البخاري (٧١١٣).

(٢) جامع البيان (٢٠/ ٢٠٢).

الإعراض عنهم، وزجرهم، ووعظهم:

قال الله تعالى: ﴿ بَشِّرِ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ [النساء: ١٣٨].

وقال الله تعالى: ﴿ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا ﴾ [النساء: ٦٣].

يعني جل ثناؤه بقوله ﴿ أُو۟لَـٰٓئِكَ ﴾ هؤلاء المنافقون الذين وصفت لك -يا محمد- صفتهم، ﴿ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ ﴾ في احتكامهم إلى الطاغوت، وتركهم الاحتكام إليك، وصدودهم عنك، من النفاق والزيغ، وإن حلفوا بالله ما أردنا إلا إحسانًا وتوفيقًا، ﴿ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ ﴾ يقول: فدعهم فلا تعاقبهم في أبدانهم وأجسامهم، ولكن عظهم بتخويفك إياهم بأس الله أن يحل بهم، وعقوبته أن تنزل بدارهم، وحذرهم من مكروه ما هم عليه من الشك في أمر الله وأمر رسوله، ﴿ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا ﴾ يقول: مرهم باتقاء الله، والتصديق به وبرسوله، ووعده ووعيده[1].

عدم المجادلة أو الدفاع عنهم:

قال الله تعالى: ﴿ وَلَا تُجَـٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴾ [النساء: ١٠٧].

يعني بذلك جل ثناؤه: ﴿ وَلَا تُجَـٰدِلْ ﴾ يا محمد فتخاصم ﴿ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ﴾ يعني: يخونون أنفسهم، يجعلونها خونة بخيانتهم ما خانوا من أموال من خانوه ماله، يقول: لا تخاصم عنهم من يطالبهم بحقوقهم، وما خانوه فيه من أموالهم، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴾ يقول: إن الله لا يحب من كان من صفته خيانة الناس في أموالهم، وركوب الإثم في ذلك وغيره، مما حرمه الله عليه[2].

النهي عن موالاتهم والركون إليهم:

قال الله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا۟

---

(١) جامع البيان (٨/ ٥١٥).

(٢) جامع البيان (٩/ ١٩٠).

مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [آل عمران: ١١٨].

نزلت في قوم من المسلمين، كانوا يخالطون حلفاءهم من اليهود وأهل النفاق منهم، ويصافونهم المودة بالأسباب التي كانت بينهم في جاهليتهم قبل الإسلام، فنهاهم الله عن ذلك، وأن يستنصحوهم في شيء من أمورهم[١].

جهادهم والغلظة عليهم:

قال الله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَـٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [التوبة: ٧٣].

أي: بالغ في جهادهم والغلظة عليهم حيث اقتضت الحال الغلظة عليهم.

وهذا الجهاد يدخل فيه الجهاد باليد، والجهاد بالحجة واللسان، فمن بارز منهم بالمحاربة: فيجاهد باليد، واللسان والسيف والبيان.

ومن كان مذعنا للإسلام بذمة أو عهد؛ فإنه يجاهد بالحجة والبرهان، ويبين له محاسن الإسلام، ومساوئ الشرك والكفر[٢].

تحقيرهم وعدم تسويدهم:

عن بريدة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَا تَقُولُوا لِلْمُنَافِقِ سَيِّدٌ، فَإِنَّهُ إِنْ يَكُ سَيِّداً فَقَدْ أَسْخَطْتُمْ رَبَّكُمْ** عَزَّ وَجَلَّ»[٣].

عدم الصلاة عليهم:

قال الله تعالى: ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَـٰسِقُونَ ﴾ [التوبة: ٨٤].

(١) جامع البيان (٧/ ١٤٠).
(٢) تفسير السعدي (ص٣٤٤).
(٣) رواه أبو داود (٤٩٧٧)، وصححه الألباني.

عن عبد الله رضي الله عنه قال: «لما توفي عبد الله بن أُبيّ جاء ابنه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله، أعطني قميصك أكفنه فيه، وصلِّ عليه، واستغفر له، فأعطاه قميصه وقال: «إذا فَرَغتَ مِنهُ فَآذِنّا»، فلما فرغ آذنه به، فجاء ليصلّي عليه، فجذبه عمر، فقال: أليس قد نهاك الله أن تصلّي على المنافقين؟! فقال: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾، فنزلت: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ﴾ فترك الصلاة عليهم»[1].

***

(١) رواه البخاري (٥٧٩٦).

الخاتمة

تبين مما سبق ذكره: خطورة النفاق، وأنه مرض عضال، وخلق ذميم، وصف النبي ﷺ المتخلق به بالغدر والخيانة والكذب والفجور؛ لأن صاحبه يُظهر خلاف ما يبطن، فهو يدّعي الصدق وهو يعلم أنه كاذب، ويدعي الأمانة وهو يعلم أنه خائن، ويدعي المحافظة على العهد وهو غادر به، ويرمي خصومه بالافتراءات وهو يعلم أنه فاجر فيها، فأخلاقه كلها مبنية على التدليس والخداع، ويُخشى على من كانت هذه حاله أن يُبتلى بالنفاق الأكبر، ذلك أن النفاق العملي -وإن كان من جملة الذنوب التي لا تُخرج العبد من الملة- إلا أنه إذا استحكم بالعبد وحوّل سلوكه إلى حالة من الخداع والتلون المستمر، فربما تلبّس به إلى معاملة ربه بما يعامل به خلقه، فينزع من قلبه الإيمان ويبدله نفاقاً، عقوبة منه وزجراً.

نسأل الله أن يصلح قلوبنا، وأن يجنبنا الفتن ما ظهر منها وما بطن، وصلى الله وسلم على نبينا محمد

* * *

اختبر فهمك

فيما يلي مستويان من الأسئلة حول الموضوع: أسئلة حلولها مباشرة، وهي أسئلة المستوى الأول.

وأسئلة تحتاج إلى بحث وتأمل، وهي أسئلة المستوى الثاني.

أسئلة المستوى الأول (المباشرة):

١. عرّف النفاق في اللغة والشرع.

٢. ما هي أنواع النفاق؟

٣. ما الفرق بين النفاق الاعتقادي، والنفاق العملي؟

٤. للمنافقين صفات وسمات خاصة، فما هي أبرزها؟

٥. كيف يقي المسلم نفسه من النفاق؟

٦. ما هو الموقف الشرعي من المنافقين؟

أسئلة المستوى الثاني (الاستنباطية):

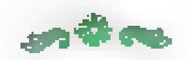
١. ما الفرق بين النفاق الأصلي والنفاق الطارئ؟

٢. لماذا ظهر النفاق في المدينة، ولم يظهر في مكة؟

٣. قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «الغناء ينبت النفاق في القلب»، وضح ذلك.

٤. ذكر النووي أن العلماء استشكلوا حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقاً خَالِصاً، وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنَ النِّفَاقِ حَتَّى يَدَعَهَا: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ»، فما المعنى الصحيح للحديث؟

٥. اذكر بعضاً من أسماء السور التي تحدثت عن النفاق والمنافقين؟



مفسدات القلوب



الغفلة



مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.

أما بعد:

فإن الغفلة داء عظيم، إذا سيطر على أحد؛ باء بخسارة الدارين، يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [الحشر: ١٩].

فما الغفلة ؟ وما الموقف الشرعي منها ؟ وما أنواعها وأقسامها؟ وما أسبابها؟ وما علاجها؟

ذلك ما ستراه مسطوراً في ثنايا هذا الفصل، وأشكر كل من ساهم في إعداد هذه المادة وإخراجها بالصورة المرضية.

نسأل الله أن يوقظنا من غفلتنا، وأن يغفر ذنوبنا.

* * *

تعريف الغفلة

الغفلة لغة:

مصدر غفل يغفل غفلة وغفولاً

يقول ابن فارس رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الغين والفاء واللام أصل صحيح، يدل على ترك الشيء سهواً، وربما كان عن عمد»[١].

وقال الفيومي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الغفلة: غيبة الشيء عن بال الإنسان وعدم تذكره له، وقد استعمل فيمن تركه إهمالاً وإعراضاً، كما في قوله تعالى: ﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ١]»[٢].

الغفلة اصطلاحاً:

فقدُ الشعور بما حقّه أن يشعر به[٣].

وعرفها الراغب الأصفهاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ بأنها: «سهو يعتري الإنسان من قلة التحفظ والتيقظ»[٤]، وعرفها الجرجاني بأنها: «متابعة النفس على ما تشتهيه»[٥].

* * *

(١) معجم مقاييس اللغة (٤/ ٣١١)، مادة غفل.
(٢) المصباح المنير (٢/ ٤٤٩).
(٣) فيض القدير (١/ ٢٦٢).
(٤) المفردات في غريب القرآن (٢/ ١٥٦).
(٥) التعريفات (ص٢٠٩).

الموقف الشرعي من الغفلة

ذم الله تعالى الغفلة، وحذر من الغافلين، وحذر نبيه أن يكون معهم ومنهم، فقال: ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠٥].

وقد نهى الله عز وجل عن مصاحبة الغافلين، فقال: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨].

وذم الله أقوامًا لغفلتهم، فقال الله عز وجل: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ [الروم: ٧].

والغافلون منهم كافرون، كما قال الله عز وجل في كتابه: ﴿مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِن بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠٦) ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (١٠٧) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [النحل: ١٠٦-١٠٨].

والويل كل الويل لمن غفل حتى قُضي الأمر وخسر، قال تعالى: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [مريم: ٣٩].

وقد قرأ النبي ﷺ هذه الآية حينما ذكر لأصحابه ذبح الموت، عن أبي سعيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«يُجاءُ بالموتِ يومَ القيامةِ، كأنَّه كبشٌ أملحُ، فيوقَفُ بين الجنَّةِ والنارِ، فيُقالُ: يا أهلَ الجنَّةِ هل تعرفون هذا؟ فيشرئِبُّون وينظرون ويقولون: نعم، هذا**

المَوتُ، قالَ: وَيُقالُ: يا أَهلَ النّارِ هَل تَعرِفُونَ هَذا؟ قالَ فَيَشرَئِبُّونَ وَيَنظُرُونَ وَيَقُولُونَ: نَعَم، هَـذا المَـوتُ، قالَ فَيُؤمَرُ بِهِ فَيُذبَحُ، قالَ: ثُمَّ يُقالُ: يا أَهلَ الجَنَّةِ خُلُودٌ فَلا مَوتَ، وَيا أَهلَ النّارِ خُلُودٌ فَلا مَوتَ» قالَ: ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [مريم: ٣٩]، وَأَشارَ بِيَدِهِ إِلى الدُّنيا[1].

* * *

(١) رواه البخاري (٤٧٣٠)، ومسلم (٢٨٤٩)، واللفظ لمسلم.

أنواع الغفلة

الغفلة على نوعين:

غفلة محمودة، وغفلة مذمومة.

الغفلة المحمودة:

هي الغفلة عن المعاصي والمنكرات، وعن كل ما لا يرضاه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وهذه هي التي وصف بها سبحانه العفيفات من النساء، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ٢٣].

والمراد بالغافلات: هن اللاتي غفلن عن الفاحشة، فلا تخطر ببالهن، ولا يفطُنَّ إليها.

الغفلة المذمومة:

هي الغفلة عن الله وطاعته وذكره، وعن الدار الآخرة والحساب والجزاء، وهي الغفلة التي نريد أن نتحدث عنها.

* * *

أقسام الغفلة المذمومة

لقد صدق الله عَزَّوَجَلَّ عندما وصف أكثر الخلق بأنهم غافلون، فقال سبحانه: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ١].

وللغفلة المذمومة ثلاثة أقسام:

القسم الأول: الغفلة العارضة.

فقد تعرض الغفلة للصالحين من الناس في بعض الأوقات، وهؤلاء الصالحون غفلتهم يسيرة سريعة، سرعان ما يتنبهون لها، ويتذكرون الجزاء والحساب، فيتوبون منها، ويتراجعون عنها، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَـٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١].

القسم الثاني: الغفلة المتكررة:

وهي الغفلة التي يعيشها العصاة والفاسقون من المسلمين حال عصيانهم، قلّت معصيتهم أم كثرت. فتراهم يغفلون أحياناً، ويستيقظون أحياناً.

يكونون في حالة ينسون فيها أنفسهم، ثم يتذكرون في حالةٍ أخرى.

وهؤلاء لابُدَّ من تذكيرهم في كل حين؛ حتى يلتزموا الطريق المستقيم والصراط السوي

القسم الثالث: الغفلة التامة:

وهي الغفلة التي يعيشها الكفار، فإنهم في غفلة تامة عن الله والدار الآخرة، حتى كأنهم بهائم لا يدرون لماذا خلقوا؟ ولا لأجل أي شيء يعيشوا؟، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَـٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ [محمد: ١٢]

بل إنهم في غفلتهم كأنهم سكارى لا يعون ما حولهم، ولا يفقهون ما يُقال لهم، قال تعالى: ﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [الحجر: ٧٢].

وهؤلاء الكفار إخراجهم من غفلتهم يكون بدعوتهم إلى دين الإسلام، ومحاولة إدخالهم في هذه الملة.

* * *

أسباب الغفلة

• السعي خلف راحة الجسم:

كثيرٌ من الناس يسعى لإراحة جسمه في غالب نهاره وليله، ولم يعلم أن الراحة التي يبحث عنها هي سبب التعب والخسران، والراحة الحقيقية إنما تكون في إتعاب النفس بالفضائل الإيمانية، والأخلاق الإسلامية.

يا خادِمَ الجِسمِ كَم تَسعَى لِخِدمَتِهِ أَتَطلُبُ الرِّبحَ فيما فيهِ خُسرانُ
أَقبِل عَلَى النَّفسِ واستكمِل فَضائِلَها فَأَنتَ بِالرُّوحِ لا بِالجِسمِ إِنسانُ[1]

• الحرص على لذات الحياة الدنيا

إن الحرص على المتعة واللذة من أسباب الغفلة عن الله وعن الدار الآخرة، فبسببها تضيع الواجبات، وتُرتكب المحرمات.

نَهارُكَ يا مَغرُورُ سَهوٌ وَغَفلَةٌ وَلَيلُكَ نَومٌ والرَّدَى لَكَ لازِمُ
وتعمَلُ فيما سَوفَ تَكرَهُ غِبَّهُ كَذَلِكَ في الدُّنيا تَعِيشُ البَهائِمُ[2]

يحرص هؤلاء على لذات الحياة الدنيا بأنواعها وأشكالها، ويَعُبُّ منها ما استطاع حتى يموت قلبه، ويغفل عن ذكر الله ولقائه.

• موت الشعور بالذنب:

مات الشعور بالذنب عند الكثير من الغافلين، وذهب الإحساس بالتقصير، حتى لربما يظن بعضهم أنه على خير عظيم، ثم بعد ذلك يفاجأ عند كشف الحساب وحرده

(١) غذاء الألباب (٢/ ٢٧٠)

(٢) حلية الأولياء (٧/ ٢٢٠).

أَمَا واللهِ لَوْ عَرَفَ الأَنامُ ... لِمَا خُلِقُوا لَمَا غَفِلُوا وَنَامُوا
لَقَدْ خُلِقُوا لِمَا لَوْ أَبْصَرَتْهُ ... عُيُونُ قُلُوبِهِمُ سَاحُوا وَهَامُوا
مَمَاتٌ ثُمَّ قَبْرٌ ثُمَّ حَشْرٌ ... وَتَوْبِيخٌ وَأَهْوَالٌ عِظَامُ[1]

- **اتباع الهوى.**

إن اتباع الهوى يؤدي إلى الغفلة عن الله والدار الآخرة، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠، ٤١].

وقد جعل سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى اتباع الهوى مضاداً للحق، وعدَّه قسيماً له، كما في قوله تعالى: ﴿يَـٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَـٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾ [ص: ٢٦].

ومن هنا نعلم بأن الذين يتبعون هواهم إنما يسيرون في طريق الغفلة عن الله والدار الآخرة، فالإنسان مطالَب باجتناب هواه؛ حتى لا يكون من أهل الغفلة.

- **العمل وطلب الرزق.**

لا شك أن الرجل مأمور بالعمل والتجارة؛ لإعالة نفسه وأهله ومَن أمره الله بإعالتهم.

ولكن الخطأ كل الخطأ: أنْ يتحول هذا العمل وهذه التجارة إلى سبب من أسباب الغفلة عن الله والدار الآخرة، فيصبح العمل هو همّه الشاغل، وهدفه الأوحد.

والمؤمنون -من صفاتهم- أنهم لا يغفلون عن الله بسبب تجارة أو عمل، يقول تعالى: ﴿فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْـَٔاصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَـٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ ۙ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَـٰرُ﴾ [النور: ٣٦، ٣٧].

- **الألعاب والرياضات:**

وهي سبب كبيرٌ من أسباب الغفلة، ولذا حذر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الانغماس في بعض

(١) المدهش لابن الجوزي (ص١٢٢).

الألعاب التي كانت موجودة في عصره، وبيّن أنها سبب للغفلة، عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «مَن سَكَنَ البادِيَةَ جَفا، وَمَنِ اتَّبَعَ الصَّيدَ غَفَلَ، وَمَن أَتى السُّلطانَ افتُتِنَ»[1].

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: «هو محمول على من واظب على ذلك، حتى يشغله عن غيره من المصالح الدينية وغيرها»[2].

فمن اشتغل بهذه الرياضة، وأصبحت همه الشاغل؛ فإن قلبه سيغفل، وسينسى الصلاة، وذكر الله، والطاعة، ولزوم الجماعة، ونحو ذلك.

فإذا كان اتباع الصيد يؤدي إلى الغفلة، مع أن الصيد فيه ما فيه من الفوائد البدنية؛ التي تبني الجسم وتقويه وتعينه على جهاد الأعداء؛ فما القول في الألعاب الإلكترونية؟!

إن الألعاب الإلكترونية في عصرنا من أكبر أسباب الغفلة؛ لأنها من أكبر الملهيات، وما تمّ اختراعه من أنواع الألعاب كفيل بأن يجعل القلب يعيش في غفلة زمنا طويلا.

بسبب هذه الألعاب الإلكترونية تضيع الأوقات بالساعات، ويُهدر العمر إهداراً عظيماً.

والشركات المنتجة لها تتنافس فيما بينها لتحتل ألعابها رفوف الأسواق، فما هي صنيعة هذه الألعاب؟! وما هي الأوقات التي تستغرقها من عمر أبنائنا وشبابنا؟!

إن الألعاب الإلكترونية الجديدة لم تعد تنتهي في ساعة أو ساعتين، بل ولا في يوم أو يومين، فبعضها يستغرق أكثر من أسبوع، وبعضها يستغرق أكثر من شهر.

والوصول إلى نهاية اللعبة لا يتحقق من ممارسة اللعبة مرة أو مرتين، بل لا بد للاعب من المواظبة الدائمة والمستمرة على اللعبة حتى يصل إلى نهايتها.

وبوصول اللاعب إلى نهاية اللعبة، يعرض صانعوها الجزء الثاني منها في الأسواق، ثم الثالث وهكذا، كلما انتهى من جزء لحقه الجزء الآخر، وكلما انتهى من لعبة وجد لعبةً أخرى.

(١) رواه أبو داود (٢٨٥٩) وصححه الألباني.

(٢) فتح الباري (٩/ ٦٦٢).

وبسبب انهماك الناس في هذه الألعاب استغلّت بعض القنوات الفضائية هذا الأمر، فأصبحت هناك قنوات خاصة بالألعاب الإلكترونية، تَعرض آخر الألعاب، وكيفية اللعب بها.

والسؤال المطروح: ما الذي استفاده أبناؤنا من هذه الألعاب؟

إن أبناءنا لم يستفيدوا شيئاً من هذه الألعاب سوى حرق أعصابهم، وإتلاف أصابعهم، وإضعاف أبصارهم، وشلل تفكيرهم، بالإضافة إلى الغفلة الناتجة عن الجلوس أمام الشاشة لأوقات طويلة جداً.

ويا ليت الأمر اقتصر على هذا، بل إن هذه الألعاب تزرع محبةَ الشرك وأهله في قلوب أبنائنا.

أرادت إحدى الأمهات أن تمنع ولدها الصغير من اللعب بلعبة من هذه الألعاب الإلكترونية، فإذا بالولد يصيح ويقول: «اتركيني ألعب، ولن أدخل إلى الكنيسة مرة أخرى»!.

فوجئت الأم بهذا الكلام! فما علاقة الكنيسة باللعبة؟!

وكانت رمية من غير رامٍ؛ فلقد اكتشفت أن اللاعب في اللعبة إذا حصل له ضعفٌ أو نزل مستوى من المستويات فإنه يدخل في الكنيسة؛ ليقوي نفسه، وترجع له عافيته، فيستطيع مواصلة اللعب!.

فهل سنستهين بعد هذا كله بما فعلته هذه الألعاب بأبنائنا؟

كم أضاعت هذه الألعاب من الصلوات المتتالية عليهم؟!

وكم أذهبت من الأعمار والأوقات بغير ذكر لله، أو انشغال بطاعته؟!

ألم تشغل هذه الألعاب أبناءنا عن حفظ القرآن؟!

ألم تشغلهم عن بر الوالدين؟!

بل إنها قد شغلتهم عن تناول الوجبات اليومية اللازمة لنموهم وسلامة صحتهم!!

• **الترفيه والتنعم:**

لقد أصبح الترفيه والرفاهية في عصرنا هذا صناعة من الصناعات، وبسببه عاش الناس في غفلة عظيمة.

ذلك الترفيه المشتمل على السفر السياحي، والمطاعم الكبيرة، والبوفيهات المفتوحة، وتنوّع الأطعمة، التي أصبح الناس يستهلكون أوقاتهم في تحضيرها وأكلها.

وانظر إلى الأسواق لترى مدى انشغال الناس في التحضير لوجباتهم اليومية، وذلك بشراء مستلزمات تلك الوجبات.

• **الركون إلى الدنيا:**

لا شك أن من أسباب الغفلة حب الدنيا، والركون إليها؛ لأنها تؤدي إلى ترك محاسبة النفس، وتطيل أمل الإنسان، وتمنّيه بالأماني الزائفة، وتجعله مُسَوِّفا في التوبة.

ولو أنه أخرج حب الدنيا من قلبه؛ لما غفل عن الله والدار الآخرة، وَلَعَلِمَ أن الدنيا دار ممرٍّ لا دار مقرّ، ولما استرسل في شهواته وملذاته.

• **مخالطة أهل الغفلة:**

مخالطة الغافلين من أعظم أسباب الغفلة، قال تعالى: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨].

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [الحشر: ١٩].

قال السعدي رحمه الله: «والحرمان كل الحرمان: أن يغفل العبد عن هذا الأمر، ويشابه قوما نسوا الله وغفلوا عن ذكره والقيام بحقه، وأقبلوا على حظوظ أنفسهم وشهواتها، فلم ينجحوا، ولم يحصلوا على طائل، بل أنساهم الله مصالح أنفسهم، وأغفلهم عن منافعها وفوائدها، فصار أمرهم فُرُطا، فرجعوا بخسارة الدارين، وغبنوا غبنا، لا يمكنهم تداركه، ولا يجبر كسره، لأنهم هم الفاسقون، الذين خرجوا عن طاعة ربهم وأوضعوا في معاصيه،

فهل يستوي مَن حافظ على تقوى الله ونظر لما قدم لغده، فاستحق جنات النعيم، والعيش السليم -مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين- ومَن غفل عن ذكر الله، ونسي حقوقه، فشقي في الدنيا، واستحق العذاب في الآخرة؟ فالأولون هم الفائزون، والآخرون هم الخاسرون»[1].

- **كثرة المباحات**

وتحصل الغفلة بكثرة الانشغال بالمباحات، لأنها تقسّي القلب.

وتأمل في حال الناس اليوم، ترى أن انهماكهم في المباحات جعلهم يغفلون عن الله والدار الآخرة.

فما الذي سيحدث للشخص عندما يغيب في عمله طول النهار، ثم يخرج إلى وجبة الغداء، ثم يتبع ذلك بالنوم، فإذا استيقظ خرج إلى استراحته، أو إلى النزهة مع أصدقائه أو أهله، حتى ينتهي يومه وهو متنقل بين هذه الأمور المباحة؟

فأي عيشة هذه؟!، وماذا يُرجى من الخير لمن كان هذا برنامجه اليومي؟!

❊ ❊ ❊

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص٨٥٣).

نماذج مما يغفل عنه الناس

كثُر الغافلون من الناس في عصورنا المتأخرة، وكثُرت الأمور التي يغفل عنها الناس، وحقٌّ على المؤمن أن يُذكِّرَ أخاه المؤمن بهذه الأمور، لعله يتذكر، ويستفيد من هذه الموعظة.

ومن الأمور التي يغفل عنها الناس:

- **الغفلة عن تعلُّم دين الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى:**

الجهل بدين الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى سبب لارتكاب الذنوب، والذنوب تقسي القلوب، ومِن ثَمَّ يصاب العبد بالغفلة عن الله والدار الآخرة.

فكيف يخاف الحساب من يجهل وجود الصراط والميزان؟!

وكيف يخاف سوء الخاتمة من لا يعلم بأن القلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن، يقلبها كيف يشاء!!

وهذا الجهل هو الذي يؤدي إلى التفرق بين أهل الإسلام، ويسبب العيش في عمًى وضلال، وربما أدى إلى ارتكاب الذنوب في حق الأبرياء.

روى القاضي أبو بكر ابن العربي المالكي رَحِمَهُ اللَّهُ حكاية تدل على ما يمكن أن يصل إليه الجهل بأصحابه، فقال:

زار الشيخ الطرطوشي أحد فقهاء عصره من أهل المشرق (الأندلس)، ودخل يصلي في مسجد أحد الثغور، وكان ابن العربي في ذلك المسجد، فصلى الشيخ الطرطوشي النافلة، وكان يرفع يديه مع تكبيرة الركوع، وعند الرفع منه، فلما فعل الشيخ الطرطوشي -وهو ممن يتبع السنة- هذا الأمر، وهو مخالفٌ للمشهور من المذهب، استنكر هذا الرفع رئيس

البحر -وكان بجانب ابن العربي ينتظر الصلاة- فأمر بعض جنوده أن يقوم إلى الشيخ الطرطوشي فيقتله ويرميه في البحر!!.

قال ابن العربي: فطار قلبي من بين جوارحي، وقلت: سبحان الله! هذا الطرطوشي فقيه الوقت!

فقالوا لي: ولِمَ يرفع يديه؟!

فأخبرهم أن تلك سنة عن النبي ﷺ، وهي رواية عند المالكية، لكن ليست هي الرواية المشهورة في المذهب، وما زال بهم حتى سكنوا[1].

فتأمل! كيف يمكن أن يصل الجهل بأهل الغفلة إلى أن يستبيحوا دم مسلم!! مع أنه على حق وسنة، كل هذا بسبب الجهل بدين الله تعالى.

- **الغفلة عن كتاب الله تعالى:**

فيغفلون عن تعلمه، وتعليمه، وحفظه، مع أن النبي ﷺ رغّب في ذلك كله.

فالماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة

وحافظ القرآن تُرفع درجاته يوم القيامة بحسب حفظه

والقرآن يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابه، كما أن قارئ القرآن يشفع لأهله.

وغير ذلك من الكرامات التي تنال حافظ القرآن، ومعلمه، ولكن الناس عنها غافلون

- **الغفلة عن ذكر الله تعالى:**

وهو الزاد الذي يتزود به المتقون، ويتوجه إليه الصالحون.

هو قوت القلوب، وعمار الديار، به تُستدفع الآفات، وتُستكشف الكربات، وأهله يتقلبون في رياض الجنات.

الذكر عبودية القلب واللسان، وزينة العابدين، وباب الله الأعظم، المفتوح بينه وبين عباده.

---

(١) تفسير القرطبي (١٩/ ٢٨١)، الاعتصام للشاطبي (١/ ٢٩٦) بتصرف.

وكم من الناس يغفل عن الأذكار المطلقة والمقيدة.

فيأتي الصباح ولا يذكر أحدنا أذكاره، وينتهي المساء ولا يذكر أذكاره.

يدخل المسجد ويخرج منه، ولا يقول شيئاً.

ويدخل بيته ويخرج منه، ولا تتحرك شفتاه بشيء من ذكر الله تعالى.

يسمع نهيق الحمير، وصياح الديكة، ولا يذكر شيئاً من الأذكار المخصصة عند سماع هذه الأصوات ألبتة.

فمَن كانت هذه حاله، كيف سيذكر الله إذا حضرت الشهوات المباحة، كشهوة الطعام وشهوة النكاح؟

ومن غفل عن الذكر في مواضع العبادة، فأحرى به أن يغفل عنه في مواضع شهواته.

• الغفلة عن الأذكار التي تحمي الإنسان:

ينبّه الله عَزَّوَجَلَّ هؤلاء الغافلين عن الأذكار أحياناً بما يصيبهم من المصائب، فيتذكرون هذه الأذكار، حتى يقول بعضهم: يا ليتني ذكرت هذه الأذكار!.

عَـن خَولَـةَ بنتِ حَكيمٍ السُّـلَميَّةِ، أَنَّها سَـمِعَت رَسُـولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَقُـولُ: «إِذا نَزَلَ أَحَدُكُـم مَنـزِلاً، فَليَقُل أَعُوذُ بِكَلِماتِ اللهِ التّامّاتِ مِن شَرِّ مـا خَلَقَ، فَإِنَّهُ لا يَضُرُّهُ شَيءٌ حَتَّى يَرتَحِلَ مِنهُ»[١].

قـال أبـو العباس أحمد بن عمـر القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «هـذا خبر صحيح، وقول صـادق، علمنا صدقـه دليـلاً وتجربـةً، فإني منذ سـمعت هـذا الخبر عملت بـه، فلم يـضرني شيء إلى أن تركته، فلدغتني عقرب بالمهدية ليلاً، فتفكرت في نفسي، فإذا بي قد نسيت أن أتعوذ بتلك الكلمات»[٢].

وقـد سـمعت قصة من بعض الناس من أهل المدينة النبويـة، مفادها: أنه قال هذا الذكر في مـكان قبـل ذهابه إلى بلده بنحو من ٧٠ كيلو متراً، فلـما وصل إلى بلده وأنزل الغطاء عن

(١) رواه مسلم (٢٧٠٨).

(٢) المفهم (٧/ ٣٦).

رأسه، قال له ولده: ما هذا الشيء الأسود على رأسك يا أبتِ؟ فمص رأسه، فإذا هو عقرب قد حمله من مسافة ٧٠ كيلو متراً، قال: فرجوتُ أن الله حفظني بهذا الذكر الذي قلته عندما حَلَّ المساء، في ذلك المكان الذي كنت فيه.

* **الغفلة عن إعمال النية**

عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «**إِنَّما الأَعمالُ بِالنِّياتِ، وَإِنَّما لِكُلِّ امرِئٍ ما نَوى**»[1].

فالناس قد يسون نية القيم بالواجب، ولربما أبطل ذلك العمل؛ لأن بعض الأعمال تفتقر في صحتها إلى النية.

وربما غفل الناس عن نية احتساب الأجر، فضيعت هذه الغفلة عليهم أجوراً كثيرة، فإن النية إذا استحضرها العبد في المباحات صارت من محاسن القربات.

فلو احتسب الإنسان الأجر عند شراء أغراض المنزل لنال الأجر العظيم.

وكذلك حينما ينفق على أهله النفقة الواجبة أو غير الواجبة.

عن أبي مسعود الأنصاري رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**إِذا أَنفَقَ المُسلِمُ نَفَقَةً عَلَى أَهلِهِ وَهُوَ يَحتَسِبُها؛ كانَت لَهُ صَدَقَةً**»[2].

وربما داعب الإنسان أخاه أو صاحبه مداعبة مباحة، فهي إما أن تكون له إذا نوى بها إدخال السرور على أخيه المسلم، وإما أن تكون لا له ولا عليه إذا لم ينوِ بها شيئاً.

بل إن ملاعبة الرجل امرأته يتحصل بها على الأجر إذا نوى النية الصالحة، وما أكثر ما نغفل عن هذه النية!، عن أبي ذر رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**وَفي بُضعِ أَحَدِكُم صَدَقَةٌ**»، قالوا: يا رسولَ الله، أَيَأتي أَحَدُنا شهوتَهُ وَيَكُونُ لَهُ فيها أَجرٌ؟ قال: «**أَرَأَيتُم لَو وَضَعَها في حَرامٍ أَكانَ عَلَيهِ فيها وِزرٌ؟ فَكَذَلِكَ إِذا وَضَعَها في الحَلالِ كانَ لَهُ أَجرٌ**»[3].

(١) رواه البخاري (١)، ومسلم (١٩٠٧).

(٢) رواه البخاري (٥٥)، ومسلم (٥٣٥١).

(٣) رواه مسلم (١٠٠٦).

قال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَفِي هَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ المُبَاحَاتِ تَصِيرُ طَاعَاتٍ بِالنِّيَّاتِ الصَّادِقَاتِ، فالجِمَاعُ يَكُونُ عِبَادَةً إِذَا نَوَى بِهِ قَضَاءَ حَقِّ الزَّوْجَةِ وَمُعَاشَرَتَهَا بِالمَعْرُوفِ الَّذِي أَمَرَ اللهُ تَعَالَى بِهِ، أَوْ طَلَبَ وَلَدٍ صَالِحٍ، أَوْ إِعْفَافَ نَفْسِهِ، أَوْ إِعْفَافَ الزَّوْجَةِ، وَمَنْعَهُمَا جَمِيعاً مِنَ النَّظَرِ إِلَى حَرَامٍ، أَوِ الفِكْرِ فِيهِ، أَوِ الهَمِّ بِهِ، أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ المَقَاصِدِ الصَّالِحَةِ»[1].

فربّ عمل صغير تعظمه النية، وربّ عمل كبير تصغره النية، كما قال ابن المبارك رَحِمَهُ اللَّهُ[2].

وعن أبي بردة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «بعث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَبَا مُوسَى وَمُعَاذاً رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا إلى اليمن فَقَالَ مُعَاذٌ لِأَبِي مُوسَى: كَيْفَ تَقْرَأُ القُرْآنَ؟ قال: قَائِماً وَقَاعِداً وَعَلَى رَاحِلَتِي، وَأَتَفَوَّقُهُ تَفَوُّقاً، قال: أَمَّا أَنَا فَأَنَامُ وَأَقُومُ، فَأَحْتَسِبُ نَوْمَتِي كَمَا أَحْتَسِبُ قَوْمَتِي»[3].

وقوله: «فأحتسب نومتي كما أحتسب قومتي»:

قال ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: «مَعْنَاهُ: أَنَّهُ يَطْلُبُ الثَّوَابَ فِي الرَّاحَةِ كَمَا يَطْلُبُهُ فِي التَّعَبِ؛ لِأَنَّ الرَّاحَةَ إِذَا قُصِدَ بِهَا الإِعَانَةُ عَلَى العِبَادَةِ حَصَّلَتِ الثَّوَابَ»[4].

وقال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: «مَعْنَاهُ: أَنِّي أَنَامُ بِنِيَّةِ القُوَّةِ، وَإِجْمَاعِ النفس للعبادة، وتنشيطها لِلطَّاعَةِ، فَأَرْجُو فِي ذَلِكَ الأَجْرَ، كَمَا أَرْجُو فِي قَوْمَتِي، أَيْ صَلَوَاتِي»[5].

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ حاكياً حال من كان همه الله والدار الآخرة، فلا يتقلب إلا في شيء يظهر له فيه مرضاة ربه: «وإن كان من الأفعال العادية الطبيعية، قلبه عبادة بالنية، وقصد الاستعانة به على مرضاة الرب.

وبالجملة: فيقف عند أول الداعي إلى فعله، فيفتش ويستخرج منه منفذاً ومسلكاً يسلك به، فينقلب في حقه عبادة وقربة»[6].

---

(١) شرح النووي (٧/ ٩٢).

(٢) جامع العلوم والحكم (ص١٣).

(٣) رواه البخاري (٤٣٤٥).

(٤) فتح الباري (٨/ ٦٢).

(٥) شرح النووي على مسلم (١٢/ ٢٠٩).

(٦) طريق الهجرتين (ص٣٣٢).

وخلاصة القول:

أن الإنسان يقوم بأعمال كثيرة في اليوم الواحد، يذهب إلى وظيفته، يأكل، يشرب، ينام، يمزح، يتحدث، يبيع، يشتري، يستأجر، كل هذه الأمور لا يخطر على بال أهل الغفلة أن ينووا بها النية الصالحة عند قيامهم بها، أما أهل العبادة: فإنهم يقفون عند كل عمل، ويفتشون في قلوبهم عن النية الصالحة التي تُصَحِّح لهم عملهم، وتقلب العمل العادي إلى عبادة.

- **ومن الغفلة ما يكون عن ترتيب الأعمال، وتنزيلها منازلها:**

إن العبادات الشرعية متفاوتة الأجر والثواب بعدة اعتبارات، فمنها ما هو أفضل مطلقاً، ومنها ما هو أفضل بحسب الزمان، ومنها ما هو أفضل بحسب المكان، وهكذا.

فقراءة القرآن من الأعمال الفاضلة مطلقاً، ولكن عند دخول المسجد يقدم دعاء دخول المسجد على قراءة القرآن، وكذلك عند الخروج من المسجد، وكذلك تقدم أذكار الصباح والمساء على القرآن في أوقاتها، وهكذا.

كان ابن مسعود رضي الله عنه لا يكاد أن يصوم، ويقول: «إني إذا صمت ضعفت عن الصلاة، والصلاة أحب إليّ من الصيام» فإن صام صام ثلاثاً من الشهر[1].

والأعمال متعدية النفع، أفضل من الأعمال قاصرة النفع على وجه العموم.

فتعليم العلم النافع خير من التنفل بالصلاة أو الصيام، إن كان يشغلانه عن التعليم والتدريس.

وقَلَّ من ينتبه هذا التفاضل، فيستغل إبليس هذا الأمر، وينتصر على ابن آدم من جهة إشغاله بالعمل المفضول عن العمل الفاضل، فإن الشيطان ربما أمر بسبعين باباً من أبواب الخير؛ ليتوصل بها إلى باب واحد من الشر، أو ليفوّت خيراً عظيماً أعظم من تلك السبعين وأجلّ، كما قال ابن القيم رحمه الله[2].

---

(١) رواه الطبراني في المعجم الكبير (٨٨٦٩)، قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٢/ ٣٠٤): «رجاله رجال الصحيح».

(٢) بدائع الفوائد (٢/ ٤٨٥) بتصرف يسير.

وقال ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ورأيت من تفضيل بعض العلماء: إيثاره للتنفل بالصلاة والصوم عن تصنيف كتاب، أو تعليم علم ينفع؛ لأن ذلك بذر يكثر ريعه، ويمتد زمان نفعه»[1].

توقف ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن درسه فجأة ذات ليلة، وهو يلقيه كعادته بعد صلاة المغرب، فأطرق الطلاب برؤوسهم، ثم قال: «وجدت بقعة من الطلاء (الدهان) على يدي، وقد توضأت، ولم أنتبه لها، ثم صليت، ثم جلست للدرس، فاكتشفتها الآن».

فاستأذن الطلبة، وقام، وأزال الطلاء، ثم توضأ وأعاد صلاة المغرب فقط، ولم يتنفل بعدها، ورجع للدرس وأكمله، فسأله أحد الطلاب عن سبب عدم إعادته النافلة أيضاً، فقال: «العلم أولى بالمراعاة (لأن نفعه متعدٍّ)، والطلاب قد اجتمعوا، والوقت يمضي، وهذا وقت الدرس، أما النافلة: فنفعها قاصر على صاحبها».

ولو أمكن الجمع بينهما لجمع، ولكنه رأى أن الدرس أولى من التنفّل.

وغفلة الناس ليست مقتصرة على هذه الأمور فقط.

بل هناك الغفلة عن تصحيح النية، وعن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعن دعوة الناس وتربيتهم، وعن النوافل المختلفة، كصلاة الضحى، والسنن الرواتب، والوتر، وعن الجلوس في المسجد بعد صلاة الفجر إلى طلوع الشمس، وعن حضور الدروس العلمية والوعظية.

إلى غير ذلك من العبادات التي غفل عنها أكثر الناس.

* * *

(١) صيد الخاطر (ص٤٢).

عقوبات الغفلة

عقوبات الغفلة كثيرة جداً، منها:

- **استحقاق العذاب في الدنيا:**

قال الله سبحانه تعالى: ﴿ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُوا۟ يَـٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ۖ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَـٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَـٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَـٰفِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٣٤-١٣٦]، فأغرقهم الله بغفلتهم عن آياته.

- **الصرف عن تدبر آيات الله، وفهمها، والانتفاع بها.**

وهذه عقوبة خطيرة جداً، قال تعالى: ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَـٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَـٰفِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٤٦]، أي: لا أتركهم يتدبرونها، ولا يعتبرون بها، وتمر عليهم مروراً دون أن يستفيدوا منها.

قال البيضاوي رحمه الله: «أي: ذلك الصرف بسبب تكذيبهم، وعدم تدبرهم للآيات»[1].

وهذه عقوبة بليغة، لكن أهل الغفلة لا يشعرون بها.

والله يجازي أهل الغفلة بغفلة أعظم، جزاء وفاقاً، ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥]، استحبوا العمى؛ فأعماهم الله عن الحق.

(١) تفسير البيضاوي (١/ ٣٦٠).

- **الحرمان من رحمة الله عَزَّوَجَلَّ.**

عن يُسَيرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا -وكانت من المهاجرات- قالت: قال لنا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«عَلَيْكُنَّ بِالتَّسْبِيحِ، والتَّهْلِيلِ، والتَّقْدِيسِ، واعقُدنَ بِالأَنَامِلِ[1]؛ فَإِنَّهُنَّ مَسْؤُولاتٌ مُسْتَنْطَقَاتٌ[2]، وَلا تَغْفُلْنَ؛ فَتَنْسَيْنَ الرَّحْمَةَ»**[3].

قال القاري رَحِمَهُ اللَّهُ: «أي: لا تَتْرُكْنَ الذِّكْرَ، فإنكُنَّ لو تَرَكْتُنَّ الذِّكْرَ لَحُرِمْتُنَّ ثَوابَهُ، فكأنَّكُنَّ تَرَكْتُنَّ الرَّحْمَةَ»[4].

- **رد الدعاء وعدم استجابته:**

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«ادعُوا الله وَأَنْتُم مُوقِنُونَ بِالإِجابَةِ، واعلَمُوا أَنَّ الله لا يَستَجِيبُ دُعاءً مِن قَلْبٍ غافِلٍ لاهٍ»**[5].

فليكن يقينك بالله كبيراً حال دعائك، ولا تكن كأصحاب القلوب الغافلة، الذين يرفعون أيديهم بالدعاء، ثم لا يدرون ماذا قالوا، وبماذا دعوا!.

أو كمن يُؤَمِّن خلف الإمام، وهو لا يفقه شيئاً من دعائه!.

فكيف يُقبل دعاء من هذا حاله ؟!

- **تسليط الشياطين على الغافل:**

إذا دخل الرجل بيته، وغفل عن ذكر الله؛ فإن الشيطان يُسلَّط عليه، ويدخل بيته، ويبيت معه.

---

(١) الأَنْمُلَةُ بتثليث الميم والهمزة تسع لغات: التي فيها الظُّفُرُ، والجمع أنامِلُ وأَنْمُلاتٌ. القاموس المحيط -فصل النون- (ص١٠٦٥).

أي: اعقدن التسبيح بالأنامل، فعند كل تسبيحة اطْوِ الأصبع على الكف، واجعل الأنملة في باطن الكف، فتصبح عقدة.

(٢) مستنطقات: «بفتح الطاء، أي متكلمات، بخلق النطق فيهن، فيشهدن لصاحبهن أو عليه بما اكتسبه». عون المعبود (٤/ ٢٥٨).

(٣) رواه الترمذي (٣٥٨٣)، وحسنه الألباني في صحيح الترمذي.

(٤) مرقاة المفاتيح (٤/ ١٦٠٦).

(٥) رواه الترمذي (٣٤٧٩)، وحسنه الألباني في صحيح الترمذي.

وإذا أكل طعامه وغفل عن ذكر الله؛ أكل معه الشيطان. فعن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه سمع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «إِذَا دَخَلَ الرَّجُلُ بَيْتَهُ فَذَكَرَ اللهَ عِنْدَ دُخُولِهِ وَعِنْدَ طَعَامِهِ قَالَ الشَّيْطَانُ: لَا مَبِيتَ لَكُمْ وَلَا عَشَاءَ، وَإِذَا دَخَلَ فَلَمْ يَذْكُرِ اللهَ عِنْدَ دُخُولِهِ قَالَ الشَّيْطَانُ: أَدْرَكْتُمُ الْمَبِيتَ، وَإِذَا لَمْ يَذْكُرِ اللهَ عِنْدَ طَعَامِهِ قَالَ: أَدْرَكْتُمُ الْمَبِيتَ وَالْعَشَاءَ»[1].

- **تتابع الغفلات:**

فإن الغفلة تجر أختها، والثانية تجر الثالثة، وهكذا، حتى يقع الإنسان في مستنقع الشهوات، ولا يستطيع الخروج منه، ما لم يتداركه الله برحمةٍ منه وفضل.

وكم من صاحب معاصٍ وفسوق كانت بدايته بغفلة لم يقاومها، ولم يتب منها!.

- **سوء الخاتمة:**

إن الغفلة تؤدي إلى الموت على ما يكرهه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وهذا له أمثلة كثيرة، وقصص متنوعة واقعية، لأناس غفلوا عن ذكر الله، فكانت نهاياتهم شقية، وخاتمتهم سيئة في هذه الدنيا، وهذا من أعظم آفات الغفلة.

- **الحسرة في الآخرة:**

من أسماء يوم القيامة: يوم الحسرة؛ وذلك لتحسر أهل الغفلة فيه، وندمهم على ترك الصالحات، ولكن هيهات هيهات أن ينفع الندم في ذلك الوقت.

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «مَنْ قَعَدَ مَقْعَداً لَمْ يَذْكُرِ اللهَ تَعَالَى فِيهِ كَانَتْ عَلَيْهِ مِنَ اللهِ تِرَةٌ، وَمَنِ اضْطَجَعَ مَضْجَعاً لَا يَذْكُرُ اللهَ فِيهِ كَانَتْ عَلَيْهِ مِنَ اللهِ تِرَةٌ»[2]. والترة: الحسرة والندامة.

- **وأشد العقوبات التي تقع على أهل الغفلة: دخول النار:**

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ ﴿٧﴾ أُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [يونس: ٧-٨].

---

(١) رواه مسلم (٢٠١٨).

(٢) رواه أبو داود (٤٨٥٦)، وصححه الألباني.

وقال جلَّ شأنه: ﴿وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٧].

وقال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

فهؤلاء الغافلون قست قلوبهم عن الاعتبار والاتعاظ والتدبر والتفكر، وعميت بصائرهم عن إدراك الحق، وصُمَّت آذانهم عن سماع الحق، ولذلك كانوا كالأنعام بل هم أضل، أولئك هم الغافلون.

وسيقال لكل غافل في موقف الحساب يوم القيامة ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق: ٢٢]، أي: لقد كنت في غشوة، لا ترى ما بعد الموت، ولا تحسب له حساباً، ولا تتهيأ له، ولا تفكر فيه، فكشفنا عنك الغطاء بقبض روحك، ورأيت الأهوال وعاينتها، فمن شدة الخوف بصرك لا يريع يمنة ولا يسرة، بل هو مثبَّت مكانه من الهول.

إن عاقبة الغفلة ليست هيّنة أبداً، بل إنها قد تعود على صاحبها بخسارة الدارين، نسأل الله السلامة والعافية.

* * *

علاج الغفلة

إن قال قائل: ما علاج الغفلة، وكيف ننجو منها؟ فنقول:

علاج الغفلة يكون بأمور عدة

- **بالذكر:**

قال الله تعالى: ﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴾ [الأعراف: ٢٠٥].

إن الذكر له مفعول قوي في مواجهة الغفلة، وهو من أكبر الأسباب المخرجة للمسلم عن حيز الغفلة، وعلى قدر غفلة العبد عن الذكر يكون بعده عن الله، وعلى قدر إقباله على الذكر واشتغاله به تكون حياة قلبه وزوال غفلته.

- **بالدعاء:**

فالدعاء بزوال الغفلة يعين على التغلب عليها، خاصة إذا استعاذ الإنسان بالأدعية الصحيحة الواردة عن النبي ﷺ في هذا الشأن.

عن أنس رضي الله عنه قال: كان النبي ﷺ يدعو يقول: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ العَجزِ، والكَسَلِ، والبُخلِ، والهَرَمِ، والقَسوَةِ، والغَفلَةِ، والذِّلَّةِ، والمَسكَنَةِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الفَقرِ، والكُفرِ، والشِّركِ، والنِّفاقِ، والسُّمعَةِ، والرِّياءِ...**»[1]

---

(١) رواه ابن حبان (١٠٢٣) والحاكم (١٩٤٤)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٢٨٥).

• **بقيام الليل:**

عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «**مَنْ قامَ بِعَشْرِ آياتٍ لَمْ يُكْتَبْ مِنَ الغافِلِينَ، وَمَن قامَ بِمِائَةِ آيَةٍ كُتِبَ مِنَ القانِتِينَ، وَمَن قامَ بِأَلْفِ آيَةٍ كُتِبَ مِنَ المُقَنطِرِينَ**»(١).

• **بزيارة القبور:**

فزيارة القبور مما يزيل الغفلة، ويذهب الغشاوة عن الغافلين.

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن زيارة القبور، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ذلك: «**أَلا إِنِّي قَدْ كُنْتُ نَهَيْتُكُم عَن ثَلاثٍ، ثُمَّ بَدا لِي فِيهِنَّ: نَهَيْتُكُم عَن زِيارَةِ القُبُورِ، ثُمَّ بَدا لِي أَنَّها تُرِقُّ القَلبَ، وَتُدمِعُ العَيْنَ، وَتُذَكِّرُ الآخِرَةَ، فَزُورُوها ...**»(٢).

وكان من وصية الشيخ عبد العزيز بن باز لبعض من سأله عن الغافلين: أن يصطحبوهم لزيارة القبور، وعدَّ ذلك من التعاون على البر والتقوى.

• **بتدبر حال الدنيا:**

لأن من تدبر حال الدنيا وجد أن مَسَرّاتها يشوبها الكدر، ولذاتها منغّصة.

بينما الإنسان في عز ودعة وهناء إذا بالبؤس يهجم عليه، وإذا بالشقاء يحل بساحته، فيصبح فقيراً بعد غنى، ذليلاً بعد عز.

وقد يأتيه الموت، فيخرج من الدنيا محمولاً على الأعناق، ثم يُوسد التراب، ويُترك لمصيره.

فما عيبت الدنيا بأكثر من فنائها، وتقلب أحوالها، وهو أدل دليل على انقضائها وزوالها، فتتبدل صحتها بالسقم، ووجودها بالعدم، وشبيبتها بالهرم، ونعيمها بالبؤس، وحياتها بالموت، وعمارتها بالخراب، واجتماعها بالفراق.

---

(١) رواه أبو داود (١٣٩٨)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٤٣٩).

(٢) رواه أحمد (١٣٠٧٥) وصححه محققو المسند.

قالت هند بنت النعمان: «لقد رأيتنا ونحن من أعز الناس، وأشدهم ملكاً، ثم لم تغب الشمس حتى رأيتنا ونحن أقل الناس».

وسألها رجل أن تحدثه عن أمرها فقالت: «أصبحنا ذا صباح وما في العرب أحد إلا يرجونا، ثم أمسينا وما في العرب أحد إلا يرحمنا»[1].

فانظر كيف كان حالهم في الصباح!! وإلى ماذا صار في المساء!! إنها عبرة وعظة، فهل من معتبر؟

ودخلت عبادة أم جعفر البرمكي على أناس في يوم عيد أضحى، تستمنحهم جلد كبش تستدفئ به، فسألوها عما كانت فيه من النعمة، فقالت: «لقد أصبحت في مثل هذا اليوم وإن على رأسي أربعمائة وصيفة، وأقول: إن ابني جعفر عاقّ لي»[2].

كان هذا حالها في أحد الأعياد! ثم أصبحت في يوم عيد تطلب الناس جلداً تستدفئ به.

وقال بعض الصالحين: «مررت بدار من دور الكوفة غداة، فسمعت جارية تنادي من داخل الدار:

أَلا يا دارُ لا يَدخُلْكِ حُزنٌ وَلا يَذهَبْ بِساكِنِكِ الزَّمانُ

ثم مررت بعد ذلك بالدار، فإذا الباب وقد علته كآبة ووحشة، فقلت: ما شأنهم؟ قالوا: مات سيدهم، مات رب الدار.

فوقفت على باب الدار، فقرعته، وقلت: إني سمعت من ههنا صوت جارية تقول:

أَلا يا دارُ لا يَدخُلْكِ حُزنٌ وَلا يَذهَبْ بِساكِنِكِ الزَّمانُ

فبكت امرأة من الدار وقالت: يا عبد الله، إن الله تعالى يُغَيِّر ولا يُغَيَّر، والموت غاية كل مخلوق. فرجعتُ -والله- من عندهم باكياً»[3].

(١) زاد المعاد (٤/ ١٧٣).

(٢) البداية والنهاية (١٠/ ٢١٣).

(٣) الاعتبار لابن أبي الدنيا (ص٣٥).

وعن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال: «وفدني أبو بكر الصديق رضي الله عنه في عشرة من العرب إلى اليمن، فبينا نحن ذات يوم نسير إذ مررنا إلى جانب قرية أعجبت عمارتها، فقال بعض أصحابنا: لو ملنا إليها فدخلنا، فإذا هي قرية من أحسن ما رأيت، وإذا قصر أبيض بفنائه شيب وشبان، وإذا جارية بيدها دف تضربه وتقول:

مَعشَرَ الحُسّادِ مُوتُوا كَمَدا كَذا نكونُ ما بَقِينا أبَدا

وإذا غدير من ماء، وإذا سرح ممدود، كثير المواشي والإبل والبقر والخيل والأفلاء، وإذا قصور مستديرة، فقلت لأصحابنا: لو وضعنا رحلنا، فبينا نضع رحالنا إذ أقبل قوم من قِبَل القصر الأبيض، على أعناقهم النُّطع، فبسطوا لنا، ثم مالوا علينا بأطايب الطعام وألوان الأشربة، فاسترحنا وأرحنا، ثم نهضنا للرحلة، فأقبل القوم وقالوا: إن سيد هذه القرية يقرؤكم السلام، ويقول: اعذروني على تقصير إن كان مني، فإني مشغول بعرس لنا، فدعونا لهم، فعمدوا إلى ما بقي من ذلك الطعام، فملؤوا منه سفرنا، فقضيت سفري ورجعت.

فغبرت برهة من الدهر، ثم وفدني معاوية رضي الله عنه في عشرة من العرب، ليس معي أحد ممن كان في الوفد، فبينا أحدثهم بحديث القرية وأهلها إذ قال رجل منهم: أليس هذا الطريق الآخذ إليها؟ فانتهينا إليها، فإذا هي دكادك وتُلول، وأما القصور فخراب ما يبين منها إلا الرسوم، وأما الغدير: فليس فيه قطرة من الماء، وأما السرح فقد عفا ودثر أمره.

فبينا نحن وقوف متعجبون إذ لاح لنا شخص من ناحية القصر الأبيض، فقلت لبعض الغلمان: انطلق حتى تستبرئ ذلك الشخص، فعاد مرعوباً، فقلت له: ما وراءك؟ فقال: أتيت ذلك الشخص، فإذا عجوز عمياء، فراعتني.

فلما سَمِعَت حسي قالت: أسألك بالذي بَلَّغَك سالماً إلا أحدت على عينك، وزحت حتى دخلت في التل، ثم قالت: سل عما بدا لك.

قلت: ما فعل أبوك وقومك؟ قالت: ماتوا، وبقيتُ بعدهم.

قلت: هل تذكرين زمناً كان لكم فيه عرس، وإذا جارية بيدها دف تضرب به وتقول:

مَعشَرَ الحُسّادِ مُوتُوا كَمَدا كَذا نكونُ ما بَقِينا أبَدا

فشهقت، واستعبرت، وقالت: والله إني لأذكر ذلك العام والشهر واليوم والعرس، كانت أختي، وأنا صاحبة الدف!

فلم تزل تحدث حتى ملت، فنزعت نزعاً يسيراً، وماتت»[1].

إن حب الدنيا هو الذي عمّر النار بأهلها، والزهد فيها هو الذي عمّر الجنة بأهلها.

الدنيا خمر الشيطان، مَن سكر منها لا يفيق إلا في عسكر الموتى، نادماً بين الخاسرين.

ما أصبح أحد في الدنيا إلا ضيف، وماله عارية، فالضيف مرتحل، والعارية مؤدّاة.

حب الدنيا رأس الخطايا؛ لأن حبها يقتضي تعظيمها، وهي حقيرة عند الله، والله لعنها ومقتها، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: **«أَلا إِنَّ الدُّنيا مَلعُونَةٌ، مَلعُونٌ ما فيها، إِلّا ذِكرُ اللهِ، وَما والاهُ، وَعالِمٌ، أَو مُتَعَلِّمٌ»**[2]، ومحبتها تضر بالآخرة.

الدنيا والآخرة ضرتان، إذا أرضيت إحداهما أسخطت الأخرى، ولا بُدّ.

محبة الدنيا تعترض بين العبد وبين فعل ما يعود عليه بالنفع في الآخرة، ولذلك فإن من الغفلة الشديدة أن يتعب الإنسان في تحصيل الدنيا، ويبني للخراب، وهو يعرف أن المصير سيكون الفناء والزوال، يقول يونس بن عبد الأعلى رحمه الله: «ما شبّهت الدنيا إلا كرجل نام فرأى في منامه ما يحب وما يكره، فبينما هو كذلك إذ انتبه»[3]. وهذا الانتباه هو الموت.

فليحذر العبد هذه الدنيا الغرارة الخداعة، سرورها مشوب بالحزن، وصفوها مشوب بالكدر، فلو كان الخالق لم يخبر عنها خبراً، ولم يضرب لها مثلاً؛ لكانت قد أيقظت النائم، ونبهت الغافل، فكيف وقد بيّن لنا بأنها لا تزن عنده جناح بعوضة، أفيظن المغرور أن هذه الدنيا للبقاء؟!

- **بذكر الجنة والنار:**

فالجنة دار لا يموت سكّانها، ولا يخرب بنيانها، ولا يهرم شبابها، ولا يتغير حسنها وإحسانها.

(١) الاعتبار لابن أبي الدنيا (ص٤٧).

(٢) رواه الترمذي (٢٣٢٢)، وابن ماجة (٤١١٢)، وحسنه الألباني.

(٣) عدة الصابرين (ص١٩٠).

هواؤها النسيم، وشرابها مزاجه من تسنيم

يتقلب أهلها في رحمة أرحم الراحمين، ويتمتعون بالنظر إلى وجهه في كل حين، دعواهم فيها سبحانك اللهم، وتحيتهم فيها سلام، وآخر دعواهم: أن الحمد لله رب العالمين.

في نعيم الجنة ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

هذه الجنة أعدها الله تعالى لأهل طاعته، متكئين على سرر مصفوفة، ويُسقون من رحيق مختوم، تعرف في وجوههم نضرة النعيم.

ماذا يشربون؟

يشربون من ماء وخمر ولبن وعسل. خمرهم لا كخمر الدنيا، بيضاء لذة للشاربين.

بأي شيء يحفون؟

بالغلمان والولدان المُخلَّدون

مَن أزواجهم؟

الحور العين، كأنهن الياقوت والمرجان، ولم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان، آمنات من الهرم، مقصورات في الخيام.

مَن الذي يدخل عليهم؟

الملائكة، يدخلون عليهم طيبين من كل باب، فيسلِّمون عليهم.

وكيف يُقدَّرُ قدر دار خلقها الله بيده، وجعلها مقراً لأحبابه، وملأها من رحمته وكرامته، ووصف نعيمها بالفوز العظيم، ومُلكها بالملك الكبير، وطهّرها من كل عيب؟!

إن سألت عن أرضها فهو المسك والزعفران، وإن سألت عن سقفها فهو عرش الرحمن، وإن سألت عن حصبائها فهو اللؤلؤ والجواهر، وإن سألت عن بنيانها فلبنة من فضة ولبنة من ذهب، وإن سألت عن أشجارها في فيها شجرة إلا وساقها من ذهب وفضة، وإن سألت عن ثمارها فهي ألين من الزبد وأحلى من العسل، وإن سألت عن ورقها فأحسن ما يكون من رقائق الحلل، وهكذا أنهارها لم تتغير، ونساؤها مطهرات

جمع الله تعالى لأهلها بين نعيم البدن ونعيم النفس، فنفوسهم منعمة، وأبدانهم منعمة، وهم في هذا النعيم المقيم لا يشيبون، ولا يهرمون

فلنتأمَّل في نعيم الجنة يطرد الغفلة.

وكذلك تأمُّل ما أعدّ الله من العذاب والنكال لأهل النار يطرد الغفلة.

فالصخرة العظيمة تلقى من شفير جهنم تهوي فيها سبعين خريفاً!

وليتأمل العبد حال أهل النار الذين شُدّت أقدامهم إلى النواصي، واسودت وجوههم من ظلمة المعاصي، ينادون من أكنافها، ويصيحون في نواحيها: يا مالك قد حق علينا الوعيد، يا مالك قد نضجت منا الجلود، يا مالك أخرجنا منها فإن لا نعود

فيقال لهم: هيهات هيهات، لا خروج لكم من دار الهوان، فاخسؤوا فيها ولا تكلمون

فعند ذلك يقنطون، وعلى ما فرطوا في جنب الله يتأسفون، لا ينجيهم الندم، ولا يغنيهم الأسف، بل يكبّهم في النار، فيهتفون بالويل والعويل، ومهما دعوا بالثبور يُصبّ من فوق رؤوسهم الحميم، يُصهر به ما في بطونهم والجلود، ولهم مقامعُ من حديد.

تتقطع من العطش أكبادهم، وتسيل على الخدود أحداقهم، وتسقط من الوجنات لحومهم، وهم مع ذلك يتمنون الموت فلا يموتون.

تَرمي النار بشرر كالقصر، حجم الشرار منها كالقصر الكبير، فكيف بطرف اللهب؟! فكيف باللهب نفسه؟!

هذه النار سبعون ضعفاً من نار الدنيا، يتجرع الكافر ما فيها ولا يكاد يُسيغه، يتمنى الموت ويأتيه من كل مكان وما هو بميت، سرابيلهم من قَطِران وتغشى وجوهَهم النار

لهم مِن فوقهم ظُلَل من النار، ومن تحتهم ظلل.

وغير هذا العذاب الجسدي، فهناك عذاب معنوي، فكلما دخلت أمّة لعنت أختها

وتلومهم الملائكة وتقرّعهم على تقصيرهم وتفريطهم في الحياة الدنيا

***

الخاتمة

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «إن مجالس الذكر مجالس الملائكة، ومجالس اللغو والغفلة مجالس الشياطين. فليتخير العبد أعجبهما إليه وأولاهما به، فهو مع أهله في الدنيا والآخرة»[1].

إن زماننا هذا هو زمن الغفلة، وإذا أردت أن تتأكد من هذا فسر في أرض الله، وتأمل فيها، وفي ساكنيها، ماذا عساك أن ترى؟

سترى أمامك محلات للألعاب، ودُوراً للملاهي، ودكاكين متخصصة في القنوات الفضائية والترفيه.. إلخ.

ثم بعد ذلك قارن بينها وبين أماكن العبادة، وحلقات العلم، وسترى أن ما يُلهي عن الله والدار الآخرة أكثر بكثير.

والذي يُضحّي ويترك أماكن اللهو والغفلة، ومجالس الصالحين في بيوت الله وحلقات العلم؛ سيكرمه ربه بالجزاء العظيم بسبب هذه التضحية؛ لأنه كلما كثرت الحوادث والمغريات وقاومها الإنسان كان أجره أكبر، ولذلك كان أجر الصالحين في آخر الزمان أكثر بسبب أنهم يقاومون المغريات والفتن المتنوعة.

نسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يعيذنا من الغفلة وأسبابها وشُبُهها، وأن يعيذنا من خاتمة السوء، وأن يرزقنا ذكره وشكره، وأن يعيننا على حسن عبادته، إنه سميع مجيب.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله، وصحبه أجمعين.

* * *

(١) الوابل الصيب (ص٦٥).

اختبر فهمك

فيما يلي مستويان من الأسئلة حول الموضوع: أسئلة حلولها مباشرة، وهي أسئلة المستوى الأول.

وأسئلة تحتاج إلى بحث وتأمل، وهي أسئلة المستوى الثاني.

أسئلة المستوى الأول (المباشرة):

١. اذكر تعريف الغفلة لغة واصطلاحاً.
٢. ما هي أنواع الغفلة؟
٣. للغفلة المذمومة ثلاثة أقسام، فما هي؟
٤. ما هي أسباب الغفلة؟

أسئلة المستوى الثاني (الاستنباطية):

١. مما يغفل عنه الناس (إهمال النية)، وضح ذلك.
٢. جاء في ثنايا الفصل مقولة طفل لأمه (اتركيني ألعب ولن أدخل الكنيسة مرة أخرى)، فما مناسبة هذا القول؟
٣. بماذا يعاقَب الغافل في الدنيا؟
٤. بماذا يعاقَب الغافل في الآخرة؟
٥. ما هو أقوى علاج للغفلة؟



الشهوة



مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد، وعلى آله، وصحبه أجمعين.

أما بعد:

فالحديث عن الشهوة وما يعتريها من أحوال: مطلب مُلِحّ لكل مسلم ومسلمة، لاسيما في هذا العصر الذي كثرت فيه مثيراتها، وغلب تأثيرها.

فما الشهوة؟

ولماذا خُلِقَت؟

وما أسباب الوقوع في الشهوة المحرمة؟

وما علاج الشهوة المحرمة؟

هذا ما سنتطرق إليه في ثنايا هذا الفصل، مع الشكر والدعاء بالتوفيق لكل من ساهم في إعداد هذه المادة وإخراجها.

اللهم أغننا بحلالك عن حرامك، وبطاعتك عن معصيتك، وبفضلك عمن سواك.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله، وصحبه أجمعين.

* * *

تعريف الشهوة

الشهوة لغة:

قال ابن فارس رَحِمَهُ اللَّهُ: «الشِّينُ والهاءُ والحرفُ المُعتلُّ كَلِمَةٌ واحِدَةٌ، وَهِيَ الشَّهوَةُ. يُقالُ: رَجُلٌ شهوانٌ، وَشَيءٌ شهِيٌّ»[1].

وقال ابن منظور رَحِمَهُ اللَّهُ: «شَهِيَ الشيءَ وشَهاهُ يَشهاهُ شَهوَةً واشتَهاهُ وتَشَهّاهُ: أَحَبَّه ورَغِبَ فيه»[2].

الشهوة اصطلاحاً:

للشهوة عدة معانٍ، أبرزها ما يلي:

- هي فطرة غريزية جسدية، جَبَلَ الله عليها عباده؛ لتحقيق غايات نبيلة، وأهداف سامية.
- هي شعور الرجل والمرأة بالرغبة في المعاشرة.
- هي اشتياق النفس إلى الشيء.

* * *

---

(١) معجم مقاييس اللغة (٣/ ١٧١).

(٢) لسان العرب (١٤/ ٤٤٥).

لماذا خُلقت الشهوة؟

قال ابن تيمية رحمه الله: «إن الله خلق فينا الشهوات واللذات؛ لنستعين بها على كمال مصالحنا، فخلق فينا شهوة الأكل واللذة به، فإن ذلك في نفسه نعمة، وبه يحصل بقاء جسومنا في الدنيا، وكذلك شهوة النكاح واللذةُ به هو في نفسه نعمة، وبه يحصل بقاءُ النسل، فإذا استُعين بهذه القوى على ما أمرنا كان ذلك سعادةً لنا في الدنيا والآخرة، وكنا من الذين أنعم الله عليهم نعمةً مطلقة.

وإن استعملنا الشهوات فيما حظره علينا بأكل الخبائث في نفسها، أو كسبها كالمظالم، أو بالإسراف فيها، أو تعدينا أزواجنا، أو ما ملكت أيماننا، كنا ظالمين معتدين غير شاكرين لنعمته»[1].

فالشهوة -إذن- ليست مذمومة في حد ذاتها، ولكنها بحسب ما تستعمل فيه؛ فإن استعملت فيما ينفع وما أبيح؛ فهي خيرٌ لصاحبها، وإلا، فهي شرٌّ عليه.

وفي هذا حكمة عظيمة، فبدونها لن تتحرك النفسُ لكسب الولد، ولن يتحقق كثير من مقاصد الشرع، فاقتضت حكمة اللطيف الخبير أن جعل فينا بواعث ومستحثات تثيرها لما فيه قوامنا وبقاؤنا ومصلحتنا، وإلا، لكان في استدعاء الشهوة -قسراً- كلفة عظيمة، قد تكون سبباً في الهلاك والشقاء.

ومن سنن الله في خلقه ابتلاؤهم بما شاء لحكم وغايات نبيلة، ومن ذلك ابتلاؤهم بالشهوة؛ ليميز الله المطيع من العاصي، والخبيث من الطيب.

---

(١) الاستقامة (١/ ٣٤١-٣٤٢).

قال مالك بن دينار رحمه الله: «من غلبَ شهوة الحياة الدنيا، فذلك الذي يَفرَقُ الشيطان من ظله»[(١)].

وقال عليُّ بنُ عَبدِ العزيزِ بنِ حاجِبِ النُّعمانِ:

رُبَّ مَستُورٍ سَبَتهُ صَبوَةٌ فتعرَّى سِترَهُ فانتهكا
صاحِبُ الشَّهوَةِ عَبدٌ فإذا غَلَبَ الشَّهوَةَ صارَ الملِكا[(٢)]

وشهوة النساء من أعظم شهوات الدنيا، ولذا قدّمه الله تعالى على غيرها من الشهوات؛ لعِظم فتنتها، وقوة تأثيرها على الفرد والمجتمع، قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾ [آل عمران: ١٤].

وعن أسامة بن زيد رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «ما تَرَكتُ بَعدِي فِتنَةً أَضَرَّ عَلَى الرِّجالِ مِنَ النِّساءِ»[(٣)].

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «اتَّقُوا الدُّنيا، واتَّقُوا النِّساءَ؛ فَإِنَّ أَوَّلَ فِتنَةِ بَنِي إِسرائِيلَ كانَت فِي النِّساءِ»[(٤)].

* * *

(١) حلية الأولياء (٢/ ٣٦٥)، ذم الهوى (٢٢).
(٢) روضة المحبين (ص٤٨٤)، ذم الهوى (ص٣٤).
(٣) رواه البخاري (٥٠٩٦) ومسلم (٢٧٤٠).
(٤) رواه مسلم (٢٧٤٢).

أسباب الوقوع في الشهوة المحرمة

أولاً: ضعف الإيمان:

الإيمان سلاح المؤمن، وهو الحصن الحصين الذي يقي من الوقوع في مهاوي الرذيلة، وحينما يبتعد الإنسان عن الطاعات يضعف إيمانه، ويتجرأ على الوقوع في المعصية، ولذلك قال بعضهم: «ثلاثة من أعلام التقوى: ترك الشهوة المذمومة مع الاستمكان منها، والوفاء بالصالحات مع نفور النفس منها، وردّ الأمانات إلى أهلها مع الحاجة إليها»[1].

فهذه الأشياء الثلاثة فعلها يدل على أن في قلب فاعلها إيماناً وديناً عظيماً؛ لأنه يجد الحرام أمامه لكنه يتركه لله، ويُرغم نفسه على العبادة والطاعة مع نفور النفس منها، ويردّ الأمانات إلى أهلها مع الحاجة إليها.

ثانياً: الرفقة السيئة:

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «الرَّجُلُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ، فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلُ»[2].

كثير من المعاصي التي يقع فيها الإنسان يكون الدافع لها هو صديق السوء.

يقول شاب عمره سبعة عشر عاماً عن بداية وقوعه في المعصية: «أول مرة شاهدت فيها فيلماً محرماً كان عند زيارتي لأحد أصدقائي، وعندما كنا في غرفته، أخرج فيلماً وقام بتشغيله، فشاهدته معه، وكانت هذه البداية».

---

(١) حلية الأولياء (٩/ ٣٩٣).

(٢) رواه أبو داود (٤٨٣٣) والترمذي (٢٣٧٨)، وحسنه الألباني.

فالله تعالى حرم البذاءة ومنع من الفحش فقال: ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا﴾ [النساء: ١٤٨].

وقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَيسَ المؤمِنُ بِالطَّعَّانِ، وَلا اللَّعَّانِ، وَلا الفَاحِشِ، وَلا البَذِيءِ»(١).

ثالثاً: إطلاق النظر:

النظر سهم مسموم من سهام إبليس، وقد حذر الله عباده المؤمنين منه، فقال: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [النور: ٣٠].

رابعاً: الفراغ القاتل:

إن فراغ الشباب يقودهم إلى التفكير في الحرام، ويطلق عنان خيالهم للتخطيط له، حتى يصبح هماً من همومهم، ويبدءون بممارسة العادة السيئة ونحوها من المهلكات.

والنفس إن لم تُشغَل بالطاعة شُغِلَت بالمعصية.

وقد بيّن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذلك؛ فعن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «نِعمَتَانِ مَغبُونٌ فِيهِمَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ: الصِّحَّةُ، والفَرَاغُ»(٢).

فالفراغ مصيبة عظيمة، ومفسدة للنفس، إن لم يُستغل بالمفيد والنافع.

خامساً: التساهل في الحرام

التساهل في النظر إلى النساء ومخالطتهن كثيراً ما يؤدي إلى وقوع المرء في الفاحشة، مع أنه لم يكن يقصدها في البداية، ولكن التساهل في الحرام الأقل حرمة يؤدي إلى الحرام الأكثر حرمة.

---

(١) رواه الترمذي (١٩٧٧)، وصححه الألباني.

(٢) رواه البخاري (٦٤١٢).

فكم من أهل بيت تساهلوا في ترك الخادمة مع الشاب حتى عضوا أصابع الندم بعد ذلك!

وكم من فتاة تركها أهلها منفردة مع السائق حتى أدى الأمر إلى ما لا تحمد عقباه!.

ونحو ذلك من التساهلات التي تجر إلى كثير من البلايا والموبقات.

سادساً: القرب من مُثيرات الشهوة:

إن من أسباب الوقوع في الحرام: القرب من مثيرات الشهوة، ولأجل ذلك فإن الشارع حذر من الجلوس في الطرقات؛ لأنها مظنة أن يرى الإنسان فيها ما يثير شهوته.

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: **«إيَّاكُم والجُلُوسَ في الطُّرُقاتِ»**، فقالوا يا رسول الله: ما لنا بُدٌّ من مجالسنا، نتحدث فيها، قال: **«فإذا أبَيْتُم إلَّا المَجلِسَ فأعطُوا الطَّرِيقَ حَقَّهُ»**، قالوا: وما حقه؟ قال: **«غَضُّ البَصَرِ، وكَفُّ الأذَى، ورَدُّ السَّلامِ، والأمْرُ بالمَعْرُوفِ، والنهيُ عَنِ المُنكَرِ»**[1].

وحتى في أماكن العبادة والذكر، فإن الشارع جعل صفوف النساء منفصلة عن صفوف الرجال، وأمر بتخصيص باب للنساء، وكان يتأخر صلى الله عليه وسلم عن الانفتال للناس حتى ينصرف النساء؛ كل هذا ابتعاداً عن مثيرات الشهوة.

ومن المثيرات أيضاً: الموسيقى والأغاني، والأماكن المختلطة كالمطاعم والملاهي، والقنوات الفضائية الهابطة، ومواقع الشبكة العنكبوتية التي تنشر الرذيلة، والمجلات التي تحتوي على الصور الماجنة.

* * *

(١) رواه البخاري (٢٤٦٥)، ومسلم (٢١٢١)، واللفظ لمسلم.

كيف تتعامل مع الشهوة؟

إذا عُرضت الشهوة للمسلم، وتزين له الحرام بأنواع الزينة، وسهلت عليه الأمور، وتهيأت له الظروف: فكيف يتعامل مع هذه الحالة؟!

هناك ثلاث قواعد تعين المسلم على تجاوز هذه المحنة، وتساعده على التخلص من هذا المأزق، وهي:

القاعدة الأولى: قل معاذ الله:

الإيمان بالله والخوف منه صمام الأمان، وهو العاصم للعبد من مواقعة الحرام، والانسياق وراء الشهوات.

(معاذ الله) قالها يوسف عليه السلام فأعاذه الله، وصرف عنه كيد النسوة، ويقولها بعض من يستظل بظل العرش يوم لا ظل إلا ظل عرش الرحمن، فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «سَبعةٌ يُظِلُّهُمُ اللهُ في ظِلِّهِ» وذكر منهم: «وَرَجُلٌ طَلَبَتْهُ امرَأَةٌ ذاتُ مَنصِبٍ وَجَمالٍ فَقالَ: إِنِّي أَخافُ اللهَ»[1].

قال ابن حجر رحمه الله: «والظاهر أنه يقول ذلك بلسانه؛ ليزجرها عن الفاحشة، ويحتمل أن يقولها بقلبه»[2]، ومواطأة القلب اللسان في هذه الحال شيء عظيم، وأثره كبير، ولا تصدر مثل هذه الكلمة: (معاذ الله)، (إني أخاف الله) في مثل ذلك الموطن، إلا من عبد راقب الله، وجعل سره وعلانيته سواء، فخاف الله في السر، كما يخافه في العلن.

---

(١) رواه البخاري (٦٦٠)، ومسلم (١٠٣١).

(٢) فتح الباري (٢/ ١٤٥-١٤٦).

والمؤمن إذا تربى على مراقبة الله، ومطالعة آثار أسمائه في الواقع؛ فإنه سيثبت أمام الشهوات، وسينجو من مزالقها، ومن ثمَّ يفوز بالجنة التي أزلفت لمن خشي الرحمن بالغيب ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ۝٣١ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ۝٣٢ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾ [ق: ٣١-٣٣]. أي: يخشى الرحمن إذا غاب عن أعين الناظرين.

وَإِذا خَلَوتَ بِرِيبَةٍ في ظُلمَةٍ ... والنَّفسُ داعِيَةٌ إلى الطُّغيانِ
فاستَحِ مِن نَظَرِ الإِلَهِ وَقُل لَها ... إِنَّ الَّذِي خَلَقَ الظَّلامَ يَراني[1]

وقال الشافعي رحمه الله:

إِذا ما خَلَوتَ الدَّهرَ يَوماً فَلا تَقُل ... خَلَوتُ وَلَكِن قُل عَلَيَّ رَقيبُ
وَلا تَحسَبَنَّ الله يَغفَلُ ساعَةً ... وَلا أَنَّ ما تُخفي عَلَيهِ يَغيبُ[2]

المؤمن إذا تربى على مثل هذه المعاني وعمل بمقتضاها فإنه يصبح ذا خلق سوي، وينشأ تقياً لا تستهويه مادة، ولا تستعبده شهوة، ولا يتسلط عليه شيطان، ولا تعمل النفس الأمارة بالسوء عملها في نفسه، بل إنه يصبح إذا دعته الشهوة المحرمة قائلاً: إني أخاف الله، معاذ الله، وإذا وسوس إليه الشيطان قال له: ليس لك عليّ سلطان.

وإذا زين له قرناء السوء طريق الفاحشة والمنكر أسكتهم بقوله: لا أبتغي الجاهلين.

العبد الذي يتربى على هذا حقيق بأن تؤثر فيه كلمة (اتق الله) إن قارب الحرام يوماً.

وتأمل في حال ذلك الرجل، وهو أحد الثلاثة الذين نجاهم الله من العار عندما انطبقت عليهم الصخرة؛ بسبب أعمال صالحة كانت لهم، يقول: «اللَّهُمَّ كانَت لي بِنتُ عَمٍّ، كانَت أَحَبَّ النّاسِ إِلَيَّ، فَأَرَدتُها عَن نَفسِها، فامتَنَعَت مِنّي، حَتّى أَلَمَّت بِها سَنَةٌ مِنَ السِّنينَ، فَجاءَتني، فَأَعطَيتُها عِشرينَ وَمِئَةَ دينارٍ، عَلى أَن تُخَلّيَ بَيني وَبَينَ نَفسِها، فَفَعَلَت، حَتّى إذا قَدَرتُ عَلَيها قالَت: لا أُحِلُّ لَكَ أَن تَفُضَّ الخاتَمَ إلّا بِحَقِّهِ، -وفي رواية: اتَّقِ الله وَلا تَفُضَّ الخاتَمَ إلّا بِحَقِّهِ- فَتَحَرَّجتُ مِنَ الوُقوعِ عَلَيها، فانصَرَفتُ عَنها وَهِيَ أَحَبُّ النّاسِ

---

(١) صيد الأفكار (٢/ ٩٣).

(٢) شعب الإيمان (٧٢٩٢).

إِلَيَّ، وَتَرَكْتُ الذَّهَبَ الَّذِي أَعْطَيْتُهَا، اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ فَافْرُجْ عَنَّا مَا نَحْنُ فِيهِ. فَانْفَرَجَتِ الصَّخْرَةُ»[1].

فتأمل حال هذا العبد كيف قارب الحرام هذه المقاربة، وقعد من حبيبته مقعد الرجل من امرأته، وقدر عليها، فزال عن ذلك الموقع بكلمة (اتق الله)، وقام عنها وهي أحب الناس إليه!

إنه الإيمان الصادق بالله تعالى، الذي يثمر لصاحبه خشية الله ومراقبته في الغيب والشهادة.

القاعدة الثانية: احذر خائنة الأعين:

قال الله تعالى: ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ﴾ [غافر: ١٩]، قال ابن عباس رضي الله عنهما في معنى خائنة الأعين: «هو الرجل يدخل على أهل البيت بيتهم، وفيهم المرأة الحسناء، أو تمر به وبهم المرأة الحسناء، فإذا غفلوا لحظ إليها، فإذا فطنوا غض بصره عنها، فإذا غفلوا لحظ، فإذا فطنوا غض»[2].

وقال سفيان رحمه الله: «الرجل يكون في المجلس يسترق النظر إلى المرأة تمر بهم، فإن رأوه ينظر إليها اتقاهم فلم ينظر، وإن غفلوا نظر، هذه خائنة الأعين، ﴿وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ﴾ ما يجد في نفسه من الشهوة»[3].

وليعلم العبد أنه موقوف بين يدي الله، وسيسأله عن عمله.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٦] فهو مسئول عن هذه النظرة، والتي هي سهم مسموم من سهام إبليس، وهي رائد الشهوة.

ولذلك كان الربط بين أول خطوات الحرام وآخرها في قوله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [النور: ٣٠].

---

(١) رواه البخاري (٢٢٧٢).

(٢) تفسير ابن كثير (٧/ ١٣٧).

(٣) حلية الأولياء (٧/ ٧٨).

فأمر الله المؤمنين أن يغضوا من أبصارهم عما حرم عليهم، ولا ينظروا إلا لما أباح لهم، فإذا اتفق أن وقع البصر على محرم من غير قصد؛ فليصرف بصره عنه سريعاً.

لماذا قدم غض البصر على حفظ الفرج؟

السر في تقديم غض البصر على حفظ الفرج. (لأن النظر بريد الزنا، ورائد الفجور)[1].

يقول ابن القيم رحمه الله: «والنَّظَرُ أَصلُ عامَّةِ الحَوادِثِ الَّتي تُصيبُ الإِنسانَ، فالنَّظرَةُ تُوَلِّدُ خَطـرَةً، ثُـمَّ تُوَلِّدُ الخَطـرَةُ فِكرَةً، ثُمَّ تُوَلِّدُ الفِكرَةُ شَـهوَةً، ثُـمَّ تُوَلِّدُ الشَّـهوَةُ إرادَةً، ثُمَّ تَقوَى فَتَصِيرُ عَزِيمَـةً جازِمَـةً، فَيَقَعُ الفِعلُ وَلا بُدَّ، مـا لَم يَمنَع مِنهُ مانِعٌ، وَفي هَـذا قيلَ: الصَّبرُ عَلَى غَضِّ البَصَرِ أَيسَرُ مِنَ الصَّبرِ عَلَى أَلَمِ ما بَعدَهُ.

قالَ الشّاعِرُ:

كُلُّ الحَوادِثِ مَبداها مِنَ النَّظَرِ ... وَمُعظَمُ النّارِ مِن مُستَصغَرِ الشَّرَرِ

كَم نَظرَةٌ بَلَغَت في قَلبِ صاحِبِها ... كَمَبلَغِ السَّهمِ بَينَ القَوسِ والوَتَرِ

والعَبدُ ما دامَ ذا طَرفٍ يُقَلِّبُهُ ... في أَعيُنِ الغِيدِ مَوقُوفٌ عَلَى الخَطَرِ

يَسُرُّ مُقلَتَهُ ما ضَرَّ مُهجَتَهُ ... لا مَرحَباً بِسُرُورٍ عادَ بِالضَّرَرِ

وَمِن آفاتِ النَّظَرِ: أَنَّهُ يُورِثُ الحَسَراتِ والزَّفَراتِ والحَرَقاتِ، فَيَرَى العَبدُ ما لَيسَ قادِراً عَلَيهِ وَلا صابِراً عَنهُ»[2].

فهؤلاء الذين يذهبون إلى الأسواق ويرون النساء وهنّ متبرجات؛ تتقطع قلوبهم حسرة وألماً وكمداً.

وقد يقول قائل: إنّ أكثر هذه النظرات لا تنتهي بالزنا، ولا يذهب معها للحرام.

ولكنا نقول: إن هذه النظرات تنتهي بحسرة وألم؛ لأنه يرى أمامه فتناً لا يمكنه الوصول إليها، فيبقى متحسراً متألماً، وربما حاول ففشل، فيبقى متحيراً متأوهاً.

---

(١) روح المعاني للألوسي (١٨/ ١٣٩)، تفسير النسفي (٣/ ١٤٣).

(٢) الجواب الكافي (ص١٠٦).

ثـم قـال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ «وَهَذا مِن أَعظَمِ العَـذابِ، أن ترى ما لا صبر لك عن بعضه وَلا قُدرَةَ على بعضه.

قال الشاعرُ:

وكنتَ متى أرسَلتَ طَرفَكَ رائِداً لِقَلبِكَ يوماً أَتعَبَتكَ المناظِرُ
رَأَيتَ الَّذي لا كُلُّهُ أَنتَ قادِرٌ عَلَيهِ وَلا عَن بَعضِهِ أَنتَ صابِرُ

وهذا البيتُ يحتاجُ إلى شرحٍ، ومُرادُهُ: أنكَ ترى ما لا تصبِرُ عن شيءٍ مِنهُ ولا تَقدِرُ عليه، فإنَّ قولَه: «لا كُلُّهُ أَنتَ قادرٌ عليه «نَفيٌ لقُدرتِه على الكُلِّ الَّذي لا ينتَفي إلّا بنفي القُدرَةِ عن كُلِّ واحدٍ واحدٍ.

وكم مَن أرسل لحظاتِهِ فَما قَلَعَت إلّا وهو يَتَشَحَّطُ بينَهُنَّ قتيلاً، كما قيل:

يا ناظِراً ما أَقلَعَت لَحَظاتُهُ حَتّى تَشَحَّطَ بَينَهُنَّ قَتِيلا

وَلي مِن أبياتٍ:

مَلَّ السَّلامَةَ فاغتَدَت لَحَظاتُهُ وَقفاً عَلى طَلَلٍ يَظُنُّ جَمِيلاً
ما زالَ يُتبِعُ إِثـرَهُ لَحَظاتِهِ حَتّى تَشَحَّطَ بَينَهُنَّ قَتِيلاً

وَأَعجَبُ مِن ذلكَ: أنَّ النَّظرَةَ تَجرَحُ القَلبَ جُرحاً، فيَتبَعُها جُرحٌ عَلَى جُرحٍ، ثم لا يَمنَعُهُ أَلَمُ الجِراحَةِ مِن استِدعاءِ تكرارِها، ولي أيضاً في هذا المعنى:

ما زِلـتَ تُتبِعُ نَـظـرَةً في نَظرَةٍ في إِثـرِ كُـلِّ مَلِيحَةٍ وَمَلِيحِ
وَتَظُنُّ ذاكَ دَواءَ جُرحِكَ وَهُوَ في ال تَّحقِيـقِ تَجرِيـحٌ عَـلَى تَجرِيـحِ
فَذَبَحتَ طَرفَكَ بِاللِّحاظِ وَبِالبُكا فالقَلبُ مِنكَ ذَبِيحٌ أيُّ ذَبِيحِ

وقَد قِيلَ: إنَّ حَبسَ اللَّحَظاتِ أيسَرُ مِن دَوامِ الحَسَراتِ»[1].

إنّ حـال مـن ينظر للحرام كحال الذي يشرب من مـاء البحر، أتراه يرتوي؟ كلا، بل لا يزداد بالشـرب إلا عطشاً، ولا تزيد بالنظر شهوته إلا تهيجاً.

(١) الجواب الكافي (ص١٠٦-١٠٧).

وتأمل في هذا الحديث الذي ربط بين خيانة العين والوقوع في الفواحش عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «إِنَّ اللهَ كَتَبَ عَلَى ابنِ آدَمَ حَظَّهُ مِنَ الزِّنا، أَدرَكَ ذَلِكَ لا مَحالَةَ، فَزِنا العَينِ النَّظَرُ، وَزِنا اللِّسانُ المَنطِقُ، والنَّفسُ تَمَنَّى وَتَشتَهِي، والفَرجُ يُصَدِّقُ ذَلِكَ كُلَّهُ يُكَذِّبُهُ»[1].

وتأمل مدى قبح هذه النظرة الحرام حتى وصفت بالزنا، فلا شك أن نفس المؤمن تنفر من ذلك.

يقول ابن الجوزي رَحِمَهُ اللهُ: «فاحذَر يا أخي -وَفَّقَكَ اللهُ- مِن شَرِّ النَّظَرِ، فكَم قد أهلَكَ مِن عابِدٍ! وفَسَخَ عَزمَ زاهِدٍ!...وَتَلَمَّح مَعنَى قَولِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «النَّظَرُ سَهمٌ مَسمُومٌ»؛ لأَنَّ السَّهمَ يَسرِي إلى القَلبِ، فَيَعمَلُ في الباطِنِ قَبلَ أن يُرَى عَمَلُهُ في الظَّاهِرِ، فاحذَر مِنَ النَّظَرِ، فَإِنَّهُ سَبَبُ الآفاتِ، إلا أنَّ عِلاجَهُ في بِدايَتِه قَرِيبٌ، فإذا كُرِّرَ: تَمَكَّنَ الشَّرُّ، فَصَعُبَ عِلاجُهُ»[2].

إن النظرة كأس مسكر، وسكره العشق، وسكر العشق أعظم من سكر الخمر؛ لأن سكران الخمر يفيق، وسكران العشق أنى يُفيق.

والنظر والشهوة يقودان إلى العشق، وهذا مرض آخر خطير جداً من مفسدات القلوب، فاحذر هذا السهم لأنه إن لم يقتلك جرحك، وإذا تكاثرت الجروح تحقق الهلاك.

نظر الفجأة

عن جرير بن عبد الله رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: «سألت رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن نظر الفُجاءة؟ فأمرني أن أصرف بصري»[3].

والفجاءة: أن يقع بصره على الأجنبية بغتة من غير قصد[4].

---

(١) رواه البخاري (٦٢٤٣) ومسلم (٢٦٥٧).

(٢) ذم الهوى (ص٩٤)، وحديث: (النَّظرةُ سهمٌ مِن سهام إبليس مَسمُوم) حديث ضعيف، رواه الحاكم (٧٨٧٥) وغيره.

(٣) رواه مسلم (٢١٥٩).

(٤) تحفة الأحوذي (٨/٤٩).

وحكم هذا النظر: أنه لا إثم عليه في أول الأمر، ولكن يجب أن يصرف بصره في الحال، وإلا ركبه الإثم حال إدامته النظر[1]، عن ابن بريدة عن أبيه رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ لعلي رضي الله عنه: **«يا عَلِيُّ، لا تُتبِعِ النَّظرَةَ النَّظرَةَ؛ فَإِنَّ لَكَ الأُولَى وَلَيسَت لَكَ الآخِرَةُ»**[2].

أي: لا تعقبها إياها، ولا تجعلها أخرى بعد الأولى، فإن لك النظرة الأولى إذا كانت من غير قصد، وليست لك الأخرى لأنها تمت باختيارك.

وبهذا يظهر لك فساد قول بعض الهازلين الذين يقولون بجواز استدامة النظرة الأولى، ما لم تغمض العين!

يقول الله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ۗ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ﴾ [الأنعام: ٤٦] فالبصر نعمة من الرب، ينبغي على العبد أن يخشى عليه أن يُذهبه الله بسبب معاصيه.

ولغض البصر عن الحرام فوائد كثيرة، منها:

١. امتثال أوامر الرب، وفي ذلك سعادة وأجر.

٢. سلامة القلب من أثر السهم المسموم.

٣. يورث القلب أنساً بالله واجتماعاً عليه، ولا يجد ذلك من أطلقه في الحرام؛ لأن قلبه يتشتت، فلا يمكن أن يجتمع على الله ومحبته.

٤. يقوي القلب ويفرحه، كما أن إطلاق النظر يضعفه ويحزنه.

٥. يُكسب القلب نوراً، كما أن إطلاق النظر يكسبه ظلمةً.

٦. يورث العبد بصيرة وفراسة صادقة يميز بها بين الحق والباطل، والصدق والكذب، وهذا يفيده في سائر تعاملاته مع الناس، ويعينه على اتخاذ القرارات السديدة، والمواقف الرائدة.

---

(١) تحفة الأحوذي (٨/٤٩).

(٢) رواه أبو داود (٢١٤٩) والترمذي (٢٧٧٧) وحسنه الألباني.

٧. يورث القلب شجاعة وثباتاً، فيجمع الله له بين سلطان البصيرة والحجة، وسلطان القدرة والقوة.

٨. يسدّ على الشيطان مدخلاً؛ لأن النظر بوابة القلب الكبرى.

٩. يُفرّغ القلب للفكرة الصالحة والاشتغال بها؛ لأن الواحد إذا صار قلبه مشغولاً بصور النساء والمردان والعشق فكيف يتدبر في آية؟ وكيف يفهم استنباطاً من حديث؟ وكيف يفقه قولاً من أقوال الفقهاء؟ وكيف يتفكر في السماوات والأرض؟

١٠. صلاح القلب؛ لأن العين والقلب بينهما منفذ وطريق متصل يوجب انفعال أحدهما بالآخر، وتأثر هذا بهذا، فيصلح بصلاحه ويفسد بفساده، فإذا صلحت خطورات العبد صلح قلبه، وإن فسدت فسد قلبه؛ لذلك قال ﷺ: «**اضْمَنُوا لِي سِتّاً مِن أَنفُسِكُم أَضمَنْ لَكُمُ الجَنَّةَ: اصدُقُوا إِذَا حَدَّثْتُم، وَأَوفُوا إِذَا وَعَدتُم، وَأَدُّوا إِذَا اؤتُمِنتُم، واحفَظُوا فُرُوجَكُم، وَغُضُّوا أَبصارَكُم، وَكُفُّوا أَيدِيَكُم**»[1].

القاعدة الثالثة: دافع الخاطرة:

إن الخواطر السيئة تمرض القلب، ومتى انساق العبد معها ولم يدافعها تطورت فإذا هي فكرة، فهمٌّ، فإرادة، فعزيمة، فإقدام، ففعل وارتكاب للحرام... فحذارِ من الاسترسال مع الخطرات.

الخطرات شأنها صعب، فمبدأ الخير والشر خاطرة، فإذا دافعت الخاطرة من أول الطريق ملكت زمام نفسك وقهرت هواك، وإذا غلبتك خواطر الحرام فإنك ستنزلق في الهاوية.

ولا تزال الخواطر تتردد على القلب حتى يُشرِبَها، فإذا تشربها صارت مُنَى باطلة ﴿كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ﴾ [النور: ٣٩].

وأردأ الناس هِمّةً من رضي بالأماني الكاذبة وتحلى بها؛ لأنها رؤوس أموال المفاليس،

(١) رواه الإمام أحمد (٢٢٢٥١)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (١٠١٨).

وهي رأس مال البطالين، وأضر شيء على الإنسان لأنها تُنبت العجز والكسل والتفريط.

ومتى ما استرسل العبد مع الخواطر وقع في الحرام، وليس هناك علاج بعد ذلك إلا استفراغ الخبث من النفس بالتوبة النصوح.

ولو تأمل العبد بين لذة الذنب ولذة العفة، وبين لذة الذنب ولذة القوة وقهر العدو، وبين لذة الذنب ولذة إرغام الشيطان ورده خاسئاً؛ لاختار ما يكون سبباً لصلاح ظاهره وباطنه.

واعلم أن النفس لها خواطر رحمانية من الرحمن، وخواطر شيطانية من الشيطان، وخواطر نفسانية من النفس.

والنفس أمّارة بالسوء، ليس من شيء عملي إلا ويسبقه شيء نظري، فلا تصدق أن شيئاً عملياً حصل في الواقع فجأة دون مقدمات نظرية في النفس وفي العقل وفي الذهن وفي القلب، لابد أن يكون هناك تصورات مسبقة.

وكلما كان الإصلاح في مرحلة مبكرة كانت القضية أهون وأسهل، وكلما بادر الإنسان كان الإصلاح أسرع.

والإنسان لا يمكن أن يميت خواطره؛ لأن الخواطر تهجم هجوماً على الإنسان، ولا يمكنه أن يتحكم فيها.

وقد كان الشيطان يوقع في نفوس بعض الصحابة أشياء سيئة جداً عن الله تعالى، فردّ الله كيده؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: جاء ناس من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فسألوه: إنا نجد في أنفسنا ما يتعاظم أحدنا أن يتكلم به، قال: «**وَقَدْ وَجَدْتُمُوهُ؟**»، قالوا: نعم، قال: «**ذَاكَ صَرِيحُ الإِيمَانِ**»[1].

وعَنِ ابنِ عَبَّاسٍ، قالَ: جاءَ رَجُلٌ إلى النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم، فقالَ: يا رَسُولَ اللهِ، إِنَّ أَحَدَنا يَجِدُ في نفسِهِ، يُعَرِّضُ بِالشَّيْءِ، لأَنْ يَكُونَ حُمَمَةً أَحَبُّ إِلَيهِ مِن أن يَتَكَلَّمَ بِهِ، فقالَ: «**اللهُ أَكْبَرُ، اللهُ أَكْبَرُ، اللهُ أَكْبَرُ، الحَمْدُ للهِ الَّذِي رَدَّ كَيْدَهُ إِلى الوَسْوَسَةِ**»[2].

(١) رواه مسلم (١٣٢).

(٢) رواه أبو داود (٥١١٢)، وصححه الألباني.

أي الحمد لله أن الشيطان لم يستطع أن يأخذ منكم وينال إلا هذه الخاطرة والوسوسة التي أنتم تكرهونها، فكراهيتكم لها تدل على إيمانكم الصريح.

وهذه الخواطر لابد أن تعالَج، فكيف يفعل المسلم إذا هجمت عليه؟

١. يتعوذ بالله من الشيطان الرجيم

٢. يحاول أن يستبدل الخواطر الشيطانية بخواطر إيمانية؛ لأن النفس مثل الرحى لابدَّ لها من شيء تطحنه، فمَن جعل في رحاه حبًّا خرج الطَّحن دقيقًا، ومن جعل في رحاه رملًا وتبنًا خرج الناتج كذلك.

ومن الخواطر الطيبة التي تفيد في طرد الخواطر الشيطانية:

- التفكر في عظمة الله عزَّوجلَّ، وفي خلق السماوات والأرض
- العلم الشرعي، وهو من أعظم ما يشغل الإنسان به نفسه
- التفكر في الآخرة وأهوالها، كالموت، والقبر، والحوض، والشفاعة، والميزان، والصراط، والجنة، والنار.
- التفكر في الكسب الحلال، كالتجارة، والوظيفة، واستثمار أوقات الفراغ في شيء يعود عليه بالنفع الدنيوي الحلال.

قال ابن القيم رحمه الله: «وجماع إصلاح ذلك: أن تشغل فكرك في باب العلوم والتصورات بمعرفة ما يلزمك من التوحيد وحقوقه، وفي الموت وما بعده، إلى الدخول إلى الجنة أو النار، وفي آفات الأعمال وطرق التحرز منها، وفي باب الإرادات والعزوم أن تشغل نفسك بإرادة ما ينفعك إرادته، وطرح إرادة ما يضرك إرادته، وعند العارفين: أن تمني الخيانة وإشغال الفكر والقلب بها أضر على القلب من نفس الخيانة»[1]

فما دامت القضية تبدأ بالخواطر، والخاطرة تتحول إلى إرادة فعزيمة فهمٍّ، فلابد من إشغال النفس في كل مرحلة من هذه المراحل، وليس فقط في مرحلة الخواطر، فعلينا معالجة الخواطر وما بعدها.

(١) الفوائد (ص١٧٦)

قال ابن القيم رحمه الله: «دافع الخطرة، فإن لم تفعل صارت فكرة، فدافع الفكرة، فإن لم تفعل صارت شهوة، فحاربها، فإن لم تفعل صارت عزيمة وهمة، فإن لم تدافعها صارت فعلاً، فإن لم تتداركه بضده صار عادة، فيصعب عليك الانتقال عنها»(١).

ومن المعلوم أن إصلاح الخواطر أسهل من إصلاح الأفكار، وإصلاح الأفكار أسهل من إصلاح الإرادات، وإصلاح الإرادات أسهل من تدارك فساد العمل، وتداركه أسهل من قطع العوائد.

فإن قلت: ما الذي يُعينني على طرد هذه الوساوس وعدم الاسترسال معها؟

نقول: يعين على ذلك أمور، يترتب بعضها على بعض:

- الإيمان والعلم الجازم أن الرب مطلع على ما في الخواطر ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ [غافر: ١٩] ﴿يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [طه: ٧].

فإذا استحى العبد من أن ينظر ربه إلى ما في نفسه فيرى هذه الخواطر المشينة حاول العبد أن يبتعد عنها، وهذه قضية جديرة بالاهتمام.

- التأمل: إذا هجمت على قلبك الوساوس السيئة والأفكار المشينة؛ فتأمل في عظمة الخالق سبحانه، واستحضر أسماءه وصفاته وأنه عظيم، جبار، قهار، شديد العقاب، كبير، متعال.
- الاستحياء: إذ علمت قدرة الله واطلاعه على ما في الخواطر فستحِ منه، وحاول الابتعاد عن هذه الخواطر والأفكار. وتأمل حالك إذا دخل عليك أحد معارفك أو أصدقائك وأنت تفعل فعلاً مشيناً، فماذا تراك صانع؟! فالله أولى أن يُستحى منه.
- إجلال الله سبحانه وتعالى.
- الخوف من أن تسقط تلك الخواطر من نظر الرب سبحانه، وتصبح لا قيمة لك عنده.
- الغيرة على القلب، فتحاول أن لا يسكنه غير محبة الله سبحانه.

(١) الفوائد (ص٣١).

- أن تخشى من تلك الخواطر أن تستعر؛ فتأكل الإيمان الباقي في القلب.
- أن تعلم أن تلك الخواطر بمنزلة الحب للطائر، يُلقيه الشيطان ليصيد به الإنسان، فكل خاطرة منها هي فخّ منصوب.
- أن تعلم أن تلك الخواطر الرديئة لا تجتمع هي وخواطر الإيمان.
- أن تعلم أن الخواطر بحور خيال لا ساحل لها ولا آخر، من دخل فيها غرق.

***

كيف نعالج الشهوة؟

مِن رحمة الله بعباده، أنه لم يخلقهم سدًى، ولم يتركهم هملاً، بل أنزل لهم ديناً قيماً، فيه علاج وإصلاح لكل ما اعوج من شئون حياتهم، ومن ذلك الشهوة المحرمة، فقد جعل الله لها علاجات عدة تسكن ثورانها، وتكبح جماحها، ومنها:

الزواج:

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يا مَعشَرَ الشَّبابِ، مَنِ استَطاعَ مِنكُمُ الباءَةَ فَليَتَزَوَّج؛ فَإِنَّهُ أَغَضُّ لِلبَصَرِ، وَأَحصَنُ لِلفَرجِ»[1].

الباءة: هي القدرة على الجماع ومؤنة النكاح، فإذا استطاع الإنسان النكاح وتاقت نفسه إليه، فعليه به.

إن الزواج من السبل التي يقضي بها الإنسان على شهوات نفسه بالمصرف الحلال الذي شرعه الله له، وهي سنة الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام، قال صلى الله عليه وسلم لمن حرّم على نفسه الحلال: «لَكِنِّي أُصَلِّي وَأَنامُ وَأَصُومُ وَأُفطِرُ وَأَتَزَوَّجُ النِّساءَ، فَمَن رَغِبَ عَن سُنَّتِي فَلَيسَ مِنِّي»[2].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «النِّكاحُ مِن سُنَّتِي، فَمَن لَم يَعمَل بِسُنَّتِي فَلَيسَ مِنِّي، وَتَزَوَّجُوا فَإِنِّي مُكاثِرٌ بِكُمُ الأُمَمَ، وَمَن كانَ ذا طَولٍ فَليَنكِح، وَمَن لَم يَجِد فَعَلَيهِ بِالصِّيامِ؛ فَإِنَّ الصَّومَ لَهُ وِجاءٌ»[3].

(١) رواه البخاري (٥٠٦٦)، ومسلم (١٤٠٠).

(٢) رواه البخاري (٥٠٦٣)، ومسلم (١٤٠١).

(٣) رواه ابن ماجة (١٨٤٦)، وصححه الألباني.

وبالزواج يحفظ الإنسان دينه وإيمانه، وبالزنا يُنزع عنه النور الذي كان يتحلى به

وعَن ابنِ عَبّاسٍ رضي الله عنهما، أَنَّهُ كانَ يقول لعَبِيدِه: «تَزَوَّجُوا، فَإِنَّ العَبدَ إذا زَنَى نُزِعَ مِنهُ نُورُ الإيمانِ، فَرَدَّ اللهُ عَلَيهِ بَعدُ، أَو أَمسَكَهُ»[1].

وعَن طاوُسٍ، قال: «لا يَتِمُّ نُسُكُ الشّابِّ حَتَّى يَتَزَوَّجَ»[2]، أي: لا يكتمل دين الشاب إلا بالزواج، فلا يزال الأعزب في دينه نقص، من جهة احتمال ما يطرأ عليه من الوقوع في هذه المحرمات.

والزواج لمن خاف على نفسه الوقوع في الحرام أوجب من الحج المفروض، والذي هو ركن من أركان الإسلام، فمن لم يستطع الجمع بين الحج والزواج، وخاف على نفسه، فعليه أن يقدم الزواج على الحج

والمرأة الصالحة معينة على شطر الدين:

عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «مَن رَزَقَهُ اللهُ امرَأَةً صالِحَةً فَقَد أَعانَهُ عَلَى شَطرِ دِينِهِ، فَليَتَّقِ اللهَ في الشَّطرِ الثّانِي»[3].

قال المناوي رحمه الله: «لأن أعظم البلاء الفادح في الدين: شهوة البطن، وشهوة الفرج، وبالمرأة الصالحة تحصل العفة عن الزنا وهو الشطر الأول، فيبقى الشطر الثاني وهو شهوة البطن، فأوصاه بالتقوى فيه؛ لتكمل ديانته وتحصل استقامته.... وقيّد المرأة بالصالحة؛ لأن غيرها وإن كانت تعفه عن الزنا؛ لكن ربما تحمله على التورط في المهلك، وكسب الحطام من الحرام»[4].

قال القرطبي رحمه الله: «فعلى الإنسان إذا لم يصبر في هذه الأزمان أن يبحث عن ذات الدين؛ ليسلم له الدين»[5].

---

(١) شعب الإيمان (٥٣٦٨)

(٢) حلية الأولياء (٤/ ٦)

(٣) رواه الحاكم في المستدرك (٢٦٨١)، وصححه، ووافقه الذهبي، وأعله غير واحد، وقالوا: الصحيح أنه من قول طاووس.

(٤) فيض القدير (٦/ ١٧٧)

(٥) تفسير القرطبي (٤/ ٢٩).

أجرٌ في النكاح، ووزر في السفاح:

ومن المصالح الخاصة في النكاح: حصول على الأجر من هذه الشهوة، ففي الحديث: «وَفِي بُضْعِ أَحَدِكُم صَدَقَةٌ»، قالوا: يا رسول الله، أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟!، قال: «أَرَأَيْتُم لَو وَضَعَها فِي الحَرامِ أَكانَ عَلَيهِ فيها وِزرٌ؟ فَكَذَلِكَ إِذا وَضَعَها فِي الحَلالِ كانَ لَهُ أَجرٌ»[1].

قال النووي رحمه الله: «وَفِي هذا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ المُباحاتِ تَصِيرُ طاعاتٍ بِالنِّيّاتِ الصّادِقاتِ، فالجِماعُ يَكُونُ عِبادَةً إِذا نَوى بِهِ قَضاءَ حَقِّ الزَّوجَةِ وَمُعاشَرَتَها بِالمَعرُوفِ الَّذِي أَمَرَ اللهُ تَعالَى بِهِ، أَو طَلَبَ وَلَدٍ صالِحٍ، أَو إِعفافَ نَفسِهِ، أَو إِعفافَ الزَّوجَةِ، وَمَنعَهُما جَمِيعاً مِنَ النَّظَرِ إِلَى حَرامٍ، أَوِ الفِكرِ فِيهِ، أَوِ الهَمِّ بِهِ، أَو غَيرِ ذَلِكَ مِنَ المَقاصِدِ الصّالِحَةِ»[2].

فالزواج من أهم الأمور التي تنقذ الشباب من تفكيرهم في هذه الشهوة؛ لأنه يحمي من الهمّ بالحرام والتفكير فيه.

معونة الله للناكح طالب العفاف:

قد وعد الله على لسان رسوله ﷺ بالمعونة للناكح الذي يريد العفاف؛ لأن الله يريد من العبد أن يهذب غريزته، وأن يوجه شهوته للأمور المباحة التي أحلها، وليس الانفلات في الحرام.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**ثَلاثَةٌ حَقٌّ عَلَى اللهِ عَونُهُم: المُجاهِدُ فِي سَبِيلِ اللهِ، والمكاتَبُ[3] الَّذِي يُرِيدُ الأَداءَ، والنّاكِحُ الَّذِي يُرِيدُ العَفافَ**»[4]. والمقصود بالعفاف: العفة عن الزنا.

وإذا لم تندفع الشهوة بزوجة واحدة، وخاف المسلم على نفسه الوقوع في الحرام؛ وجب عليه أن يتزوج بأخرى؛ طلباً للعفاف.

(١) رواه مسلم (١٠٠٦).

(٢) شرح النووي على مسلم (٧/ ٩٢).

(٣) المُكاتَب: بضم الميم وفتح التاء، اسم مفعول من كاتب، وهو الرقيق الذي تم عقد بينه وبين سيده على أن يدفع له مبلغ من المال نجوماً ليصير حراً. معجم لغة الفقهاء (ص ٤٥٥).

(٤) رواه الترمذي (١٦٥٥)، وحسنه، وحسنه الألباني.

الصوم:

إن الصيام يحفظ الشباب ويحميهم من الوقوع في فاحشة الزنا، ولذلك أرشدهم النبي ﷺ هذا العلاج.

فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: كنا مع النبي ﷺ فقال: «مَنِ اسْتَطَاعَ الْبَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ؛ فَإِنَّهُ أَغَضُّ لِلْبَصَرِ، وَأَحْصَنُ لِلْفَرْجِ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ؛ فَإِنَّهُ لَهُ وِجَاءٌ»[1].

قال ابن القيم رحمه الله: «فأرشدهم إلى الدواء الشافي الذي وُضِع هذا الأمر -وهو الزواج-، ثم نقلهم عنه عند العجز إلى البدل، وهو الصوم؛ فإنه يكسر شهوة النفس، ويضيق عليها مجاري الشهوة، فإن هذه الشهوة تقوى بكثرة الغذاء وكيفيته، فكمية الغذاء وكيفيته يزيدان في توليدها، والصوم يضيق عليها ذلك، فيصير بمنزلة وجاء الفحل، وقلّ من أدمن الصوم إلا وماتت شهوته، أو ضعفت»[2].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: يقول الله عز وجل: «... وَالصَّوْمُ جُنَّةٌ»[3].

جُنَّة: أي وقاية وستر، فالصيام يقي النفس من انبعاث الشهوة وثورانها، ووقوعها في المحرمات؛ لأن الأكل يقوي الشهوة. قال القرطبي رحمه الله: «كلما قلّ الأكل؛ ضعفت الشهوة، وكلما ضعفت الشهوة؛ قلت المعاصي»[4].

استهلاك طاقة الجسم فيما ينفع:

على الشباب أن يستغلوا طاقات أجسامهم، ويستهلكوا أوقاتهم، في الأعمال الصالحة المتنوعة، وخاصة الأعمال الاجتماعية والدعوية التي يكون فيها خُلطة مع الآخرين؛ كالدعوة إلى الله، وإعانة المحتاجين، والمشي في حوائج المسلمين، وتنظيم المشروعات الخيرية، وغير ذلك مما فيه مجهود وعمل دؤوب.

---

(١) رواه البخاري (١٩٠٥) ومسلم (١٤٠٠).

(٢) روضة المحبين (ص٢١٩).

(٣) رواه البخاري (٧٤٩٢).

(٤) تفسير القرطبي (٢/ ٢٧٥).

منع إثارتها بأسباب الفتن:

إن العصر الذي نعيش فيه اليوم هو عصر شهوات، وتبرج، وسفور، وانحلال، وتصوير، وتجميل الصور، ومكياج، وزينة، ودور أزياء، وملابس معرية: شفافة وقصيرة وضيقة، و لإنسان يرى في هذا العصر ما لم يره أجداده في العصور السابقة.

لقد وجدت في هذا العصر الدراسات النفسية في تصميم الأزياء، وكيف تصبح الملابس مثيرة للشهوات، وفرغت لها عقولٌ متخصصة في هذا المجال؛ لإيقاع الناس في غمرة هذه الشهوات

وقد سمعنا غيرَ مرة من يقول - عندما يرى بعض النساء المتبرجات -: لو كانت عارية لما ظهرت بهذا الجمال؛ لأن اللباس أظهرها بشكل أجمل مما هي عليه

ومن سُبُل الفتنة: ذلك البرقع الذي يبرز جمالاً في المرأة غير حقيقي، بحيث لو كشفت عن وجهها لذهب هذا الجمال، ولكنها تضع هذا البرقع وتضع الكحل حتى تفتن الشباب بمنظرها.

لقد أنشأ اليهود دوراً لعرض الأزياء وتصميمها، وأطلقوا قنوات شبه إباحية لعرض هذه الأزياء، وأصبح الناس يطلبون تلك الأزياء بمتابعتهم هذه القنوات، وما تنتجه تلك الدور، وأصبحت المصانع تصنّع للناس وتصنع لهم هذه الموضات والأزياء الحديثة، فلا تكاد تجد في السوق لباساً محتشماً، بل أكثر الملابس مصممة بتصاميم مُعرية.

إتيان أهله إذا رأى امرأة أعجبته:

إن الشهوات في هذا العصر ليست خاصة بغير المتزوجين، بل هي متعدية إلى المتزوجين أيضاً، وقد يكون المتزوج أكثر افتتاناً بهذه الشهوات من غير المتزوج؛ لأنه قد جرب النساء وعاشرهن، ومن عرف طعم الشيء ليس كمن لم يعرفه.

لذلك كان على المتزوجين أن يراعوا هذا الأمر في أنفسهم، فإذا وقعت في نفس أحدهم الشهوة بسبب صورة محرمة، أو امرأة متبرجة، فعليه أن يسارع إلى إتيان امرأته؛ لقضاء وطره، والتنفيس عن رغبته.

عن جابر رضي الله عنه أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى امرأة، فأتى امرأته زينب وهي تَمْعَسُ مَنِيئَةً لها، فقضى حاجته، ثم خرج إلى أصحابه فقال: «**إِنَّ المرأَةَ تُقبِلُ في صُورَةِ شَيطانٍ، وتُدبِرُ في صُورَةِ شَيطانٍ، فإذا أَبصَرَ أَحَدَكُم امرَأَةً فليَأتِ أَهلَهُ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ يَرُدُّ ما في نَفسِهِ**»[1] وفي رواية: «**فإنَّ مَعَها مِثلَ الَّذي مَعَها**»[2].

(رأى امرأة): هذا محمول على نظرة الفجأة، أو أنه كان قبل نزول آية الحجاب.

(تمعس منيئة): أصل المعس المَعك والدَّلْكُ للجِلد بعد إدخاله في الدِّباغ، ومَعَسَه معساً دلكه دَلكاً شديداً.. والمَنِيئَة المَدبغَة[3].

أي: أن زينب رضي الله عنها كانت تدلك الجلد؛ تمهيداً لدبغه.

وعن أبي كبشة الأنماري رضي الله عنه قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم جالساً في أصحابه، فدخل ثم خرج وقد اغتسل، فقلنا: يا رسول الله، قد كان شيء؟ قال: «**أَجَل، مَرَّت بِي فُلانَةٌ فَوَقَعَ في قَلبِي شَهوَةُ النِّساءِ، فَأَتَيتُ بَعضَ أَزواجِي فَأَصَبتُها، فَكَذَلِكَ فَافعَلُوا؛ فَإِنَّهُ مِن أَماثِلِ أَعمالِكُم إِتيانُ الحَلالِ**»[4].

قال النووي رحمه الله: «يستحب لمن رأى امرأة فتحركت شهوته أن يأتي امرأته فليواقعها؛ ليدفع شهوته، وتسكن نفسه، ويجمع قلبه على ما هو بصدده.

قوله صلى الله عليه وسلم: «إن المرأة تقبل في صورة شيطان، وتدبر في صورة شيطان» قال العلماء معناه الإشارة إلى الهوى والدعاء إلى الفتنة بها، لما جعله الله تعالى في نفوس الرجال من الميل إلى النساء والالتذاذ بنظرهن وما يتعلق بهن، فهي شبيهة بالشيطان، في دعائه إلى الشر بوسوسته وتزيينه له، ويستنبط من هذا: أنه ينبغي لها أن لا تخرج بين الرجال إلا لضرورة، وأنه ينبغي للرجل الغض عن ثيابها، والإعراض عنها مطلقاً»[5].

(١) رواه مسلم (١٤٠٣).

(٢) رواه الترمذي (١١٥٨)، وصححه الألباني.

(٣) لسان العرب، مادة معس (٦/ ٢١٩).

(٤) رواه أحمد (١٧٥٦٧)، وحسنه الألباني في الصحيحة (٢٣٥).

(٥) شرح النووي على مسلم (٩/ ١٧٨).

وقد يستغرب البعض من هذه الصراحة الموجودة في الحديثين، وإذا عُرف السبب بطل العجب؛ فإن المسألة خطيرة، وقد صرح النبي ﷺ بصنيعه لأهميته، وليتعلم المسلمون منه.

منع النساء من الخروج، إلا للضرورة:

إن المرأة إذا خرجت استشرفها الشيطان، وزيّنها في أعين الناظرين، وجعل الناس يرونها أجمل مما هي عليه حقيقةً؛ ليوقعهم في مصائد الشهوات والفواحش.

لذلك: على أولياء الأمور أن يمنعوا مُولياتهم من الخروج إلى الشوارع والأماكن العامة إلا للضرورة؛ حفاظاً على شرفها وعفتها، وكبحاً للشهوات المستعرة في هذا الزمان.

الإكثار من العبادات المنزلية

لا تجعل بيتك قبراً لا ذكر فيه ولا دعاء، ولا عبادة ولا طاعة، بل عمِّره بطاعة الله تعالى، واجعل فيه موضعاً مخصصاً لأداء الصلاة، ومصحفاً للتلاوة، وآلة لسماع القرآن، ومكتبة عامرة بعلوم الكتاب والسنة، وما فيه نفع للأسرة في دينها ودنياها. فإن ذلك يجعل الإنسان مقبلاً على ربه، ويخفف نداء الشهوة لديه.

الدعاء:

الدعاء هو السلاح الذي لا يخون في النوائب والمهمات، السلاح الناجح الذي ينبغي على المؤمن أن يستعمله في كل وقت وحين، قال الله تعالى: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦]

عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال: «ما عَلَى الأَرضِ مُسلِمٌ يَدعُو الله بِدَعوَةٍ إِلَّا آتاهُ الله إِيّاها، أَو صَرَفَ عَنهُ مِنَ السُّوءِ مِثلَها؛ ما لَم يَدعُ بِإِثمٍ أَو قَطِيعَةِ رَحِمٍ». فقال رجل من القوم: إذاً نكثر. قال: «الله أكثر»[1].

---

(١) رواه الترمذي (٣٥٧٣)، وصححه، وصححه الألباني في صحيح الترمذي.

وتأمل حال نبي الله يوسف عليه السلام ماذا دعا في حال الشهوة والدعوة إلى المحرم؟ ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [يوسف: ٣٣-٣٤].

وقد كان من هدي النبي صلى الله عليه وسلم تعليم الصحابة أدعية لمواجهة الشهوات، فعن شكل بن حميد رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله، علمني دعاء، قال: «قُلِ اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ سَمعِي، وَمِنْ شَرِّ بَصَرِي، وَمِنْ شَرِّ لِسانِي، وَمِنْ شَرِّ قَلبِي، وَمِنْ شَرِّ مَنِيِّي»[1].

فيستعاذ من شرّ المنيّ، والمقصود به: شرّ الشهوة.

وكان صلى الله عليه وسلم يقول: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسأَلُكَ الهُدَى، والتُّقَى، والعَفافَ، والغِنَى»[2]، فكان يسأله العفاف المطلوب لعلاج الشهوة.

فإياك والاغترار بنفسك، فتبتعد عن الدعاء وتأمن المكر؛ فإن إبراهيم عليه السلام ما أمن على نفسه عبادة الأصنام، بل دعا ربه قائلاً: ﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥].

فلم يسأل الله الوقاية من الصغائر فحسب، بل سأله الوقاية من الشرك الأكبر.

فلا تقل: أنا شاب متدين، أنا إمام، أنا خطيب، أنا داعية، أنا واعظ، أنا طالب علم...؛ فكل واحد يُخشى عليه من الفتنة، وما دمنا نخشى على أنفسنا؛ فلابد أن نلجأ إلى ربنا بالدعاء.

﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٤].

إذا لَم يَكن عَونٌ مِنَ اللهِ لِلفَتَى ... فَأَوَّلُ ما يَجني عَلَيهِ اجتِهادُهُ[3]

التأمل في خطورة الانسياق وراء الشهوات المحرمة:

قال يحيى بن معاذ رحمه الله: «من أرضى الجوارح في اللذات؛ فقد غرس لنفسه شجر الندامات»[4].

---

(١) رواه أبو داود (١٥٥١)، والترمذي (٣٤٩٢)، وحسنه، والنسائي (٥٤٥٦)، والحاكم (١٩٥٣)، وصححه، وصححه الألباني في صحيح الترمذي.

(٢) رواه مسلم (٢٧٢١).

(٣) نفح الطيب (٦/ ١٧٧).

(٤) ذم الهوى (ص٢٧).

وقال عبد الصمد الزاهد رَحِمَهُ اللَّهُ: «مَن لَمْ يَعلَمْ أَنَّ الشَّهَواتِ فُخُوخٌ فَهُوَ لَعَّابٌ»[1].

فإذا تأمل الإنسان مفاسد الزنا والفاحشة في الدنيا والآخرة؛ أدرك خطورة الانسياق وراء الشهوات المحرمة.

* * *

(١) ذم الهوى (ص٣١).

من قصص أهل العفاف

لقد حفل التاريخ بأناس ماتوا، ولكنهم أحياء بسيرهم وقصصهم النافعة، إنهم أولئك الذين صبروا عن شهواتهم لله عَزَّوَجَلَّ؛ فخلَّد الله ذكرهم، ونشر سِيَرهم. ومن هؤلاء:

يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ:

نبي الله الكريم عَلَيْهِ السَّلَامُ، الذي تَعَرَّض في بيت المُلك للفتنة، وقد تيسرت له كل السبل لفعلها، كما ذكره الله في كتابه العزيز ﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [يوسف: ٢٣].

ولم ينته الأمر عند هذا الحد، بل تستمر المطاردة ويزيد الطلب، حتى استبقا الباب؛ هارباً منه، وقطعت قميصه من دُبُر، وعندما جاء زوجها عزيز مصر كذبت على يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ، وفاوضته على عدم دخول السجن مقابل فعله الفاحشة.

فأبى، ودخل السجن، وتحمل ألمه وأذاه، هرباً من الشهوة المحرمة.

والناظر في هذه القصة يرى توفّر جميع الدواعي التي تسهل لنبي الله يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ هذه الفاحشة، فقد كان عزباً، والعزب ليس له مصرف يصرف فيه شهوته!، وغريباً، والغريب لا يستحي مما يستحي منه ابن البلد، ولا يخشى الفضيحة؛ لغربته.

وكانت المرأة ذات منصب وجمال، وكان خادمها، وهي عليه الأمر والنهي، ولم يكن دخوله إلى البيت مريباً، بل يستطيع دخوله متى شاء! وكان الرقيب (زوجها) غائباً! وكان الزوج قليل الغيرة، فعندما سمع بالخبر لم يتخذ الإجراءات المتوقعة، بل اكتفى بأمر يوسف بالإعراض، وأمر زوجته بالاستغفار!.

وكانت الدعوة منها؛ ما أسقط الحواجز النفسية، وسهل الأمر عليه، مع مطاردتها له وتهديده بالسجن، واستعانتها بكيد النسوة، ومع ذلك كله. صبر وصابر واعتصم بربه ومولاه.

فانظر كيف قاوم الفتنة، فأعقبه الله عَزَّوَجَلَّ الدرجة العالية، فاستخلصه واصطفاه، وجعله من المحسنين المخلَصين.

فما الأسباب والمقومات التي كانت عند يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ حتى صبر؟

أولاً: خوفه من الله سبحانه.

ثانياً: إعانة الله وتوفيقه له، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ [يوسف: ٢٤].

وقوله تعالى: ﴿لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ﴾ أبلغ من: (لنصرفه عن السوء والفحشاء)؛ لأن الآية تدل على أن السوء والفحشاء قد صرفا عنه، بحيث لو أراد هو أن يقع فيهما لم يستطع؛ لأنه لا يجدهما.

ثالثاً: فراره من سبب المعصية، لم يقل: إني أخاف الله رب العالمين، وقعد في البيت. بل قاما وهرب منها، وحاول الخروج من باب البيت.

إن مغادرة مكان المعصية تعين على النجاة من الشهوة المحرمة، والبقاء بين أطرافها يشجّع على الحرام، ويغري به، فاهرب بدينك من أماكن الحرام.

رابعاً: استعانته بالدعاء ﴿ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴾ [يوسف: ٣٣].

خامساً: كونه صالحاً تقياً ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ [يوسف: ٢٤].

سادساً: اختياره الأذى على فعل الفاحشة ﴿ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ ﴾ [يوسف: ٣٣].

إن في هذه القصة من العبر والعظات ما يوجب على المسلم -خاصة الشباب- أخذ العبرة، والاستفادة من دروسها، وألاّ يمر عليها مرور المستعجل المستكشف فحسب، بل المتعلم المستفيد.

قصة جريج العابد

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «... كَانَ جُرَيْجٌ فِي صَوْمَعَتِهِ، فَقَالَتِ امْرَأَةٌ: لَأَفْتِنَنَّ جُرَيْجاً. فَتَعَرَّضَتْ لَهُ فَكَلَّمَتْهُ، فَأَبَى، فَأَتَتْ رَاعِياً فَأَمْكَنَتْهُ مِنْ نَفْسِهَا، فَوَلَدَتْ غُلاماً، فَقَالَتْ: هُوَ مِنْ جُرَيْجٍ. فَأَتَوْهُ وَكَسَرُوا صَوْمَعَتَهُ، فَأَنْزَلُوهُ وَسَبُّوهُ، فَتَوَضَّأَ وَصَلَّى، ثُمَّ أَتَى الْغُلَامَ فَقَالَ: مَنْ أَبُوكَ يَا غُلَامُ؟ قَالَ: الرَّاعِي.»[1]

فانظر كيف أنطق الله الغلام؛ تكريماً ورفعة لشأن جريج؛ حيث ترك هذه المرأة، مع قدرته عليها قدرة تامة؛ خشية من الله

قصة السري بن دينار رحمه الله

نزل السري بن دينار في درب بمصر، وكانت فيه امرأة جميلة فتنت الناس بجمالها، فعلمت به المرأة، فقالت: لأفتننه، فلما دخلت من باب الدار تكشفت وأظهرت نفسها، فقال: مالك؟ فقالت: هل لك في فراش وطيء وعيش رخي، فقال:

وَكَم ذِي مَعاصٍ نالَ مِنهُنَّ لَذَّةً ... وَماتَ فَخَلّاها وَذاقَ الدَّواهِيا
تَصَرَّمُ لَذّاتُ المَعاصي وَتَنقَضي ... وَتَبقى تِباعاتُ المَعاصِي كَما هِيا
فَيا سَوأَتا وَاللهُ راءٍ وَسامِعٌ ... لِعَبدٍ بِعَينِ اللهِ يَغشَى المَعاصِيا[2]

قصة أبي بكر المسكيّ رحمه الله

قال ابن الجوزي رحمه الله: «قيل لأبي بكر المسكي: إنا لنشم منك رائحة المسك مع الدوام، فما سببه؟ فقال: والله لي سنين عديدة لم أستعمل المسك، ولكن سبب ذلك أن امرأة احتالت عليَّ حتى أدخلتني دارها، وأغلقت دوني الأبواب، وراودتني عن نفسي، فتحيرتُ في أمري، فضاقت بي الحيل، فقلت لها: لي حاجة إلى الطهارة، فأمرت جارية لها أن تمضي بي إلى بيت الراحة، فمضت، فلما دخلت بيت الراحة أخذتُ العَذِرة، وألقيتها على جميع جسدي، ثم رجعت إليها وأنا على تلك الحالة، فلما رأتني دهشت، ثم أمرت بإخراجي، فمضيت واغتسلت

(١) رواه البخاري (٣٤٣٦)، ومسلم (٢٥٥٠).

(٢) ذم الهوى (ص٢٥٣)، روضة المحبين (ص٣٢٩).

فلما كانت تلك الليلة، رأيت في المنام مَن يقول لي: فعلتَ ما لم يفعله غيرك، لأُطيبنّ ريحك في الدنيا والآخرة. فأصبحتُ والمسك يفوح مني، واستمر ذلك إلى الآن»[1].

ومن قصص النساء:

بينما عمر بن الخطاب رضي الله عنه يطوف بيوت المسلمين يتفقد أحوالهم، إذ سمع امرأة وهي تقول:

تطاول هذا الليل واسودَّ جانبه ... وأرّقني أن لا حبيب ألاعبه

فلولا الذي فوق السموات عرشه ... لزُعزع من هذا السريرِ جوانبه

فأصبح عمر رضي الله عنه، فأرسل إليها، فقال: «أنت القائلة كذا وكذا؟» قالت: نعم، قال: «ولِمَ؟» قالت: أجهزت زوجي في هذه البعوث، فسأل عمرُ حفصةَ رضي الله عنها: «كم تصبر المرأة مِن زوجها؟» فقالت: ستة أشهر، فكان عمر بعد ذلك يُقفِل [يُرجِع] بعوثه لستة أشهر[2].

* * *

(١) المواعظ والمجالس (ص٢٢٤).

(٢) مصنف عبد الرزاق (٧/ ١٥٢)، سنن البيهقي (٩/ ٢٩).

من قصص الساقطين في مستنقع الشهوات

على نقيض هؤلاء الصابرين حمل التاريخ بقصص أناس سقطوا في مستنقع الشهوات

- فهذا رجل كان ممن يجاهد في بلاد الروم، فبينما كان في بعض الغزوات والمسلمون يحاصرون بلدة من بلاد الروم؛ إذ نظر إلى امرأة من نساء الروم في ذلك الحصن، فهويها فراسلها: ما السبيل إلى الوصول إليك؟ فقالت: أن تتنصر وتصعد إليّ

فأجابها إلى ذلك، فما راع المسلمين إلا وهو عندها، فاغتم المسلمون بسبب ذلك غماً شديداً، وشق عليهم مشقة عظيمة، فلما كان بعد مدة مروا عليه وهو مع تلك المرأة في ذلك الحصن، فقالوا: يا فلان، ما فعل قرآنك؟! ما فعل علمك؟! ما فعل صيامك؟! ما فعل جهادك؟! ما فعلت صلاتك؟!

فقال: اعلموا أني أُنسيت القرآن كله، إلا قوله ﴿ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ۝٢ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ [الحجر ٢-٣][1]

- وَيُروَى أَنَّهُ كانَ بِمِصر رَجُلٌ يَلزَمُ مَسجِداً لِلأَذانِ والصَّلاةِ، وَعَلَيهِ بَهاءُ الطَّاعَةِ وَأَنوارُ العِبادَةِ، فَرَقِيَ يَوماً المَنارَةَ عَلى عادَتِهِ لِلأَذانِ، وَكانَ تَحتَ المَنارَةِ دارٌ لِنَصرانِيٍّ، فاطَّلَع فيها، فَرَأى ابنَةَ صاحِبِ الدّارِ فافتُتِنَ بِها، فَتَرَكَ الأَذانَ، وَنَزَلَ إِلَيها، وَدَخَلَ الدّارَ عَلَيها، فَقالَت لَهُ: ما شَأنُكَ؟ وَما تُرِيدُ؟ قالَ: أُرِيدُكِ، فقالَت: لِماذا؟ قالَ: قَد سَبَيتِ لُبِّي، وَأَخَذتِ بِمَجامِعِ قَلبِي، قالَت: لا أُجِيبُكَ إلى رِيبَةٍ أَبَداً، وَقالَ: أَتَزَوَّجُكِ؟ قالَت: أَنتَ

(١) البداية والنهاية (١١/ ٧٤)

مُسْلِمٌ، وَأَنَا نَصْرَانِيَّةٌ، وَأَبِي لَا يُزَوِّجُنِي مِنْكَ، قَالَ: أَتَنَصَّرُ، قَالَتْ: إِنْ فَعَلْتَ أَفْعَلُ، فَتَنَصَّرَ الرَّجُلُ لِيَتَزَوَّجَهَا، وَأَقَامَ مَعَهُمْ فِي الدَّارِ، فَلَمَّا كَانَ فِي أَثْنَاءِ ذَلِكَ الْيَوْمِ، رَقِيَ إِلَى سَطْحٍ كَانَ فِي الدَّارِ، فَسَقَطَ مِنْهُ فَمَاتَ، فَلَمْ يَظْفَرْ بِهَا، وَفَاتَهُ دِينُهُ"[1].

نسأل الله الثبات!

❊ ❊ ❊

(١) الجواب الكافي (ص١١٨).

الخاتمة

إن الشهوة التي يعاني منها الشاب والفتاة لم تخلق لأهل الفساد وحدهم، فالصالحون والصالحات الذين يعيشون حالة التسامي والعفة، والذين يشتغلون بالدعوة وطلب العلم وتعليم الخلق ونشر الخير، تدعوهم أنفسهم إلى مقارفة الشهوات، بل ربما كانت الشهوة لدى بعضهم أقوى مما لدى المعرضين، ولكنهم كبحوا جماح شهوتهم؛ طاعة لربهم، ورغبة في ثوابه.

فمن عاش بعين بصيرته هذه الدنيا نال خيرها ونجا من شرها، ومن لم ير العواقب غلب عليه الحسّ فعاد عليه بالألم.

نسأل الله سبحانه وتعالى أن يجعل بيننا وبين الحرام برزخاً وحجراً محجوراً، وأن يجعلنا من الذين إذا أساؤوا استغفروا، وإذا أحسنوا استبشروا، وأن يجعل هوانا فيما يحب ويرضى.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله، وصحبه أجمعين.

❋ ❋ ❋

اختبر فهمك

فيما يلي مستويان من الأسئلة حول الموضوع: أسئلة حلولها مباشرة، وهي أسئلة المستوى الأول.

وأسئلة تحتاج إلى بحث وتأمل، وهي أسئلة المستوى الثاني.

أسئلة المستوى الأول (المباشرة):

١. ما المقصود بالشهوة؟

٢. اذكر ثلاثة أسباب تؤدي للوقوع في الشهوة المحرمة.

٣. لغض البصر فوائد كثيرة، اذكر أبرزها.

٤. كيف نعالج الشهوة المحرمة؟

أسئلة المستوى الثاني (الاستنباطية):

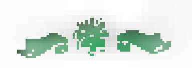
١. لماذا خُلقت الشهوة؟

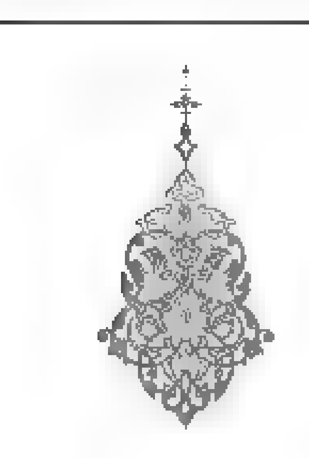
٢. إذا تعرضت لك شهوة محرمة، فكيف تتعامل معها؟

٣. لماذا قُدِّمَ غض البصر على حفظ الفرج؟

٤. كيف تتعامل مع الخواطر السيئة؟

٥. ماذا نستفيد من قصة يوسف عليه السلام مع امرأة العزيز؟





اتباع الهوى



مُقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، نبينا محمد، وعلى آله، وأصحابه أجمعين

أما بعد:

فإن اتباع الهوى عن الخير صدّ، وللعقل مضادّ؛ لأنه يُنتج من الأخلاق قبائحها، ويُظهر من الأفعال فضائحها، ويجعل ستر المروءة مهتوكاً، ومدخل الشر مسلوكاً.

الهوى مطية الفتنة، والدنيا دار المحنة، فانزل عن الهوى تسلم، وأعرض عن الدنيا تغنم، ولا يغرنك هواك بطيب الملاهي، ولا تفتنك الدنيا بحسن العواري، فمدة اللهو تنقطع، وعارية الدهر تُرتجع، ويبقى عليك ما ترتكبه من المحارم، وتكتسبه من المآثم.

الهوى هو العدو الأعظم الذي يجب على الإنسان أن يقاتله ويحاربه أشد مما يحارب أي عدو، يقول أبو حازم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قاتل هواك أشد مما تقاتل عدوك»[1].

الهوى هو أساس كل فتنة، وسبب كل بلية.

يا نَفْسُ تُوبي فَإِنَّ الـمَوتَ قَدْ حانا　　　واعصِ الهَوَى فالهَوَى ما زالَ فَتّانا

ولما كان هذا شأن الهوى؛ وجب الحديث عنه حتى نبتعد عن هذا المرض الخطير، والشر المستطير.

---

(١) حلية الأولياء (٣/ ٢٣١).

وسنتطرق في هذا الفصل إلى تعريف الهوى، وأضراره، وفوائد مخالفته، وأسباب اتباعه، وطرق علاجه، والفرق بين المحمود منه والمذموم.

ولا يفوتني أن أشكر كل من ساهم في إعداد هذه المادة وإخراجها بالصورة المرضية. وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله، وصحبه أجمعين.

* * *

تعريف الهوى

الهوى في اللغة:

مصدر (هَوِيَه) إذا أحبَّه واشتهاه[1].

الهوى في الاصطلاح:

هو: ميلان النفس إلى ما تستلذه من الشهوات من غير داعية الشرع[2].

وقال ابن القيم رحمه الله: «الهوى ميل الطبع إلى ما يلائمه، وهذا الميل خُلِق في الإنسان لضرورة بقائه، فإنه لولا ميله إلى المطعم والمشرب والمنكح ما أكل ولا شرب ولا نكح، فالهوى مستحث له لما يريده، كما أن الغضب دافع عنه ما يؤذيه»[3].

* * *

(١) المغرب في ترتيب المعرب (٢/ ٣٩٢).

(٢) التعريفات للجرجاني (ص٣٢٠).

(٣) روضة المحبين (ص٤٦٩).

النهي عن اتباع الهوى

تواطأت الأدلة الشرعية على النهي عن اتباع الهوى، وقد نهجت هذه الأدلة أكثر من منهج وطريق لأجل ذلك:

فتارة يأتي الدليل في النهي عن الهوى مطلقاً.

قال تعالى: ﴿فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا﴾ [النساء: ١٣٥].

وقال تعالى: ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [ص: ٢٦].

وتارة يأتي الدليل في النهي عن اتباع أهواء أهل الكفر والضلال

قال تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٠].

وأمر سبحانه نبيه أن يقول للكفار ﴿قُل لَّا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ ۙ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ [الأنعام: ٥٦].

وقال جل شأنه: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٧٧]

وقال عز وجل: ﴿فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ﴾ [المائدة: ٤٨].

وقال سبحانه ﴿فَلِذَٰلِكَ فَادْعُ ۖ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ [الشورى: ١٥]

وقال سبحانه: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨]

فأضاف الله عَزَّوَجَلَّ الهوى إلى الكفار والمشركين؛ لأن أهواءهم ضالة عن الحق، بخلاف المؤمن، فإن الكافر هواه كله باطل، والمؤمن قد يرتقي هواه حتى يصير موافقاً لما أمر به سبحانه، وتابعاً لما جاء به النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فإذا مال إلى شيء كان ذلك الشيء سنة وطاعة، وعلى أدنى الأحوال قد يكون مباحاً. قال تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم﴾ [محمد: ١٤]

وتارة يرد الدليل بذم الهوى المضاف إلى النفس الأمارة بالسوء:

عن أبي يعلى شداد بن أوس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «العاجِزُ مَن أَتبَعَ نَفسَهُ هَواها»[1].

وقد يرد الدليل بذم الهوى المضاف إلى القلب:

عن حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «تُعرَضُ الفِتَنُ عَلَى القُلُوبِ كالحَصِيرِ عُوداً عُوداً، فَأَيّ قَلبٍ أُشرِبَها نُكِتَ فيهِ نُكتَةٌ سَوداءُ، وَأَيُّ قَلبٍ أَنكَرَها نُكِتَ فيهِ نُكتَةٌ بَيضاءُ، حَتَّى تَصِيرَ عَلَى قَلبَينِ: عَلَى أَبيَضَ مِثلِ الصَّفا، فَلا تَضرُّهُ فِتنَةٌ ما دامَتِ السَّماواتُ والأَرضُ، والآخَرُ أَسوَدُ مُربادّاً كالكُوزِ مُجَخِّياً، لا يَعرِفُ مَعرُوفاً وَلا يُنكِرُ مُنكَراً إلّا ما أُشرِبَ مِن هَواهُ»[2].

فأضاف الهوى إلى القلب.

* * *

---

(١) رواه ابن ماجة (٤٢٦٠)، والحاكم (٧٦٣٩)، وصححه، وضعفه الألباني في ضعيف ابن ماجة.

(٢) رواه مسلم (١٤٤).

متى يُعاقب الإنسان على هواه؟

الهوى شيء ملازم للإنسان، لا يستطيع مفارقته ولا تركه، فالله جبل النفس البشرية على ذلك، فهل يعاقب الإنسان على هواه وشهوته كلما هوى واشتهى؟!

وهل الإنسان مطالبٌ باستخراج الهوى من نفسه وقلبه، ونبذه خارجاً عنه؟!

أم أن لذلك ضوابطَ وحدوداً؟!

قال ابن تيمية رحمه الله: «نفس الهوى والشهوة لا يعاقب عليه، بل على اتباعه والعمل به، فإذا كانت النفس تهوى وهو ينهاها؛ كان نهيه عبادة لله، وعملاً صالحاً»(١).

فهذه هي حال المسلم الصادق؛ لا تزال نفسه تأمره بكذا وكذا، وهو يجاهدها وينهاها عن مساوئ شهواتها، ويخاف ربه في تلك المقامات التي تأمره بها، ومن كانت هذه حاله فله الجزاء الحسن، قال سبحانه: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠-٤١].

فالهوى لا يعاقب عليه إلا عند العمل به، فالرجل قد يهوى المعصية ويتمناها، فإذا صدَّق ذلك بالعمل حُوسب على هواه وعمله.

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «كُتِبَ عَلَى ابنِ آدمَ نَصِيبُهُ مِنَ الزِّنا، مُدرِكٌ ذَلِكَ لا مَحالَةَ: فالعَينانِ زِناهُما النَّظَرُ، والأُذُنانِ زِناهُما الاستِماعُ، واللِّسانُ زِناهُ الكَلامُ، واليَدُ زِناها البَطشُ، والرِّجلُ زِناها الخُطا، والقَلبُ يَهوَى وَيَتَمَنَّى، وَيُصَدِّقُ ذَلِكَ الفَرجُ وَيُكَذِّبُهُ»(٢).

❁ ❁ ❁

(١) مجموع الفتاوى (١٠/ ٦٣٥).

(٢) رواه البخاري (٦٢٤٣)، ومسلم (٢٦٥٧)، واللفظ لمسلم.

أسباب اتباع الهوى

إن اتباع الهوى له أسباب عدة، تدعو الناس إليه، فلماذا يتبع الناس أهواءهم؟، ولماذا يعرضون عن الحق واتباع الصراط المستقيم؟

لذلك عدة أسباب، منها

أولاً: عدم التعود على ضبط الهوى من الصغر:

قد يلقى الطفل في صغره من أبويه حباً مفرطاً، وحناناً زائداً، حيث يلبيان له جميع رغباته، ويأتيانه بكل ما يشتهيه ويتمناه، لا يفرقان بين حرام وحلال، أو بين ممنوع ومسموح.

فإذا نام عن صلاة الفجر تركه والداه وقالا: مرهق نعسان، وإذا أراد لعبةً من الألعاب أتياه بها وتغاضيا عما فيها من الموسيقى، أو المناظر الخليعة، وله سائق خاص، يذهب به حيث يريد.

فينشأ الطفل على اتباع هواه، كلما أراد شيئاً حصَّله ونفذه، لا يردعه رادع، ولا يمنعه وازع، حتى إذا بلغ مبلغ التكليف انطلق هواه شرقاً وغرباً، وركضت جوارحه خلف هواه لتحقيق تلك الأماني والأحلام، خاصةً مع فترة المراهقة، فيفعل الجرائم العظام، والأمور الكبار، وليس من سبيلٍ لدفعه عن ذلك ولا منعه.

وقد عمل الصحابة رضي الله عنهم في تربية أبنائهم على اعتياد ضبط النفس منذ الصغر، فكانوا يحاولون معهم في الصيام، والصلاة، والحج، وغير ذلك من الأمور الشرعية.

عن الرُّبيع بنت معوذ رضي الله عنها قالت: أرسل النبي صلى الله عليه وسلم غداة عاشوراء إلى قرى الأنصار: «**مَن أصبَحَ مُفطِراً فَليُتِمَّ بَقِيَّةَ يَومِهِ، وَمَن أصبَحَ صائِماً فَليَصُم**»، قالت: فكُنَّا

نَصُومُهُ بَعدُ، وَنُصَوِّمُ صِبيانَنا، وَنَجعَلُ لَهُمُ اللُّعبَةَ مِنَ العِهنِ، فَإِذا بَكَى أَحَدُهُم عَلَى الطَّعامِ أَعطَيناهُ ذاكَ حَتَّى يَكُونَ عِندَ الإِفطارِ»[1].

وتربية الطفل على نيل ما يتمناه لا تعود عليه بالضرر الديني فقط، بل هي ضارة له في دنياه أيضاً، فقد يصيب الأهلَ شيءٌ من مصائب الدنيا وجوائحها، فيذهب عنهم مالهم، وتضيق عليهم معيشتهم، أو قد يتوفى معيل الأسرة، ففي ذلك الوقت كيف ستُلبَّى هذا الطفل رغباته؟! وكيف سينال أمانيه وأحلامه؟!

ثم بعد ذلك إذا خاض غمار الحياة ومعتركها سيجد أن أهله ليسوا قادرين على إعطائه كل ما يتمناه، خاصةً إذا دخل مرحلة الاستقلال بالنفس، وبناء بيت الزوجية، فسيتمنى أن يعمل عملاً معيناً، ولا يستطيع الوصول إليه.

وكذلك الفتاة التي تعودت على الدلال والرفاهية، قد تتزوج شخصاً ليس في مستوى أهلها المالي، فتتبرم من ذلك وتتأفف، وقد تعيِّر زوجها بأنه فقير، وتدخل حياتها في دوامة من الصراعات والنزاعات التي تفسد عليها استقرارها النفسي، وراحتها مع زوجها.

ثانياً: مجالسة أهل الأهواء ومصاحبتهم:

إن العواطف والدوافع تنمو بالمجالسة وطول الصحبة، فمن لازم مجالسة أهل الهوى وأدام صحبتهم فلا بد أن يتأثر بهم، لا سيما إن كان ضعيف الشخصية، وعنده قابلية للتأثر بمن حوله

ولذلك كان السلف ينهون عن مجالسة أهل البدع والأهواء، قال أبو قلابة رحمه الله: «لا تُجالِسُوا أَصحابَ الأَهواءِ»، أو قالَ «أَصحابَ الخُصُوماتِ؛ فَإِنِّي لا آمَنُ أَن يَغمِسُوكُم في ضَلالَتِهِم، أَو يَلبِسُوا عَلَيكُم بَعضَ ما تَعرِفُونَ»[2].

وقال البغوي رحمه الله: «وَعُلَماءُ السُّنَّةِ مُتَّفِقونَ عَلى مُعاداةِ أَهلِ البِدعَةِ، وَمُهاجَرَتِهِم»[3].

---

(١) رواه البخاري (١٩٦٠)، ومسلم (١١٣٦).

(٢) السنة لعبد الله بن أحمد (٩٩).

(٣) شرح السنة (١/ ٢٢٧).

ثالثاً: ضعف المعرفة الحقة بالله، والدار الآخرة:

الذي لا يقدُر ربَّه حق قدره؛ لا يبالي إذا أغضبه، أو عصاه، ليس في قلبه توقيرٌ لله ولا تعظيمٌ ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [الزمر: ٦٧].

رابعاً: عدم قيام الآخرين بما يجب عليهم نحو صاحب الهوى:

تقصير الناس في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ يؤدي إلى تمادي صاحب الهوى في هواه، ومضيه في طريقه بلا مبالاة، حتى يتمكن الهوى من قلبه، ويسيطر على سلوكياته وتصرفاته.

ولذلك جاء الإسلام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، قال تعالى: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٤]، وقال سبحانه: ﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ۖ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل: ١٢٥]، وقال جل شأنه: ﴿ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا ﴾ [النساء: ٦٣].

فإذا تعود الناس كافةً على إنكار المنكر؛ كان رادعاً لأصحاب الهوى عن التمادي في طريقهم.

خامساً: حب الدنيا والركون إليها:

مَن أحب الدنيا، وركن إليها، ونسي الآخرة؛ تولَّد عنده سعي حثيث لتلبية كل ما يفرضه هذا الحب، وذلك الركون، حتى وإن كان مخالفاً لمنهج الله، وذلك بعينه هو اتباع الهوى.

وقد لفت المولى النظر إلى هذا السبب، فقال عز وجل: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ ﴿٧﴾ أُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [يونس: ٧-٨].

سادساً: المسارعة في الحصول على ما تشتهيه النفس من المباحات:

الإنسان متى ما دعته نفسه إلى شيء من المباحات أسرع إلى إجابتها، وقد كان أهل العلم يربّون طلابهم على مخالفة ما تهواه أنفسهم من المباحات.

دخل خَلف بن خليفة على سليمان بن حبيب بن المهلّب رحمهما الله بالأهواز، وعند سليمان جارية له يقال لها: البدر، من أحسن الجواري وجهاً وأكمله، فقال سليمان لخلف: كيف ترى هذه الجارية؟ فقال: أصلح الله الأمير، ما رأت عيناي جاريةً قط أحسن منها، فقال: خُذ بيدها، فقال خلف: ما كنتُ لأفعل، ولا أسلبها الأمير، وقد عرفتُ عُجبه بها، فقال: خُذها ويحك على عجبي بها؛ ليعلم هواي أني غالب.

فأخذ بيدها وخرج وهو يقولُ:

لَقَد حَباني وَأَعطاني وَفَضَّلَني ... عَن غَيرِ مَسأَلَةٍ مِنّي سُلَيمانُ

أَعطانِيَ البَدرَ خَوداً في مَجاسِدِها ... والبَدرُ لَم يُعطِهِ إِنسٌ وَلا جانُّ!![1]

فحرمان النفس من بعض المباحات؛ لأجل التعويد على الصبر، يعود عليها بالنفع، خاصةً إذا واجهت شهواتها وأمانيها المحرمة، ولكن إذا كانت قد عُوِّدت على نيل المباحات، فإنها تضعف أمام المحرمات.

سابعاً: الجهل بالعواقب المترتبة على اتباع الهوى:

الجهل بعاقبة الشيء داعٍ إلى ممارسته، وللهوى أضرار ومفاسد قد تدفع صاحب الهوى إلى ترك هواه إذا علمها.

أنشد أحمد بن القاسم الطبراني:

سَأَحذَرُ ما يُخافُ عَلَيَّ مِنهُ ... وَأَترُكُ ما هَوَيتُ لِما خَشيتُ[2]

* * *

---

(١) ذم الهوى (ص٢٦).

(٢) تاريخ دمشق (٧/ ٣٧٢).

أضرار اتباع الهوى

الهوى له أضراره الكثيرة، العاجلة والآجلة، والتي تمنع الإنسان من التلذذ به، وتنسيه ما كان قد تَنَعَّم به.

وقد قيل: «إياكم وتحكيم الشهوات على أنفسكم؛ فإنّ عاجلها ذميم، وآجلها وخيم، فإن لم تَرها تنقاد بالتحذير والإرهاب، فسوّفها بالتأميل والإرغاب، فإن الرغبة والرهبة إذا اجتمعا على النفس ذلت لهما وانقادت»[1].

فما هي أضرار اتباع الهوى؟

خسران الآخرة:

قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٣٧-٤١].

قال الشعبي رحمه الله: «إِنَّما سُمِّيَ الْهَوَى لِأَنَّهُ يَهوِي بِصاحِبِه»[2].

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: «مَن كان الأجوفان همّه؛ خسر ميزانه يوم القيامة»[3]، ويقصد بالأجوفين: شهوة البطن، وشهوة الفرج.

وصاحب الهوى تراه في ذلك اليوم متخبطاً بسبب هواه، ويُصرع عن النهوض يوم القيامة، والسعي مع الناجين، كما صُرع في الدنيا بمرافقته لأهل الأهواء، قال محمد بن أبي

(١) أدب الدنيا والدين (ص٢١).

(٢) سنن الدارمي (٣٩٥).

(٣) الزهد لابن المبارك (١/ ٢١٧).

الـورد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إن لله عَزَّوَجَلَّ يومـاً لا ينجو من شره منقاد لهـواه، وإنّ أبطأ الصرعى نهضةً يوم القيامة صريعُ الشهوة»(١).

وقال ابنُ عطاءٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «مَنْ غَلَّبَ هَواهُ عقلَهُ وَجزعُهُ صَبرَهُ افتُضِحَ»(٢)، أي: افتضح يوم الدين الفضيحة الكبرى، بخسرانه الآخرة ودخوله النار.

وقال إبراهيم بن أدهم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الهَوَى يُردِي، وخَوفُ الله يَشفي، واعلم أنَّ ما يُزِيلُ عن قَلبِكَ هَواكَ إذا خِفتَ مَن تَعلَمَ أنَّهُ يَراكَ»(٣).

الهوى يقود إلى الضلال:

أصـل كل ضـلال اتباع الظن والهوى، قال سـبحانه في أصحـاب الضلال: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ﴾ [النجم: ٢٣]؛ فلأجل اتباعهم الظن وهوى النفس وقعوا في الضلال.

ولا يكتفـي الهـوى بإضـلال صاحبـه؛ بل يتعـداه إلى إضـلال الآخريـن وإبعادهم عن الطريق، قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: ١١٩] أي: يضلون غيرهم بسبب هواهم.

عدم الانتفاع بالقرآن والمواعظ:

الهـوى يصد عن فهم القرآن، والانتفاع بمواعظه وأحكامه، وقد كان أصحاب الأهواء يستمعون القرآن من فيِّ النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مباشرة، ومع ذلك لم يكونوا ينتفعون به، يقول الله تعـالى عنهـم: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا أَهْوَآءَهُمْ﴾ [محمد: ١٦].

فعـدم الاستجابة لأوامر القرآن والسـنة هـي دليل اتباع الهـوى: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ﴾ [القصص: ٥٠].

(١) صفة الصفوة (٢/ ٣٩٥).
(٢) ذم الهوى (ص٢٧).
(٣) حلية الأولياء (٨/ ١٨).

وعن علي رضي الله عنه قال: «إنما أخافُ عليكُمُ اثنتينِ: طُولَ الأمَلِ، واتِّباعَ الهوى، فإنَّ طُولَ الأمَلِ يُنسِي الآخِرَة، وإنَّ اتّباعَ الهوَى يَصُدُّ عَنِ الحَقِّ، وإنَّ الدُّنيا قد ترَحَّلَت مُدبِرَةً، وإنَّ الآخِرَةَ مُقبِلَةٌ، ولِكُلٍّ واحِدَةٍ مِنهُما بَنُونَ، فكُونُوا مِن أبناءِ الآخِرةِ، فإنَّ اليَومَ عَمَلٌ ولا حِساب، وغَداً حِسابٌ ولا عَمَلَ»[1].

الهوى يُفسد القلب ويحول بينه وبين السلامة:

قال ابن القيم رحمه الله: «والقَلبُ السَّليمُ هُوَ الَّذِي سَلِمَ مِنَ الشِّركِ، والغِلِّ، والحِقدِ، والحَسَدِ، والشُّحِّ، والكِبرِ، وحُبِّ الدُّنيا، والرِّياسَةِ، فَسَلِمَ مِن كُلِّ آفَةٍ تُبعِدُهُ عَنِ اللهِ، وَسَلِمَ مِن كُلِّ شُبهَةٍ تُعارِضُ خَبَرَهُ، وَمِن كُلِّ شَهوَةٍ تُعارِضُ أمرَهُ، وسَلِمَ مِن كُلِّ إرادَةٍ تُزاحِمُ مُرادَهُ، وَسَلِمَ مِن كُلِّ قاطِعٍ يَقطَعُ عَنِ اللهِ، فَهَذا القَلبُ السَّليمُ في جَنَّةٍ مُعَجَّلَةٍ في الدُّنيا، وفي جَنَّةٍ في البَرزَخِ، وفي جَنَّةٍ يَومَ المعادِ. وَلا تَتِمُّ لَهُ سَلامَتُهُ مُطلَقاً حَتَّى يَسلَمَ مِن خَمسَةِ أشياءَ: مِن شِركٍ يُناقِضُ التَّوحِيدَ، وَبِدعَةٍ تُخالِفُ السُّنَّةَ، وَشَهوَةٍ تُخالِفُ الأمرَ، وَغَفلَةٍ تُناقِضُ الذِّكرَ، وَهَوًى يُناقِضُ التَّجرِيدَ والإخلاصَ. وَهَذِهِ الخَمسَةُ حُجُبٌ عَنِ اللهِ، وَتَحتَ كُلِّ واحِدٍ مِنها أنواعٌ كَثِيرَةٌ، تَتَضَمَّنُ أفراداً لا تَنحَصِرُ؛ وَلِذَلِكَ اشتَدَّت حاجَةُ العَبدِ، بَل ضَرُورَتُهُ، إلى أن يَسأَلَ اللهَ أن يَهدِيَهُ الصِّراطَ المُستَقِيمَ، فَلَيسَ شَيءٌ أحوَجَ مِنهُ إلى هَذِهِ الدَّعوَةِ، وَلَيسَ شَيءٌ أنفَعَ لَهُ مِنها»[2].

سبب لذهاب العقل والعلم

قال المعتصم يوماً لأبي إسحاق الموصلي: «يا أبا إسحاق، إذا نُصِرَ الهوى ذهب الرأي»[3].

وقال ابن القيم رحمه الله: «سمعت رجلاً يقول لشيخنا ابن تيمية رحمه الله: إذا خان الرجل في نقد الدراهم سلبه الله معرفة النقد أو نسيه، فقال الشيخ: هكذا من خان الله تعالى ورسوله في مسائل العلم»[4].

فمن اتبع هواه فيها فإن الله عز وجل يسلبه العقل والعلم.

---

(١) مصنف ابن أبي شيبة (٣٤٤٩٥).

(٢) الجواب الكافي (ص٥٨-٥٩).

(٣) تاريخ بغداد (٦/ ٣١١).

(٤) روضة المحبين (ص٤٨٠).

الانسلاخ من الإيمان دون الشعور بذلك:

قال تعالى: ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف: ١٧٥-١٧٦]

قال بعض العلماء: «الكُفْرُ فِي أَرْبَعَةِ أَشْيَاءَ: فِي الغَضَبِ والشَّهْوَةِ، والرَّغْبَةِ، والرَّهْبَةِ» ثُمَّ قال: «رَأَيْتُ مِنْهُ اثْنَتَيْنِ: رَجُلًا غَضِبَ فَقَتَلَ أُمَّهُ، وَرَأَيْتُ رَجُلًا عَشِقَ فَتَنَصَّرَ»[1].

وكان أحدهم يطوف بالبيت، فنظر إلى امرأة جميلة، فمشى إلى جانبها، ثم قال:

أَهْوَى هَوَى الدِّينِ واللَّذَّاتُ تُعجِبُنِي ... فَكَيفَ لِي بِهَوَى اللَّذَّاتِ والدِّينِ

فقالت: «دع أحدهما تنل الآخر»[2].

فلا يمكن الجمع بين الهوى والدين.

الهوى مهلك من المهلكات

عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ثَلاثٌ مُهلِكاتٌ: شُحٌّ مُطاعٌ، وَهَوًى مُتَّبَعٌ، وَإِعجابُ المَرءِ بِنَفسِهِ»[3].

وعن وهب بن منبه رحمه الله قال: «أعون الأخلاق على الدين: الزهادة في الدنيا، وأوشكها ردًى: اتباع الهوى، ومن اتباع الهوى: الرغبة في الدنيا، ومن الرغبة في الدنيا: حب المال والشرف، ومن حب المال والشرف: استحلال المحارم، ومن استحلال المحارم يغضب الله، وغضب الله الداءُ الذي لا دواء له إلا رضوان الله، ورضوان الله دواء لا يضر معه داء، ومن يريد أن يرضي ربه: يسخط نفسه، ومن لا يسخط نفسه لا يرضي ربه، إن كان كلما ثقل على الإنسان شيء من دينه تركه، أوشك أن لا يبقى معه شيء»[4].

---

(١) ذم الهوى (ص٢٤).

(٢) روضة المحبين (ص٤٧٩).

(٣) رواه البيهقي في شعب الإيمان (٧٤٥)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٣٠٣٩).

(٤) مصنف ابن أبي شيبة (٣٥١٦٨).

يُغلق على العبد أبواب التوفيق:

قال الفضيل بن عياض: «من استحوذ عليه الهوى واتباع الشهوات؛ انقطعت عنه موارد التوفيق»[١].

فصاحب الهوى يتخبط في طريقه، ولا يوفَّق إلى الطريق المستقيم؛ لأنه أعرض عن مصدر الهداية والتوفيق، وصار متبعاً هواه، لا للكتاب والسنة، فكيف يوفَّق للطريق الصحيح!، قال سبحانه: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ٢٣].

الهوى سبب لتلاشي الطاعة وانعدامها

لأن صاحب الهوى يعزّ عليه ويكبر في نفسه أن يطيع غيره، حتى لو كان خالقه، وبعض الناس ما أوقعهم في الكفر إلا هذا؛ لأن الهوى تمكّن من قلبه وملك عليه أقطار نفسه، فصار له أسيراً، وصار هواه موقعاً له في الغرور، والإنسان ليس له قلبان في جوفه، فإما أن يطيع ربه، وإما أن يطيع نفسه وهواه وشيطانه.

سبب للاستهانة بالذنوب والآثام:

فإن المتبع للهوى يقسو قلبه، وإذا قسا القلب استهان بالذنوب والآثام، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «إِنَّ الـمُؤْمِنَ يَرَى ذُنُوبَهُ كَأَنَّهُ قَاعِدٌ تَحْتَ جَبَلٍ يَخَافُ أَن يَقَعَ عَلَيهِ، وَإِنَّ الفَاجِرَ يَرَى ذُنُوبَهُ كَذُبَابٍ مَرَّ عَلَى أَنفِهِ فَقَالَ بِهِ هَكَذَا»[٢].

سبب للابتداع في الدين:

قال حماد بن سلمة رحمه الله: «حدثني شيخ للرافضة تاب، قال: كنا إذا اجتمعنا واستحسنا شيئاً جعلناه حديثاً»[٣].

(١) روضة المحبين (ص٤٧٩).
(٢) رواه البخاري (٦٣٠٨).
(٣) الجامع لأخلاق الراوي (١/١٣٨).

سبب لضيق المعيشة وعداوة الناس:

إن أصل العداوة والشر والحسد الواقع بين الناس من اتباع الهوى، فمن خالف هواه أراح قلبه وبدنه وجوارحه؛ فاستراح وأراح، ومن أطاع هواه عاش عيشة مظلمة، وكره الناس وكرهوه.

وقال الحسن: «حادثوا هذه القلوب بذكر الله، فإنها سريعة الدثور، واقدعوا هذه الأنفس فإنها طلاعة، وإنها تنزع إلى شر غاية، وإنكم إن تطيعوها في كل ما تنزع إليه، لا تبقي لكم شيئا»[1].

وقال أبو بكر الوراق رحمه الله: «إذا غلب الهوى أظلم القلب، وإذا أظلم القلب ضاق الصدر، وإذا ضاق الصدر ساء الخلق، وإذا ساء الخلق أبغضه الخلق، وإذا أبغضه الخلق أبغضهم»[2].

ثم إذا كبر الإنسان وبلغ مبلغ الشيخوخة وجد مساوئ اتباعه هواه، قال الشاعر:

مَآرِبُ كانَت في الشَّبابِ لِأَهلِها عِذاباً فَصارَت في المَشيبِ عَذاباً[3]

أي: مآرب وحاجات كانت عذبة وجميلة للمرء عندما كان شاباً؛ انقلبت عليه عذاباً في مشيبه.

سبب تمكين الإنسان لعدوه منه:

فإنّ أعدى عدو للمرء شيطانه، وأصدق صديق له عقله الناصح له، والملَك الذي يلهمه الخير، فإذا اتبع هواه أعطى نفسه بيده لعدوه واستأسر له، وهذا يعنيه جهد البلاء، ودرك الشقاء، وسوء القضاء، وشماتة الأعداء.

وكان يقال: «إذا غلب عليك عقلك فهو لك، وإذا غلب هواك فهو لعدوِّك»[4].

---

(١) الزهد لابن المبارك (١/ ٩١).

(٢) ذم الهوى (ص٢٩).

(٣) الفوائد (ص٤٦).

(٤) بهجة المجالس وأنس المجالس (ص١٧٢).

سبب لنيل ذم الناس:

يقال: إن هشام بن عبد الملك لم يقل بيت شعر قط، إلا هذا البيت:

إِذا أَنتَ لَمْ تَعصِ الهَوَى قادَكَ الهَوَى ... إلى بَعضِ ما فيهِ عَلَيكَ مَقالُ[1]

قال ابن عبد البر رحمه الله: «لو قال: إلى كل ما فيه عليك مقال؛ كان أبلغ وأحسن»[2].

وللشافعي:

إِذا حـارَ وَهمُـــكَ في مَعنيَيـــنِ ... وَأَعيـاكَ حَيـثُ الهَـوَى والصَّـواب

فَـدَعْ مـا هَوِيـــتَ فَـإِنَّ الهَـــوَى ... يَقُـودُ النُّفُـوسَ إلى مـا يُعـابُ[3]

سبب للذلّ والهوان:

قال ابن المبارك:

وَمِـنَ البَـلاءِ وَلِلبَـلاءِ عَلامَـــةٌ ... أَن لا تَـرَى لَـكَ عَـن هَـواكَ نُـزُوعُ

العَبـدُ عَبـدُ النَّفـسِ في شَـهَواتِها ... والحُـرُّ يَشـبَعُ مَـرَّةً وَيَجُـوعُ[4]

وسئل أحد الحكماء عن الهوى، فقال: «هوانٌ سُرقت نونه». وقد أخذ ذلك المعنى أحد الشعراء، فصاغه بقوله:

نُونُ الهَوانِ مِنَ الهَوَى مَسرُوقَةٌ ... فَإِذا هَوِيتَ فَقَد لَقِيتَ هَوانا[5]

(١) البداية والنهاية (٩/ ٣٥٢)

(٢) بهجة المجالس وأنس المجالس (ص١٧١)

(٣) بهجة المجالس وأنس المجالس (ص١٧١)

(٤) تاريخ دمشق (٣٢/ ٤٦٨)

(٥) تفسير القرطبي (١٦/ ١٦٨)

وقال الشاعر:

وَلَقَدْ رَأَيْـــتُ مَعاشِراً جَمَحَتْ بِهِــم	تِلْكَ الطَّبِيعَةُ نَحْــوَ كُلِّ تَبارِ
تَهْــوَى نُفُوسُهُمُ هَوَى أَجْسامِهِــم	شُغْـلاً بِكُلِّ دَنَــاءَةٍ وَصَـغـارِ
تَبِعُوا الهَوَى فَهَوَى بِهِم وَكَذا الهَوَى	مِنهُ الهَــوانُ بِأَهْلِــهِ فَحَــذارِ
فانظُـــرْ بِعَيْنِ الحَقِّ لا عَيْنِ الهَــوَى	فالحَقُّ لِلعَيْنِ الجَلِيَّةِ عــارِي[1]
قادَ الهَــوَى الفُجّارَ فانقادُوا لَــهُ	وأبَتْ عَلَيهِ مَقادَةَ الأَبْــرارِ[2]

* * *

(١) عاري: واضح، ليس عليه غطاء يستره ويخفيه.

(٢) التبصرة لابن الجوزي (١/ ١٥٥).

فوائد مخالفة الهوى

قال عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ اللَّهُ: «أفضل الجهاد: جهاد الهوى»[1].

وقال سفيان الثوري رَحِمَهُ اللَّهُ: «أشجع الناس: أشدهم من الهوى امتناعاً، ومن الـمُحَقَّراتِ تُنْتَجُ الموبقات»[2].

والعلاج الحقيقي لأدواء القلوب في مخالفة الهوى، يقول سهل بن عبد الله رَحِمَهُ اللَّهُ: «هواك داؤك، فإن خالفته فدواؤك»[3]. فما هي الفوائد المترتبة على مخالفة الإنسان هوى نفسه؟

نيل الجنة

قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٣٧-٤١].

فمَن جاهد نفسه وصابرها على مخالفة هواها نال أفضل الجزاء يوم القيامة، وذلك بدخول الجنة، والعيش الهنيء والحسن، وذلك جزاء الصبر على الهوى، قال تعالى: ﴿وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾ [الإنسان: ١٢].

قال أبو سليمان الداراني رَحِمَهُ اللَّهُ: «﴿وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾ أي: بما صبروا عن الشهوات»[4].

وَآفَةُ العَقلِ الهَوَى فَمَن عَلا عَلَى هَواهُ عَقلُه فَقَد نَجا[5]

---

(١) الآداب الشرعية (٣/ ٢٥١).

(٢) الآداب الشرعية (٣/ ٢٥١).

(٣) تفسير القرطبي (١٦/ ١٤٤).

(٤) حلية الأولياء (٩/ ٢٦٨).

(٥) الاستذكار (٢/ ٣٦٤).

النجاة من أهوال يوم المحشر:

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «سَبعةٌ يُظِلُّهُمُ اللهُ تَعالَى في ظِلِّهِ، يَومَ لاَ ظِلَّ إلّا ظِلُّهُ: إمامٌ عَدلٌ، وَشابٌّ نَشَأَ في عِبادَةِ اللهِ، وَرَجُلٌ قَلبُهُ مُعَلَّقٌ في المَساجِدِ، وَرَجُلاَنِ تَحابّا في اللهِ، اجتَمَعا عَلَيهِ، وَتَفَرَّقا عَلَيهِ، وَرَجُلٌ دَعَتهُ امرَأَةٌ ذاتُ مَنصِبٍ وَجَمالٍ فَقالَ: إنّي أَخافُ اللهَ، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخفاها؛ حَتَّى لاَ تَعلَمَ شِمالُهُ ما تُنفِقُ يَمينُهُ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللهَ خالِياً، فَفاضَت عَيناهُ»[1]

قال ابن القيم رحمه الله: «إذا تأملت السبعة الذين يظلهم الله عز وجل في ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله؛ وجدتهم إنما نالوا ذلك الظل بمخالفة الهوى؛ فإن الإمام المسلط القادر لا يتمكن من العدل إلا بمخالفة هواه، والشاب المؤثر لعبادة الله على داعي شبابه لولا مخالفة هواه لم يقدر على ذلك، والرجل الذي قلبه معلق بالمساجد إنما حمله على ذلك مخالفة الهوى الداعي له إلى أماكن اللذات، والمتصدق المخفي لصدقته عن شماله لولا قهره لهواه لم يقدر على ذلك، والذي دعته المرأة الجميلة الشريفة فخاف الله عز وجل وخالف هواه، والذي ذكر الله عز وجل خالياً ففاضت عيناه من خشيته إنما أوصله إلى ذلك مخالفة هواه، فلم يكن لحَرِّ الموقف وعَرَقه وشدته سبيل عليهم يوم القيامة، وأصحاب الهوى قد بلغ منهم الحَرّ والعَرَق كل مبلغ، وهم ينتظرون بعد هذا دخول سجن الهوى»[2].

الشرف والعلو:

قال معاوية رضي الله عنه: «المروءة: ترك الشهوات وعصيان الهوى، فاتباع الهوى يُزمِن[3] المروءة، ومخالفته تنعشها»[4].

وقيل للمهلب بن أبي صفرة رحمه الله: «بِمَ نلت ما نلت من شرف العلو والمكانة؟ قال: بطاعة الحزم، وعصيان الهوى»[5].

---

(١) رواه البخاري (١٤٢٣)، ومسلم (١٠٣١).

(٢) روضة المحبين (ص٤٨٥-٤٨٦)

(٣) أي: يصيبها بمرض مُزمِن، وهو المرض الذي يدوم زمناً طويلاً

(٤) روضة المحبين (ص٤٧٧-٤٧٨)

(٥) العقل وفضله لابن أبي الدنيا (٩٢)

وقال بعضهم: «أشرف العلماء: من هرب بدينه من الدنيا، واستصعب قياده على الهوى»[1].

وقال أبو علي الدقاق رَحِمَهُ اللَّهُ: «مَن ملك شهوته في حال شبيبته؛ أعزه الله تعالى في حال كهولته»[2].

قال ابن عبد القوي رَحِمَهُ اللَّهُ:

فَمَن هَجَرَ اللَّذَّاتِ نالَ المُنى وَمَن ... أَكَبَّ عَلى اللَّذّاتِ عَضَّ عَلَى اليَدِ
وَفي قَمعِ أَهواءِ النُّفُوسِ اعتِزازُها ... وَفي نَيلِها ما تَشتَهي ذُلُّ سَرمَدِ
وَلا تَشتَغِل إِلّا بِما يُكسِبُ العُلا ... وَلا تُرضِ النَّفسَ النَّفيسَةَ بِالرَّدِي
وَفي خَلوَةِ الإِنسانِ بِالعِلمِ أُنسُهُ ... وَيَسلَمُ دِينُ المَرءِ عِندَ التَّوَحُّدِ
وَيَسلَمُ مِن قِيلٍ وَقالٍ وَمِن أَذى ... جَليسٍ وَمِن واشٍ بَغِيضٍ وَحُسَّدِ
فَكُن حِلسَ بَيتٍ فَهوَ سِترٌ لِعَورَةٍ ... وَحِرزُ الفَتى عَن كُلِّ غاوٍ وَمُفسِدِ
وَخَيرُ جَليسِ المَرءِ كُتبٌ تُفيدُهُ ... عُلُوماً وَآداباً وَعَقلاً مُؤَيَّدِ[3]

تقوية العزائم:

اتباع الهوى يحل العزائم ويوهنها، ومخالفة الهوى تشد العزائم وتقويها، والعزيمة هي مركب العبد إلى الله والدار الآخرة، فمتى تعطل المركوب تعطل المسافر.

قيل ليحيى بن معاذ رَحِمَهُ اللَّهُ: «من أصح الناس عزماً؟ قال: الغالب هواه»[4].

حفظ الصحة

قال ابن رجب رَحِمَهُ اللَّهُ: «كان بعض العلماء قد جاوز المائة سنة، وهو ممتَّع بقوته وعقله، فوثب يوماً وثبة شديدة، فعوتب في ذلك، فقال: هذه جوارح حفظناها عن المعاصي في

(١) ذم الهوى (ص٢٧).

(٢) روضة المحبين (ص٤٨٣).

(٣) الآداب الشرعية (٣/ ٣٠٣-٣٠٤).

(٤) ذم الهوى (ص٢٦).

الصغر، فحفظها الله عليه في الكبر. وعكس هذا: أن بعض السلف رأى شيخاً يسأل الناس فقال: إن هذا ضعيف، ضيع اللهَ في صغره، فضيعه الله في كبره»[١].

الحفظ من بلاء الدنيا:

قال إبراهيم بن أدهم رحمه الله: «أَشَدُّ الجِهادِ: جِهادُ الهَوَى، مَن مَنَعَ نَفسَهُ هَواها فَقَدِ استَراحَ مِنَ الدُّنيا وَبَلائها، وَكانَ مَحفُوظاً مُعافًى مِن أذاها»[٢].

***

(١) جامع العلوم والحكم (ص١٨٦).

(٢) الزهد الكبير للبيهقي (ص٣٢٠).

علاج الهوى

من وقع في الهوى يحتاج إلى طرق لعلاج نفسه من هواها؛ لعل الله أن يرحمه ويلحقه بالصالحين.

ومن أهم الأدوية النافعة في علاج الهوى:

أولاً: الرجوع إلى الله سبحانه وتعالى، ودعاؤه عز وجل أن يقيه شر هذه الأهواء، وقد كان هذا دأب النبي صلى الله عليه وسلم، والسلف الصالح.

عن قطبة بن مالك رضي الله عنه قال: كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِن مُنْكَرَاتِ الأَخْلاقِ والأَعْمالِ والأَهْواءِ**»[1].

وقال عمر بن عبد العزيز لخالد بن صفوان رحمهما الله: عظني وأوجز، فقال: «يا أمير المؤمنين، إن أقواماً غرهم ستر الله، وفتنهم حسن الثناء، فلا يغلبن جهل غيرك بك علمك بنفسك، أعاذنا الله وإياك أن نكون بالستر مغرورين، وبثناء الناس مسرورين، وعما افترض الله علينا متخلفين ومقصرين، وإلى الأهواء مائلين». فبكى، ثم قال: «أعاذنا الله وإياك من اتباع الهوى»[2].

وكان إبراهيم التيمي رحمه الله يدعو ويقول: «اللهم اعصمني بكتابك، وسنة نبيك محمد صلى الله عليه وسلم، من الاختلاف في الحق، ومن اتباع الهوى بغير هدى منك، ومن سبيل الضلال، ومن شبهات الأمور، ومن الزيغ، واللبس، والخصومات»[3].

(١) رواه الترمذي (٣٥٩١)، وحسنه، وصححه الألباني.

(٢) حلية الأولياء (٨/ ١٨).

(٣) حلية الأولياء (٤/ ٢١٢).

ثانياً: ملء القلب بما يضاد الهوى:

وذلك بملئه بمحبة الله عَزَّوَجَلَّ، والقرب منه، حتى يخرج الهوى بالكلية من هذا القلب.

ثالثاً: مخالطة العلماء وأهل الصلاح:

قال ابن عبد القوي رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَخالِط إِذا خالَطتَ كُلَّ مُوَفَّقٍ ... مِنَ العُلَماءِ أَهلِ التُّقى والتَّسَدُّدِ
يُفيدُكَ مِن عِلمٍ وَيَنهاكَ عَن هَوًى ... فَصاحِبهُ تُهدَ مِن هُداهُ وَتَرشُدِ
وَإِيّاكَ والهَمّازَ إِن قُمتَ عَنهُ والـ ... ـبَذِيَّ فَإِنَّ المَرءَ بِالمَرءِ يَقتَدي
وَلا تَصحَبِ الحَمقى فَذُو الجَهلِ إِن يَرُم ... صَلاحاً لِشَيءٍ يا أَخا الحَزمِ يُفسِدِ[1]

وقد ذكر ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ جملةً من الأمور التي يمكن للمرء أن يتخلص من الهوى بالاستعانة بها -بعد عون الله له- فقال: «فإن قيل: فكيف يتخلص من هذا من قد وقع فيه؟

قيل: يمكنه التخلص -بعون الله وتوفيقه له- بأمور نذكر منها:

أحدها: عزيمة حُرٍّ يغار لنفسه، وعليها.

الثاني: جرعة صبر، يصبر نفسه على مرارتها تلك الساعة.

الثالث: قوة نفس تشجعه على شرب تلك الجرعة، والشجاعة كلها صبر ساعة، وخير عيش أدركه العبد بصبره.

الرابع: ملاحظته حسن موقع العاقبة، والشفاء بتلك الجرعة.

الخامس: ملاحظته الألم الزائد على لذة طاعة هواه.

السادس: إبقاؤه على منزلته عند الله تعالى، وفي قلوب عباده، وهو خير وأنفع له من لذة موافقة الهوى.

السابع: إيثاره لذة العفة وعزتها وحلاوتها، على لذة المعصية.

الثامن: فرحه بغلبة عدوه، وقهره له، ورده خاسئاً بغيظه وغمه وهمه، حيث لم ينل منه أمنيته، والله تعالى يحب من عبده أن يراغم عدوه ويغيظه. كما قال الله تعالى في كتابه العزيز:

---

(١) الآداب الشرعية (٣/ ٣٠٤).

﴿وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَـٰلِحٌ﴾ [التوبة: ١٢٠]. وعلامة المحبة الصادقة مغايظة أعداء المحبوب ومراغمتهم.

التاسع: معرفة أن مخالفة الهوى توجب شرف الدنيا وشرف الآخرة، وعز الظاهر وعز الباطن، ومتابعته تضع العبد في الدنيا والآخرة، وتذله في الظاهر وفي الباطن»[1].

***

(١) انظر: «روضة المحبين» (ص٤٧١-٤٨٥).

الهوى المحمود والهوى المذموم

لا ينبغي ذم الهوى مطلقاً، ولا مدحه مطلقاً، وإنما يذم الإفراط فيه، فما زاد على جلب المنافع ودفع المضار: أصبح مذموماً.

وهناك هوًى محمود، يحبه الله ورسوله، وذلك عندما تصبح النفس تهوى ما يحبه الله ورسوله.

عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: «كنت أغار على اللاتي وهبن أنفسهن لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأقول: أتهب المرأة نفسها؟ فلما أنزل الله تعالى: ﴿تُرْجِي مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِيٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُۖ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ﴾ [الأحزاب: ٥١] قلت: ما أرى ربك إلا يسارع في هواك»[١].

فالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يهوى بعض الأمور، وكان سبحانه وتعالى يُنزل القرآن موافقاً هواه؛ مما يدل على أن ما تهواه النفس ما هو محمود وممدوح.

ومن الأمور التي كان يهواها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أن تنتقل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة، وسبب ذلك -كما ذكره العلماء- أنه كان يهوى اتباع قبلة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ[٢].

وعن أبي برزة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**إِنَّ مِمَّا أَخْشَى عَلَيْكُمْ: شَهَوَاتِ الْغَيِّ فِي بُطُونِكُمْ وَفُرُوجِكُمْ، وَمُضِلَّاتِ الْهَوَى**»[٣].

(١) رواه البخاري (٤٧٨٨).

(٢) تفسير الطبري (٢/ ٢٢).

(٣) رواه أحمد (١٩٧٨٧)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب (٥٢).

فلم يخشَ النبي صلى الله عليه وسلم على أمته جميع الهوى؛ بل خشي عليهم مضلات الهوى، فالهوى قد يكون مضلاً وهو الذي يتصور منه إفساد العقل والدين، وأما الهوى غير المضل فليس كذلك؛ لأجل هذا لم يحذر النبي صلى الله عليه وسلم منه.

ولكن الهوى المذموم أكثر، ولأجل ذلك نجد كثيراً من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية والآثار عن السلف من الصحابة والتابعين ومن بعدهم تذم الهوى، وإنما يُراد بتلك النصوص: الهوى المذموم، لا مطلق الهوى.

قال ابن القيم رحمه الله: «لما كان الغالب من مطيع هواه وشهوته أنه لا يقف فيه على حد المنتفع به؛ أطلق ذم الهوى والشهوة؛ لعموم غلبة الضرر، ولأنه يندر من يقصد العدل في ذلك، ويقف عنده؛ فلذلك لم يذكر الله تعالى الهوى في كتابه إلا ذمه، وكذلك في السنة، لم يجئ إلا مذموماً، إلا ما جاء منه مقيداً»[1].

ومما ورد في السنة من الهوى الذي لا يذم: حديث عائشة رضي الله عنها السابق.

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: **«لا يُؤمِنُ أَحَدُكُم حَتَّى يَكُونَ هَوَاهُ تَبَعاً لِمَا جِئْتُ بِهِ»**[2].

فدلّ الحديث على أن هناك من الهوى ما يكون محموداً، وهو الهوى الذي يكون تبعاً لما جاءت به الشريعة السمحاء.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما -في قصة أسرى بدر- قال: لمّا أَسَرُوا الأُسَارَى، قال رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم لِأَبِي بَكْرٍ، وعُمَرَ: **«ما تَرونَ في هَؤُلاءِ الأُسَارَى؟»** فقال أَبو بَكْرٍ: يا نَبِيَّ اللهِ، هُم بَنُو العَمِّ والعَشِيرَةِ، أَرَى أَن تَأْخُذَ مِنهُم فِديَةً؛ فَتَكُونُ لَنَا قُوَّةً عَلَى الكُفَّارِ، فَعَسَى اللهُ أَن يَهدِيَهُم لِلإِسلامِ، فقال رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: **«ما تَرَى يا ابنَ الخَطَّابِ؟»** قال عمر: قُلتُ: لا واللهِ يا رَسُولَ اللهِ، ما أَرَى الَّذِي رَأَى أَبُو بَكرٍ، وَلَكِنِّي أَرَى أَن تُمَكِّنَّا فَنَضرِبَ أَعناقَهُم، فَتُمَكِّنَ عَلِيّاً مِن عَقِيلٍ فَيَضرِبَ عُنُقَهُ، وتُمَكِّنِّي مِن فُلانٍ -نَسِيباً لِعُمَرَ- فَأَضرِبَ عُنُقَهُ؛ فَإِنَّ

(١) روضة المحبين (ص٤٦٩) بتصرف.

(٢) رواه النووي في كتاب الأربعين (٨)، وفي إسناده ضعف.

هَـؤُلاءِ أَئِمَّـةُ الكُفْـرِ وَصَنادِيدُها. فَهَوِيَ رَسُـولُ اللهِ ﷺ مـا قالَ أَبُو بَكْـرٍ، وَلَمْ يَهْوَ ما قُلْتُ...»[1].

فهذا نبي الرحمة ﷺ مال إلى قول الصديق وهويه؛ لأنه رأى فيه مصلحة الإسلام، فهو هوًى محمود؛ لأنه عن اجتهاد مبني على علم، مع أن القرآن نزل مصوّباً لرأي عمر بعد ذلك.

***

(١) رواه مسلم (١٧٦٣).

الخاتمة

إن مجاهدة الهوى أمرٌ شديد، وشاق على النفس، وعلى الجسد، ولكن نتيجته حسنة، وثمرته لذيذة، لا يتحلى عنها إلا أصحاب الهمم الضعيفة السقيمة، يقول أبو العتاهية:

أَشَدُّ الجِهادِ جِهادُ الهَوَى ... وَما كَرَّمَ المَرءَ إِلّا التُّقَى[1]

وقال الشاعر:

صَبَرتُ عَنِ اللَّذّاتِ حَتَّى تَوَلَّتِ ... وَأَلزَمتُ نَفسِي صَبرَها فاستَمَرَّتِ

وَكانَت عَلَى الأَيّامِ نَفسِي عَزِيزَةً ... فَلَمّا رَأَت صَبرِي عَلَى الذُّلِّ ذَلَّتِ

وَما النَّفسُ إِلا حَيثُ يَجعَلُها الفَتَى ... فَإِن أُطمِعَت تاقَت وَإِلا تَسَلَّتِ[2]

وأكبر علامات عدم اتباع الهوى: هو الابتعاد عن زينة الحياة الدنيا وزخرفها، يقول مالك بن دينار رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «مَن تباعد من زهرة الحياة الدنيا، فذلك الغالب هواه»[3].

والهوى يدخل على جميع الناس، وليس مختصًا بالجهال، أو بالصغار، بل يدخل قلوب العلماء، ويدخل قلوب أصحاب العقل والرأي والمشورة، ويدخل قلوب الكبار والصغار، والرجال والنساء.

قال بعض الحكماء: «إنما يحتاج اللبيب ذو الرأي والتجربة إلى المشورة؛ ليتجرد له رأيه من هواه»[4].

---

(١) مجمع الحكم والأمثال (١٠/ ٤٩٦).

(٢) ذم الهوى (ص١٤٣).

(٣) حلية الأولياء (٢/ ٣٦٤).

(٤) بهجة المجالس وأنس المجالس (ص١٧١).

فليس لأحد أن يقول: إن النهي عن اتباع الهوى لا يشملني؛ لأني لا أتبع هواي.

قال منصور الفقيه رحمه الله:

إِنَّ المَرائِيَ لا تُرِيكَ خُدُوشَ وَجهِكَ في صَداها

وَكَذاكَ نَفسُكَ لا تُرِيكَ عُيُوبَ نَفسِكَ في هَواها[1]

بل قد يدخل الهوى قلوب أعقل الرجال، وأكثرهم تديناً وعلماً.

فنسأل الله سبحانه وتعالى أن يكفينا دواعي الهوى، وأن يصرف عنا سبل الردى، وأن يجعل التوفيق لنا رائداً.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله، وصحبه أجمعين.

* * *

(١) فصل المقال في شرح كتاب الأمثال، لأبي عبيد البكري (ص٢٧٥).

اختبر فهمك

فيما يلي مستويان من الأسئلة حول الموضوع: أسئلة حلولها مباشرة، وهي أسئلة المستوى الأول.

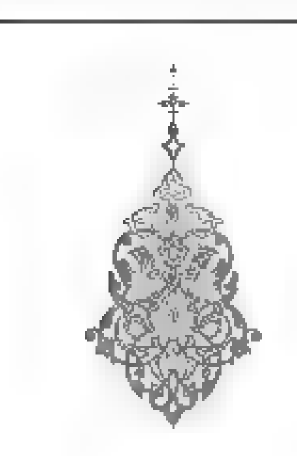
وأسئلة تحتاج إلى بحث وتأمل، وهي أسئلة المستوى الثاني.

أسئلة المستوى الأول (المباشرة):

١. عرّف الهوى في اللغة والاصطلاح.
٢. لاتباع الهوى أسباب، اذكر أبرزها.
٣. لاتباع الهوى مفاسد وأضرار متعددة، فما هي؟
٤. اتباع الهوى داء، فما دواؤه؟

أسئلة المستوى الثاني (الاستنباطية):

١. متى يعاقَب الإنسان على اتباع الهوى؟
٢. لمخالفة الهوى فوائد متعددة، اذكر ما تيسر منها.
٣. ما القاسم المشترك بين السبعة الذين يظلهم الله تحت ظل عرشه يوم القيامة؟ وضح ذلك.
٤. ما هي أكبر علامة على عدم اتباعك للهوى؟



حب الرئاسة



مقـــدمة

الحمـد لله رب العالمين، والصلاة والسـلام على أشرف المرسـلين، نبينا محمد، وعلى آله، وأصحابه أجمعين.

أما بعد:

فإن مما يُفسـد إخلاص القلب وتوحيـده، ويزيد تعلقه بالدنيـا، وإعراضه عن الآخرة حب الرئاسـة، فهو مرض عضال؛ تُنفَق في سـبيله الأموال، وتُراق له الدماء، وتنشـأ بسببه العداوة والبغضاء بين الأخ وأخيه، بل الابن وأبيه؛ ولذا سُمي هذا المرض: بالشهوة الخفية.

وسنتناول هذا الموضوع الخطير بشيء من التفصيل، وذلك ببيان الأصل في تسمية حب الرئاسة بالشهوة الخفية، ثم بيان أهمية الولايات، وحاجة الناس إليها، وموقف المسلم منها، ثم نذكر صوره، ومظاهره، وأسبابه، وعلاجه.

ولا يفوتني أن أشكر كل من ساهم في إعداد هذه المادة، وإخراجها بالصورة المرضية.

واللهَ نسألُ للجميع العلم النافع، والعمل الصالح.

* * *

تسمية حب الرئاسة بالشهوة الخفية

أصل هذه التسمية جاءت عن شداد بن أوس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال الزهري: تسجَّى شداد بن أوس بثوب، ثم بكى، وبكى، فقال له قائل: ما يبكيك يا أبا يعلى؟ قال: «إن أخوف ما أخاف عليكم الشهوة الخفية، والرياء الظاهر، إنكم لن تؤتوا إلا من قبل رؤوسكم، إنكم لن تؤتوا إلا من قبل رؤوسكم، إنكم لن تؤتوا إلا من قبل رؤوسكم، الذين إن أُمِرُوا بخير أُطيعوا، وإن أُمِرُوا بشر أُطيعوا، وما المنافق؟ إن المنافق كالجمل، اختنق، فمات في رِبقِهِ، لن يعدو شرُّه نفسه»[1].

وفسر الإمام أبو داود السجستاني رَحِمَهُ اللَّهُ الشهوة الخفية بحب الرئاسة، فقد سئل: ما الشهوة الخفية؟ فقال: «حب الرئاسة»[2].

والظاهر -والله أعلم- أن هذا من باب التفسير بالمثال، قال أبو عبيد رَحِمَهُ اللَّهُ: «الشهوة الخفية قد اختلف الناس فيها، فذهب بعضهم إلى شهوة النساء، وغير ذلك من الشهوات، وهو عندي ليس بمخصوص بشيء واحد، ولكنه في كل شيء من المعاصي، يضمره صاحبه ويصر عليه، وإنما هو الإصرار، وإن لم يعمله»[3].

وقد اشتهر عند أهل العلم تفسير أبي داود للشهوة الخفية بحب الرئاسة، فصار علماً عليها، إلا لقرينة تبين خلاف ذلك.

(١) الزهد لابن المبارك (٢/١٦).

(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية (١٠/٢١٥).

(٣) غريب الحديث (٤/١٧١).

قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «مما يبين أن الإنسان قد يخفى عليه كثير من أحوال نفسه فلا يشعر بها، أنَّ كثيراً من الناس يكون في نفسه حب الرياسة كما لا يشعر به، بل إنه مخلص في عبدته، وقد خفيت عليه عيوبه، وكلام الناس في هذا كثير مشهور؛ وهذا سميت هذه: الشهوة الخفية»[1].

* * *

(١) مجموع الفتاوى (١٦/ ٣٤٦)

حاجة الناس إلى الولاية

قال ابن تيمية رحمه الله: «ولاية أمر الناس من أعظم واجبات الدين، بل لا قيام للدين والدنيا إلا بها، فإن بني آدم لا تتم مصلحتهم إلا بالاجتماع لحاجة بعضهم إلى بعض، ولابد لهم عند الاجتماع من رأس، حتى قال النبي ﷺ: «**إذا خَرَجَ ثَلاثَةٌ في سَفَرٍ فَلْيُؤَمِّرُوا أَحَدَهُم**»[1].

فأوجب ﷺ تأمير الواحد في الاجتماع القليل العارض في السفر؛ تنبيها بذلك على سائر أنواع الاجتماع، ولأن الله تعالى أوجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولا يتم ذلك إلا بقوة وإمارة، وكذلك سائر ما أوجبه من الجهاد، والعدل، وإقامة الحج، والجمع، والأعياد، ونصر المظلوم، وإقامة الحدود، لا تتم إلا بالقوة والإمارة ... ويقال: ستون سنة من إمام جائر، أصلح من ليلة واحدة بلا سلطان. والتجربة تُبيِّنُ ذلك»[2].

فالناس - إذن - محتاجون في كل أمر من أمورهم العامة إلى من يدير هذا الأمر، ويرأس شئونه، ويتحمل مسئولياته، وتبعاته.

موقف المسلم من الولاية

عن عبد الرحمن بن سَمُرة رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: «**يا عَبدَ الرَّحمَنِ، لا تَسأَلِ الإمارَةَ، فإنَّكَ إن أُوتِيتَها عَن مَسأَلَةٍ وُكِلتَ إلَيها، وَإن أُوتِيتَها مِن غَيرِ مَسأَلَةٍ أُعِنتَ عَلَيها**»[3].

(١) رواه أبو داود (٢٦٠٨)، وحسنه الألباني.

(٢) مجموع الفتاوى (٢٨/ ٣٩٠).

(٣) رواه البخاري (٧١٤٧)، ومسلم (١٦٥٢).

قال أبو موسى رضي الله عنه: أقبلت إلى النبي صلى الله عليه وسلم ومعي رجلان من الأشعريين، أحدهما عن يميني، والآخر عن يساري، فكلاهما سأل العمل، والنبي صلى الله عليه وسلم يستاك، فقال: «**يا أَبا مُوسَى -أَو يا عَبْدَ الله بنَ قَيس-**»، قال: فقلت: والذي بعثك بالحق ما أطلعاني على ما في أنفسهما، وما شعرت أنهما يطلبان العمل! قال: وكأني أنظر إلى سواكه تحت شفته، وقد قلصت، فقال: «**لَن -أَو لا- نَستَعمِلُ عَلَى عَمَلِنا مَن أَرادَهُ، وَلَكِنِ اذهَب أَنتَ يا أَبا مُوسَى -أَو يا عَبدَ الله بنَ قَيس-**» فبعثه على اليمن[1].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**إِنَّكُم سَتَحرِصُونَ عَلَى الإِمارَةِ، وَسَتَكُونُ نَدامَةً يَومَ القِيامَةِ، فَنِعمَتِ المُرضِعَةُ، وَبِئسَتِ الفاطِمَةُ**»[2].

قال ابن حجر رحمه الله: «نِعمَ المرضعة؛ لما فيها من حصول الجاه، والمال، ونفاذ الكلمة، وتحصيل اللذات الحسية والوهمية حال حصولها، وبئست الفاطمة، عند الانفصال عنها بموت، أو غيره، وما يترتب عليه من التبعات في الآخرة»[3].

قال السعدي رحمه الله: «الإمارة وغيرها من الولايات على الخلق، لا ينبغي للعبد أن يسألها ويتعرض لها، بل يسأل الله العافية والسلامة، فإنه لا يدري هل تكون الولاية خيرا له أو شرا؟ ولا يدري هل يستطيع القيام بها أم لا؟ فإذا سألها وحرص عليها؛ وُكِلَ إلى نفسه، ومتى وُكِلَ العبدُ إلى نفسه؛ لم يوفق، ولم يسدد في أموره، ولم يُعَن عليها؛ لأن سؤالها ينبئ عن محذورين:

الأول: الحرص على الدنيا، والرئاسة، والحرص يحمل على الريبة في التخوض في مال الله، والعلو على عباد الله.

والثاني: فيه نوع اتكال على النفس، وانقطاع عن الاستعانة بالله.

وأما من لم يحرص عليها ولم يستشرف لها، بل أتته من غير مسألة، ورأى من نفسه عدم قدرته عليها: فإن الله يُعينه عليها، ولا يكله إلى نفسه؛ لأنه لم يتعرض للبلاء، ومن جاءه

---

(١) رواه البخاري (٦٩٢٣)، ومسلم (١٧٣٣).

(٢) رواه البخاري (٧١٤٨).

(٣) فتح الباري (١٣/ ١٢٦).

البلاء بغير اختياره حمل عنه، ووفق للقيام بوظيفته، وفي هذه الحال يقوى توكله على الله تعالى، ومتى قام العبد بالسبب متوكلا على الله نجح.

وفي قوله ﷺ: «أُعِنتَ عَلَيها» دليل على أن الإمارة وغيرها من الولايات الدنيوية جامعة للأمرين: للدين، والدنيا، فإن المقصود من الولايات كلها إصلاح دين الناس، ودنياهم

ولهذا يتعلق بها الأمر، والنهي، والإلزام بالواجبات، والردع عن المحرمات، والإلزام بأداء الحقوق، وكذلك السياسة، والجهاد، فهي لمن أخلص فيها لله، وقام بالواجب من أفضل العبادات، ولمن لم يكن كذلك من أعظم الأخطار، ولهذا كانت من فروض الكفايات؛ لتوقف كثير من الواجبات عليها»[1].

ولهذا ففي أحوال خاصة يجوز طلب الولاية، كما في قوله تعالى - مخبراً عن قول يوسف عليه السلام لملك مصر -: ﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ ۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٥].

قال السعدي رحمه الله: «طلبها هذه المصلحة التي لا يقوم بها غيره، من الحفظ الكامل، والعلم بجميع الجهات المتعلقة بهذه الخزائن، من حسن الاستخراج، وحسن التصريف، وإقامة العدل الكامل، فهو لما رأى الملك استخلصه لنفسه، وجعله مقدما عليه، وفي المحل العالي، وجب عليه أيضاً النصيحة التامة للملك، والرعية، وهي متعينة في ولايته، ولهذا لما تولى خزائن الأرض سعى في تقوية الزراعة جداً»[2].

وقال ابن القيم رحمه الله: «والفرق بين حب الرئاسة وحب الإمارة للدعوة إلى الله هو: الفرق بين تعظيم أمر الله والنصح له، وتعظيم النفس والسعي في حظها، فإن الناصح لله المعظم له المحب له يحب أن يطاع ربه فلا يعصى، وأن تكون كلمته هي العليا، وأن يكون الدين كله لله، وأن يكون العباد ممتثلين أوامره مجتنبين نواهيه، فقد ناصح الله في عبوديته، وناصح خلقه في الدعوة إلى الله، فهو يحب الإمامة في الدين، بل يسأل ربه أن يجعله للمتقين إماما، يقتدي به المتقون، كما اقتدى هو بالمتقين، ... وهذا بخلاف طلب الرئاسة، فإن طلابها

---

(١) بهجة قلوب الأبرار (ص١٠٥-١٠٦).

(٢) بهجة قلوب الأبرار (ص١٠٦).

يسعون في تحصيلها؛ لينالوا بها أغراضهم من العلو في الأرض، وتعبيد القلوب لهم، وميلها إليهم، ومساعدتهم لهم على جميع أغراضهم، مع كونهم عالين عليهم، قاهرين لهم، فترتب على هذا المطلب من المفاسد ما لا يعلمه إلا الله، من البغي، والحسد، والطغيان، والحقد، والظلم، والفتنة، والحمية للنفس دون حق الله، وتعظيم من حقره الله، واحتقار من أكرمه الله، ولا تتم الرئاسة الدنيوية إلا بذلك، ولا تنال إلا به، وبأضعافه من المفاسد»[1].

***

(١) الروح (ص٢٥٢-٢٥٣).

صور وأحوال حب الرئاسة

للرئاسة صورتان باعتبار الأمر المترأس فيه:

الصورة الأولى: الرئاسة الدنيوية

والصورة الثانية: الرئاسة العلمية الدينية.

قال ابن رجب رحمه الله: «والحرص على الشرف على قسمين. أحدهما: طلب الشرف بالولاية والسلطان والمال، وهذا خطر جداً، وهو في الغالب يمنع خير الآخرة وشرفها وكرامتها وعزّها، قال تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٨٣]»[1].

ثم قال: «القسم الثاني: طلب الشرف والعلو على الناس بالأمور الدينية، كالعلم، والعمل، والزهد، فهذا أفحش من الأول وأقبح، وأشدّ فساداً وخطراً؛ فإن العلم، والعمل، والزهد، إنما يطلب به ما عند الله من الدرجات العلى، والنعيم المقيم، والقرب منه، والزلفى لديه.

قال الثوري: إنما فُضّل العلم لأنه يُتّقى به الله، وإلّا كان كسائر الأشياء.

فإذا طُلِبَ شيء من هذا عَرَضَ الدنيا الفاني، فهو أيضاً نوعان:

أحدهما: أن يُطلب به المال، فهذا من نوع الحرص على المال وطلبه بالأسباب المحرمة.

النوع الثاني: من يطلب بالعلم والعمل والزهد الرئاسة على الخلق والتعاظم عليهم، وأن ينقاد الخلق ويخضعوا له ويصرفون وجوههم إليه، وأن يظهر للناس زيادة علمه على

(١) شرح حديث ما ذئبان جائعان (ص٢٩).

العلماء ليعلو به عليهم، ونحو ذلك، فهذا موعده النار؛ لأن قصد التكبر على الخلق محرم في نفسه، فإذا استعمل فيه آلة الآخرة كان أقبح وأفحش من أن يستعمل فيه آلات الدنيا من المال والسلطان.

عن كعب بن مالك رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم: «مَنْ طَلَبَ العِلمَ لِيُمارِيَ بِهِ السُّفَهاءَ، أو يُجارِيَ بِهِ العُلَماءَ، أو يَصرِفَ وُجُوهَ النَّاسِ إِلَيهِ، أَدخَلَهُ اللهُ النَّارَ»[1][2].

وَلِحُبِّ الرئاسة حالان:

الحالة الأولى: قبل تولي الرئاسة

فمن الناس من يكون حريصًا على الرئاسة، وتبدو عليه مظاهرها وآثارها، ثم قد يتولى، وقد لا يتولى، كما قال تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا﴾ [الإسراء: ١٨].

والحالة الثانية: بعد تولي الرئاسة:

فالإنسان قد يكون زاهدًا في الرئاسة، فإذا تولاها تعلق بها قلبه، وقد يكون متشوفًا لها قبل التولي، ثم يزداد تعلقه بها بعد التولي؛ لأنه يجمع بين التعلق، وخوف زوالها.

قال ابن رجب رحمه الله: «واعلم أن الحرص على الشرف يستلزم ضررًا عظيمًا قبل وقوعه في السعي في أسبابه، وبعد وقوعه بالحرص العظيم الذي يقع فيه صاحب الولاية، من الظلم، والتكبر، وغير ذلك من المفاسد»[3].

***

(١) رواه الترمذي (٢٦٥٤)، وحسنه الألباني في صحيح الترمذي.

(٢) شرح حديث ما ذئبان جائعان (ص٤٧-٥٣)، بتصرف يسير.

(٣) شرح حديث ما ذئبان جائعان (ص٣٢).

مظاهر حب الرئاسة

لحب الرئاسة مظاهر كثيرة، ومن أبرزها ما يأتي:

١ـ منازعة الله عَزَّوَجَلَّ في صفات جلاله، ونعوت كماله:

قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «فأعظم السيئات: جحود الخالق، والشرك به، وطلب النفس أن تكون شريكة، ونداً له، أو أن تكون إلهاً من دونه، وكلا هذين وقع، فإن فرعون طلب أن يكون إلهاً معبوداً دون الله تعالى، وقال: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾ [القصص ٣٨]، وقال: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات ٢٤] وقال لموسى: ﴿لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾ [الشعراء ٢٩] واستخف قومه فأطاعوه.

وإبليس يطلب أن يُعبد ويُطاع من دون الله، فيريد أن يُعبد ويُطاع هو، ولا يعبد الله ولا يطاع.

وهذا الذي في فرعون وإبليس هو غاية الظلم والجهل.

وفي نفوس سائر الإنس والجن شعبة من هذا وهذا، إن لم يُعِن الله العبدَ ويهديه، وإلا وقع في بعض ما وقع فيه إبليس وفرعون بحسب الإمكان»[1].

٢ـ فقدان الإخلاص في العمل:

فطالب الرئاسة غايته الوصول إليها والمحافظة عليها، فيكون ولاؤه وبراؤه، ومنعه وعطاؤه، وحبه وبغضه، من أجلها؛ فيفقد الإخلاص في العمل، فيكون من الهالكين.

(١) مجموع الفتاوى (١٤/ ٣٢٣).

٣. لا يعمل إذا لم يُصَدَّر:

وإذا لم يصدر ترك العمل، وبخل بالمشورة المفيدة، بل ربما ترك غيره يفشل؛ ليتصدر هو ويصبح مكانه.

٤. ذِكر الناس بالعيوب، والطعن فيهم:

ما أحب أحد الرياسة إلا أحب ذكر الناس بالنقائص والعيوب، ليتميز هو بالكمال، ويكره أن يَذكُرَ الناسُ أحداً عنده بخير، ومَن عشق الرياسة فقد تُوُدِّع من صلاحه.

٥. ألّا يدل على من هو أفضل منه في الدين أو العلم:

فيجحد فضائل الآخرين، ويكتم أخبارهم؛ حتى لا يستدل الناس عليهم؛ فيتركوه ويذهبوا إلى الأفضل، أو يخشى أن يقارن الناس بينه وبين الأفضل؛ فتنزل مرتبته عندهم

٦. الحسرة إذا زالت أو أُخذت منه:

فمَن كان ذلك همه ومُخَيِّره تقطعت نفسه كمداً وحسرة عندما تزول رئاسته، وتنتقل لغيره

٧. التكبر على الخلق وسوء معاملتهم.

قال ابن حبان رحمه الله: «الواجب على من يغشى السلطان وامتُحِنَ بصحبته ألا يعد شتمه شتماً، ولا إغلاظه إغلاظاً، ولا التقصير في حقه ذنباً، لأن ريح العزة بسطت لسانه ويده بالغلظة»[1].

وقال ابن القيم رحمه الله: «كثير من الناس يطلب من صاحبه بعد نيله درجة الرئاسة الأخلاق التي كان يعامله بها قبل الرئاسة، فلا يصادفها فينتقض ما بينهما من المودة، وهذا من جهل الصاحب الطالب للعادة، وهو بمنزلة من يطلب من صاحبه إذا سكر أخلاق الصاحي، وذلك غلط؛ فإن للرياسة سكرة كسكرة الخمر أو أشد، ولو لم يكن للرياسة سكرة لما اختارها صاحبها على الآخرة الدائمة الباقية، فسكرتها فوق سكرة القهوة بكثير، ومحال أن يرى من السكران أخلاق الصاحي وطبعه، ولهذا أمر الله تعالى أكرم خلقه عليه

(١) روضة العقلاء ونزهة الفضلاء (ص٢٧٦).

بمخاطبة رئيس القبط بالخطاب اللين، فمخاطبة الرؤساء بالقول اللين أمر مطلوب شرعا وعقلا وعرفا، ولذلك تجد الناس كالمطورين عليه»[1].

٨. عدم التوفيق في الولاية التي يتولاها:

قال ابن رجب رحمه الله: «وقَلَّ من يحرص على رياسة الدنيا بطلب الولايات فيُوَفَّق، بل يوكل إلى نفسه، كما قال النبي ﷺ لعبد الرحمن بن سمرة رضي الله عنه: «يا عبدالرَّحمَنِ، لا تَسألِ الإمارَةَ؛ فإنَّكَ إن أُوتِيتَها عَن مَسألَةٍ وُكِلتَ إلَيها، وإن أُوتِيتَها مِن غَيرِ مسألَةٍ أُعِنتَ عليها»[2]

وكان يزيد بن عبد الله بن موهب من قضاة العدل والصالحين، وكان يقول: «من أحب المال والشرف وخاف الدوائر لم يعدل فيها».

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**إنَّكُم سَتَحرِصُونَ علَى الإمارَةِ، وسَتَكُونُ نَدامَةً يَومَ القِيامَةِ، فَنِعمَتِ المُرضِعَةُ، وبِئسَتِ الفاطِمَةُ**»[3][4].

٩. موالاة الكفار والمشركين:

وهذا أمر معلوم في التاريخ، فقد كان يفعله ملوك الطوائف في الأندلس، وكذلك تجد في هذه الأزمان بعض الناس يوالي الكفار؛ لينال منصبا في منظمة من منظماتهم، أو يحصل على شهادة من إحدى جامعاتهم، أو جائزة من جوائزهم العالمية.

١٠. عدم قبول الحق والرجوع إليه، مما يوقع في البدعة والضلال

قال أبو العتاهية:

أُخَيَّ مَن عَشِقَ الرياسةَ خفتُ أن ... يطغى ويحدثَ بدعةً وضلالا

قال ابن القيم رحمه الله: «الرئاسة والمأكلة من جملة الأسباب المانعة لهم من الدخول في

(١) بدائع الفوائد (٣/ ٦٥٢).

(٢) رواه البخاري (٧١٤٧)، ومسلم (١٦٥٢).

(٣) رواه البخاري (٧١٤٨).

(٤) شرح حديث ما ذئبان جائعان (ص٢٩).

الديـن، وقـد ناظرنا نحن وغيرنا جماعة منهم، فلما تبين لبعضهم فساد ما هم عليه قالوا: لو دخلنـا في الإسـلام لكنا من أقلّ المسـلمين، لا يؤبه لنا، ونحن متحكمـون في أهل ملتنا، في أموالهـم ومناصبهـم، ولنا بينهم أعظـم الجاه، وهل منع فرعونَ وقومه من اتباع موسـى إلا ذلك؟!»[1].

وقـال أيضـاً: «ولم يزل في الناس من يختـار الباطل، ومنهم من يختـاره جهلا وتقليدا لمن يحسـن الظـن به، ومنهم مـن يختاره مع علمه ببطلانـه كبرا وعلوا، ومنهم مـن يختاره طمعا ورغبة في مأكل أو جاه أو رياسـة، ومنهم من يختاره حسـدا وبغيا، ومنهم من يختاره محبة في صورة وعشقا، ومنهم من يختاره خشية، ومنهم من يختاره راحة ودعة، فلم تنحصر أسباب اختيار الكفر في حب الرئاسة والمأكلة»[2].

١١. التقرب إلى السلاطين ومجالستهم:

قـال ابـن رجـب رحمه الله: «ومن أعظم ما يُخشـى عـلى من دخل عـلى الملـوك الظلمة: أن يُصدِّقهـم بكذبهم، ويعينهم على ظلمهم، ولو بالسكوت عن الإنكار عليهم، فإنَّ من يريد بدخولـه عليهـم الشرف والرياسـة وهو حريـص عليهما لا يُقـدمُ على الإنـكار عليهم، بل ربما حَسَّـنَ لهم بعض أفعالهم القبيحة تقرباً إليهم؛ ليحسـن موقعه عندهم، ويسـاعدوه على غرضه.

عن كعب بن عجرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**سَيَكُونُ بَعدِي أُمَرَاءُ، فَمَن دَخَلَ عَلَيهِـم فَصَدَّقَهُم بِكَذِبِهِم، وَأَعانَهُم عَلَى ظُلمِهِم، فَلَيسَ مِنِّي، وَلَسـتُ مِنهُ، وَلَيسَ بِوارِدٍ عَلَيَّ الحَـوضَ، وَمَن لَم يَدخُل عَلَيهِم، وَلَم يُعِنهُم عَلَى ظُلمِهِم، وَلَم يُصَدِّقهُم بِكَذِبِهِم فَهُوَ مِنِّي، وَأَنَا مِنهُ، وَهُوَ وارِدٌ عَلَيَّ الحَوضَ**»[3].

وكان كثير من السـلف ينهون عن الدخول على الملوك، لمن أراد أمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر أيضاً.

(١) هداية الحيارى (١/ ٢٤٤).

(٢) هداية الحيارى (١/ ٢٥٦) بتصرف يسير.

(٣) رواه الترمذي (٢٢٥٩) وقال: هذا حديث صحيح غريب، وصححه الألباني.

وممن نهى عن ذلك: عمر بن عبد العزيز، وابن المبارك، والثوري، وغيرهم من الأئمة.

وقال ابن المبارك: «ليس الآمر الناهي عندنا من دخل عليهم فأمرهم ونهاهم، إنما الآمر الناهي من اعتزلهم».

وسبب هذا: ما يُخشى من فتنة الدخول عليهم، فإنَّ النفس قد تخيل للإنسان إذا كان بعيداً أنه يأمرهم وينهاهم ويغلظ عليهم، فإذا شاهدهم قريباً مالت النفس إليهم، لأن محبة الشرف كامنة في النفس، ولذلك يداهنهم ويلاطفهم، وربما مال إليهم وأحبهم، ولاسيما إن لاطفوه وأكرموه وقَبِل ذلك منهم، وقد جرى ذلك لعبد الله بن طاووس مع بعض الأمراء بحضرة أبيه طاووس، فَوَبَّخَهُ طاووس على فعله ذلك.

وكتب سفيان الثوري إلى عَبّاد بن عَبّاد رحمهما الله، وكان في كتابه: «إياك والأمراء أن تدنو منهم، أو تخالطهم في شيء من الأشياء، وإياك أن تُخدع، ويقال لك لتشفع، وتدرأ عن مظلوم، أو ترد مظلمة، فإن ذلك خديعة إبليس، وإنَّما اتخذها فُجّارُ القراء سُلَّماً، وما كفيت عن المسألة والفتيا فاغتنم ذلك ولا تنافسهم، وإياك أن تكون ممن يحب أن يُعمَلَ بقوله، أو يُنشَرَ قوله، أو يُسمَعَ قوله، فإذا تُرِكَ ذلك منه عُرِفَ فيه، وإياك وحبَّ الرئاسة، فإنَّ الرجل يكون حب الرئاسة أحب إليه من الذهب والفضة، وهو باب غامض لا يبصره إلا البصير من العلماء السماسرة، فَتَفَقَّد نفسك، واعمل بنية، واعلم أنه قد دنا من الناس أمرٌ يشتهي الرجل أن يموت، والسلام»[1].

وقال وهب بن منبه رحمه الله: «إنَّ جمع المال وغشيان السلطان لا يبقيان من حسنات المرء إلا كما يُبقي ذئبان جائعان ضاريان سقطا في حظار فيه غنم، فباتا يجوسان حتى أصبحا»[2].

وقال أبو حازم رحمه الله: «العلماء كانوا يفرُّون من السلطان ويطلبهم، وإنهم اليوم يأتون أبواب السلطان، والسلطان يفر منهم»[3].

(١) شرح حديث ما ذئبان جائعان (ص٦٤-٦٨).
(٢) جامع بيان العلم (١/ ٢٠٢).
(٣) جامع بيان العلم (١/ ١٩٩).

١٢. حب الشهرة.

قال ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ومن هذا الباب أيضاً [يعني: من يطلب الرئاسة بالعلم والعمل] كراهة أن يُشهِرَ الإنسان نفسه بالعلم والزهد والدين، أو بإظهار الأعمال والأقوال والكرامات؛ ليُزار، وتلتمس بركته، ودعاؤه، وتقبل يده، وهو محب لذلك، ويقيم عليه، ويفرح به، ويسعى في أسبابه.

ومن هنا كان السلف الصالح يكرهون الشهرة غاية الكراهة، منهم أيوب، والنخعي، وسفيان، وأحمد، وغيرهم من العلماء الربانيين، وكذلك الفضيل، وداود الطائي، وغيرهما من الزهاد والعارفين، وكانوا يَذُمُّونَ أنفسهم غاية الذم، ويسترون أعمالهم غاية الستر»[1].

١٣. محبة مدح الناس وثناؤهم.

قال ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ومن هذا الباب أيضاً: أن يحب ذو الشرف والولاية أن يحمد على أفعاله، ويثنى عليه بها، ويطلب من الناس ذلك، ويتسبب في أذى من لا يجيبه إليه، وربما كان ذلك الفعل إلى الذم أقرب منه إلى المدح، وربما أظهر أمراً حسناً في الظاهر، وأحب المدح عليه، وقصد به في الباطن شراً، وفرح بتمويه ذلك وترويجه على الخلق، وهذا يدخل في قوله تعالى: ﴿ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [آل عمران: ١٨٨].

فإنَّ هذه الآية إنما أنزلت فيمن هذه صفته، وهذا الوصف ـ أعني طلب المدح من الخلق، ومحبته، والعقوبة على تركه ـ لا يصلح إلا لله وحده لا شريك له، ومن هنا كان أئمة الهدى ينهون عن حمدهم على أعمالهم، وما يصدر منهم من الإحسان إلى الخلق، ويأمرون بإضافة الحمد على ذلك لله وحده لا شريك له، فإنَّ النعم كلها منه.

وكان عمر بن عبد العزيز شديد العناية بذلك، وكتب مرة إلى أهل الموسم كتاباً يُقرأُ عليهم، وفيه الأمر بالإحسان إليهم، وإزالة المظالم التي كانت عليهم، وفي الكتاب: «ولا تحمدوا على ذلك كله إلا الله، فإنه لو وكلني إلى نفسي كنت كغيري».

---

(١) شرح حديث ما ذئبان جائعان (ص٦٨).

وحكايته مع المرأة التي طلبت منه أن يفرض لبناتها اليتامى مشهورة، فإنها كانت لها أربع بنات، ففرض لاثنتين منهن، وهي تحمد الله، ثم فرض للثالثة، فشكرته، فقال: «إنما كنا نفرض لهن حيث كنت تولين الحمد أهله، فمُري هؤلاء الثلاث يواسين الرابعة»، أراد أن يُعرَف أن ذا الولاية إنما هو مُنتَصِبٌ لتنفيذ أمر الله، وآمرٌ العباد بطاعته تعالى، وناهٍ هم عن محارم الله، ناصح لعباد الله بدعائهم إلى الله، فهو يقصد أن يكون الدين كله لله، وأن تكون العزة لله، وهو مع ذلك خائف من التقصير في حقوق الله تعالى أيضاً»[1].

١٤. الكذب والقول على الله بغير علم:

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «كل من آثر الدنيا من أهل العلم واستحبها؛ فلابد أن يقول على الله غير الحق في فتواه وحكمه، وفي خبره وإلزامه؛ لأن أحكام الرب سبحانه كثيراً ما تأتي على خلاف أغراض الناس، ولاسيما أهل الرئاسة والذين يتبعون الشهوات، فإنهم لا تتم لهم أغراضهم إلا بمخالفة الحق ودفعه كثيراً، فإذا كان العالم والحاكم مُحبَّين للرياسة مُتَّبِعَين للشهوات لم يتم لهما ذلك إلا بدفع ما يضاده من الحق، ولا سيما إذا قامت له شبهة، فتتفق الشبهة والشهوة، ويثور الهوى، فيخفى الصواب، وينطمس وجه الحق، وإن كان الحق ظاهراً لا خفاء به، ولا شبهة فيه، أقدم على مخالفته، وقال: لي مخرج بالتوبة! وفي هؤلاء وأشباههم قال تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا﴾ [مريم: ٥٩]، وقال تعالى فيهم أيضاً: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ وَرِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَأۡخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغۡفَرُ لَنَا وَإِن يَأۡتِهِمۡ عَرَضٞ مِّثۡلُهُۥ يَأۡخُذُوهُۚ أَلَمۡ يُؤۡخَذۡ عَلَيۡهِم مِّيثَٰقُ ٱلۡكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّ وَدَرَسُواْ مَا فِيهِۗ وَٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٩].

فأخبر سبحانه أنهم أخذوا العرض الأدنى مع علمهم بتحريمه عليهم، وقالوا: سيغفر لنا، وإن عرض لهم عرض آخر أخذوه، فهم مصرون على ذلك، وذلك هو الحامل لهم على أن يقولوا على الله غير الحق، فيقولون: هذا حكمه وشرعه ودينه، وهم يعلمون أن دينه وشرعه وحكمه خلاف ذلك، أو لا يعلمون أن ذلك دينه وشرعه وحكمه، فتارة يقولون

(١) شرح حديث ما ذئبان جائعان (ص٤١-٤٣).

على الله ما لا يعلمون، وتارة يقولون عليه ما يعلمون بطلانه، وأما الذين يتقون: فيعلمون أن الدار الآخرة خير من الدنيا، فلا يحملهم حب الرئاسة والشهوة على أن يؤثروا الدنيا على الآخرة، وطريق ذلك أن يتمسكوا بالكتاب والسنة، ويستعينوا بالصبر والصلاة، ويتفكروا في الدنيا وزوالها وخستها، والآخرة وإقبالها ودوامها.

وهؤلاء لابد أن يبتدعوا في الدين مع الفجور في العمل، فيجتمع لهم الأمران، فإنّ اتباع الهوى يعمي عين القلب، فلا يميز بين السنة والبدعة، أو ينكسه، فيرى البدعة سنة والسنة بدعة، فهذه آفة العلماء، إذا آثروا الدنيا، واتبعوا الرياسات والشهوات، وهذه الآيات فيهم إلى قوله: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ۝١٧٥ وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ [الأعراف: ١٧٥-١٧٦] فهذا مثل عالم السوء الذي يعمل بخلاف علمه»[1].

وقال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وتعمد الكذب له أسباب: ...» وذكر منها: حب الرئاسة[2].

١٥. قسوة القلب، وتعلقه بغير الله، والانشغال عن ذكره.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وأقل ما في حبها -يعني الدنيا- أنه يُلهي عن حب الله وذكره، ومن ألهاه ماله عن ذكر الله فهو من الخاسرين، وإذا لها القلب عن ذكر الله سكنه الشيطان، وصرفه حيث أراد»[3].

١٦. الشحناء وتفرق الصف:

حيث إن كل راغب في الرئاسة يتهم الآخر بأنه عاجز وقاصر، ويسعى لإقصائه وإبعاده، فيقع التنازع، فيحصل الفشل ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡ﴾ [الأنفال: ٤٦]

***

(١) الفوائد (ص١٠٠)

(٢) مجموع الفتاوى (١٨/٤٦)

(٣) عدة الصابرين (ص١٨٦)

أسباب حب الرئاسة

من حكمة الله تعالى وتدبيره أنه ربط المسببات بأسبابها، فما من سلوك إلا وله سبب، علمه من علمه، وجهله من جهله، ومن ذلك مرض حب الرئاسة، ومن أبرز مسبباته ما يلي:

١. التحرر من سلطة الآخرين:

فالساعي للرئاسة لا يريد أن يكون فوقه أحد، بل يرغب أن يكون وحده الآمر والناهي للجميع، ولذا تراه يوجه الصغير والكبير، والشريف والوضيع، والذكر والأنثى، ويتدخل في كل صغيرة وكبيرة، مما لا شأن له به.

٢. موافقتها لرغبة النفس وشهوتها التي جُبلت عليها:

فالإنسان يحب أن يكون آمرا ناهيا، لا مأمورا منهيا، ويحب أن يعلو على الناس، وأن يُثنى عليه، وغير ذلك من الأمور التي تلتصق بالرئاسة.

قال سفيان الثوري رحمه الله: «ما رأيت الزهد في شيء أقل منه في الرئاسة، ترى الرجل يزهد في المطعم والمشرب والمال والثياب، فإن نوزع الرئاسة حامى عليها وعادى»[1].

وقال يوسف بن أسباط رحمه الله: «الزهد في الرياسة أشد من الزهد في الدنيا»[2].

قال ابن تيمية رحمه الله: «النفس مشحونة بحب العلو والرئاسة بحسب إمكانها»[3].

(١) حلية الأولياء (٧/ ٣٩)

(٢) حلية الأولياء (٨/ ٢٣٨)

(٣) مجموع الفتاوى (٨/ ٢١٨)

قال ابن حبان رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وأنشدني المنتصر بن بلال:

بلاءُ الناسِ مُذ كانوا إلى أن تأتيَ الساعة
بِحُبِّ الأمرِ والنهيِ وحبِّ السمعِ والطاعة[1]

٣. ضعف الإيمان:

فراغ القلب من الإيمان أو ضعفه سبب للتطلع لشهوات الدنيا، والتي من أعظمها الرياسة، وأما من امتلأ قلبه بالإيمان أو قارب فإنه معرض عن عرض الدنيا الفاني، وليس له همّ ولا شغل إلا في الدار الآخرة، قال تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٨٣].

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أي: ليس لهم إرادة، فكيف العمل للعلو في الأرض على عباد الله، والتكبر عليهم، وعلى الحق»[2].

٤. عدم استشعار خطورة حمل الأمانة.

قال تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢]

عن أبي أمامة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«ما مِن رَجُلٍ يَلِي أَمرَ عَشَرَةٍ فَما فوقَ ذَلِكَ إِلّا أَتَى الله عَزَّ وَجَلَّ مَغلولاً يَومَ القِيامَةِ، يَدُهُ إلى عُنُقِهِ، فَكَّهُ بِرُّهُ، أَو أَوبَقَهُ إِثمُهُ، أَوَّلُها مَلامَةٌ، وَأَوسَطُها نَدامَةٌ، وَآخِرُها خِزيٌ يَومَ القِيامَةِ»**[3].

٥. الشعور باللذة الوهمية:

قال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ومن السكر أيضاً: ما يكون بحب الرئاسة، والمال، أو شفاء الغيظ، فإنه إذا قوي ذلك أوجب سكراً، وإنما كانت هذه الأشياء قد توجب سكراً لأن

(١) روضة العقلاء ونزهة الفضلاء (ص٢٧٣).

(٢) تفسير السعدي (ص٦٢٤).

(٣) رواه أحمد (٢١٧٩٧)، وقال الألباني: «إسناده جيد» كما في السلسلة الصحيحة (٣٤٩).

السكر سببه ما يوجب اللذة القاهرة التي تغمر العقل، وسبب اللذة إدراك المحبوب، فإذا كانت المحبة قوية، وإدراك المحب قويا، والعقل والتمييز ضعيفا؛ كان ذلك سببا للسكر، لكن ضعف العقل تارة يكون من ضعف نفس الإنسان المحب، وتارة يكون من قوة السبب الوارد، ولهذا يحصل من السكر للمبتدئين في إدراك الرئاسة والمال والعشق والخمر، ما لا يحصل لمن اعتاد ذلك، وتمكن فيه»[1].

٦. حب الدنيا:

قال عبد الله بن أبي صالح: قال عيسى عليه السلام: «يا معشر القراء والعلماء! كيف تضلون بعد علمكم، أو تعمون بعد بصركم، من أجل دنيا دنية، وشهوة ردية؟ فلكم الويل منها، ولها الويل منكم»[2].

وقال ابن رجب رحمه الله: «وأصل محبة المال والشرف: حب الدنيا، وأصل حب الدنيا اتباع الهوى،

قال وهب بن منبه: «من اتباع الهوى الرغبة في الدنيا، ومن الرغبة فيها حب المال والشرف، ومن حب المال والشرف استحلال المحارم».

وإنما تحصل الرغبة في الدنيا من اتباع المال والهوى؛ لأن الهوى داع إلى الرغبة في الدنيا وحب المال والشرف فيها، والتقوى تمنع من اتباع الهوى، وتردع عن حب الدنيا

قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾ [النازعات: ٣٧-٤١]

وقد وصف الله تعالى أهل النار بالمال والسلطان في مواضع من كتابه، فقال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْ ۜ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّى سُلْطَٰنِيَهْ﴾ [الحاقة: ٢٥-٢٩]»[3].

(١) الاستقامة (٢/ ١٤٦).

(٢) جامع بيان العلم (١/ ٢٣٣).

(٣) شرح حديث ما ذئبان جائعان (ص٧١).

وقال إسحاق بن خلف رحمه الله: «الورع في المنطق أشد منه في الذهب والفضة، والزهد في الرئاسة أشد منه في الذهب والفضة؛ لأنهما يبذلان في طلب الرئاسة»[1].

٧. العجب بالنفس:

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال النبي ﷺ: «**ثَلاثٌ مُهلِكاتٌ، وَثَلاثٌ مُنَجِّياتٍ، وَثَلاثٌ كَفّاراتٌ، وَثَلاثٌ دَرَجاتٌ. فَأَمّا المُهلِكاتُ. فَشُحٌّ مُطاعٌ، وَهَوًى مُتَّبَعٌ، وَإِعجابُ المَرءِ بنفسِهِ. وَأَمّا المُنَجِّياتُ: فالعَدلُ في الغَضَبِ والرِّضا، والقَصدُ في الفَقرِ والغِنَى، وَخَشيَةُ اللهِ في السِّرِّ والعَلانِيَةِ**»[2].

قال ابن القيم رحمه الله: «وللقلب أمراض أخر، من الرياء، والكبر، والعجب، والحسد، والفخر، والخيلاء، وحب الرئاسة، والعلو في الأرض، وهذا المرض مركب من مرض الشبهة، والشهوة، فإنه لابد فيه من تخيل فاسد، وإرادة باطلة، كالعجب، والفخر، والخيلاء، والكبر المركب من تخيل عظمته، وفضله، وإرادة تعظيم الخلق له، ومحمدتهم، فلا يخرج مرضه عن شهوة، أو شبهة، أو مركب منهما، وهذه الأمراض كلها متولدة عن الجهل، ودواؤها العلم»[3].

***

(١) مدارج السالكين (٢/ ٢٢).

(٢) رواه الطبراني في الأوسط (٥٧٥٤)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٣٠٤٥).

(٣) مفتاح دار السعادة (١/ ١١١).

علاج حب الرئاسة

من عظيم رحمة الله تعالى بعباده: أنه ما أنزل من داء إلا وأنزل له دواء، ومن ذلك: مرض حب الرئاسة، ومن أعظم أدويته ما يأتي:

١ ـ العناية بتحقيق الإخلاص:

قال ابن رجب رَحِمَهُ اللَّهُ: «كتب وهب بن منبه إلى مكحول: «أما بعد: فإنك أصبت بظاهر علمك عند الناس شرفاً ومنزلة، فاطلب بباطن علمك عند الله منزلة وزلفى، واعلم أن إحدى المنزلتين تمنع من الأخرى».

ومعنى هذا: أن العلم الظاهر من تَعَلُّم الشرائع، والأحكام، والفتاوى، والقصص، والوعظ، ونحو ذلك مما يظهر للناس؛ يحصل به لصاحبه عندهم منزلةٌ، وشرفاً، والعلم الباطن المودع في القلوب، من معرفة الله، وخشيته، ومحبته، ومراقبته، والأنس به، والشوق إلى لقائه، والتوكل عليه، والرضا بقضائه، والإعراض عن عرض الدنيا الفاني، والإقبال على جوهر الآخرة الباقي، كل هذا يوجب لصاحبه عند الله منزلةً، وزلفى. وإحدى المنزلتين تمنع من الأخرى، فمن وقف مع منزلته عند الخلق، واشتغل بما حصل له عندهم بالعلم الظاهر من شرف الدنيا، وكان همه حفظ هذه المنزلة عند الخلق، وملازمتها، وتربيتها، والخوف من زوالها: كان ذلك حظه من الله تعالى، وانقطع به عنه، فهو كما قال بعضهم: ويل لمن كان حظه من الله الدنيا»[1].

---

(١) شرح حديث ما ذئبان جائعان (ص٨٠).

٢. أن يُمنع منها إذا طلبها:

عن أبي موسى رضي الله عنه قال: دخلت على النبي صلى الله عليه وسلم أنا ورجلان من بني عمي، فقال أحد الرجلين: يا رسول الله، أمِّرنا على بعض ما ولاك الله عز وجل، وقال الآخر مثل ذلك، فقال: «إِنَّا واللهِ لا نُوَلِّي عَلَى هَذا العَمَلِ أَحَداً سَأَلَهُ، وَلا أَحَداً حَرَصَ عَلَيهِ»[1].

٣. الاستشارة

وتنفع الاستشارة ههنا في موضعين:

الموضع الأول: عند عرض الولاية على العبد أو تكليفه بها، فيستشير أهل النصح والصدق، هل هو أهل لها، أم لا؟

وقد جاء عن أبي ذر رضي الله عنه أنه قال: قلت: يا رسول الله، ألا تستعملني؟ فضرب بيده على منكبي ثم قال: «يا أَبا ذَرٍّ إِنَّكَ ضَعِيفٌ، وَإِنَّها أَمانَةٌ، وَإِنَّها يومَ القِيامَةِ خِزيٌ وَنَدامَةٌ، إِلَّا مَن أَخَذَها بِحَقِّها، وَأَدَّى الَّذِي عَلَيهِ فيها»[2].

وفي رواية قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يا أَبا ذَرٍّ، إِنِّي أَراكَ ضَعِيفاً، وَإِنِّي أُحِبُّ لَكَ ما أُحِبُّ لِنَفسِي، لا تَأَمَّرَنَّ عَلَى اثنَينِ، وَلا تَوَلَّيَنَّ مالَ يَتِيمٍ»[3].

قال ابن تيمية رحمه الله: «نهى أبا ذر عن الإمارة والولاية؛ لأنه رآه ضعيفاً، مع أنه قد روي: «ما أظلت الخضراء، ولا أقلت الغبراء، أصدق لهجة من أبي ذر»[4]»[5].

الموضع الثاني: الاستشارة بعد تولي الولاية؛ لئلا يستبدّ بالأمر؛ وليصقل رأيه، قال تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

(١) رواه البخاري (٧١٤٩)، ومسلم (٣٤٠٢).

(٢) رواه مسلم (١٨٢٥).

(٣) رواه مسلم (١٨٢٦).

(٤) رواه الترمذي (٣٨٠١)، وصححه الألباني.

(٥) السياسة الشرعية (ص١٦).

٤. تذكر الآثار السيئة التي تترتب على الرئاسة

قال ابن حبان رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «رؤساء القوم أعظمهم هموما، وأدومهم غموما، وأشغلهم قلوبا، وأشهرهم عيوبا، وأكثرهم عدوا، وأشدهم أحزانا، وأنكاهم أشجانا، وأكثرهم في القيامة حسابا، وأشدهم – إن لم يعف الله عنهم – عذابا»[١].

وقال ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وأما العلو الفاني المنقطع الذي يعقب صاحبه غداً حسرةً وندامةً وذلةً وهواناً وصغاراً، فهو الذي يُشرع الزهد فيه والإعراض عنه.

وللزهد فيه أسباب عديدة، فمنها: نظرُ العبد إلى سوء عاقبة الشرف في الدنيا، بالولاية والإمارة لمن لا يؤدي حقها في الآخرة، ومنها نظر العبد إلى عقوبة الظالمين والمتكبرين، ومن ينازع الله رداء الكبرياء.

عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «**يُحْشَرُ الْمُتَكَبِّرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْثَالَ الذَّرِّ فِي صُوَرِ الرِّجَالِ، يَغْشَاهُمُ الذُّلُّ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ، فَيُسَاقُونَ إِلَى سِجْنٍ فِي جَهَنَّمَ يُسَمَّى بُولَسَ، تَعْلُوهُمْ نَارُ الأَنْيَارِ، يُسْقَوْنَ مِنْ عُصَارَةِ أَهْلِ النَّارِ، طِينَةِ الْخَبَالِ**»[٢].

واستأذن رجل عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ في القصص على الناس فقال له: إني أخاف أن تقص عليهم فترتفع عليهم في نفسك، حتى يضعك الله تحت أرجلهم يوم القيامة»[٣].

وقال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وكذلك طالب الرئاسة والعلو في الأرض، قلبه رقيق لمن يعينه عليها، ولو كان في الظاهر مقدمهم والمطاع فيهم، فهو في الحقيقة يرجوهم ويخافهم، فيبذل لهم الأموال والولايات، ويعفو عنهم ليطيعوه ويعينوه، فهو في الظاهر رئيس مطاع، وفي الحقيقة عبد مطيع لهم.

والتحقيق: أن كلاهما فيه عبودية للآخر، وكلاهما تارك لحقيقة عبادة الله، وإذا كان

(١) روضة العقلاء ونزهة الفضلاء (ص٢٧٥).

(٢) رواه الترمذي (٢٤٩٢) وقال: حسن صحيح.

(٣) شرح حديث ما ذئبان جائعان (ص٧٣-٧٥).

تعاونهما على العلو في الأرض بغير الحق، كما بمنزلة المتعاونين على الفاحشة، أو قطع الطريق، فكل واحد من الشخصين لهواه الذي استعبده واسترقه، يستعبده الآخر»[١].

٥. المداومة على محاسبة النفس، والتوبة، والاستغفار:

قال ابن حبان رحمه الله: «الواجب على من ملك أمور المسلمين الرجوع إلى الله عزوجل في كل لحظة وطرفة؛ لئلا يطغيه ما هو فيه من تسلطه، بل يذكر عظمة الله وقدرته وسلطانه، وأنه هو المنتقم ممن ظلم، والمجري لمن أحسن، فيلزم في إمرته السلوك الذي يؤديه إلى اكتساب الخير في الدارين، وليعتبر بمن كان قبله من أشكاله، فإنه لا محالة مسئول عن شكر ما هو فيه، كما هو لا محالة مسئول عن حسبه»[٢].

٦. الاشتغال بالعلم، وعدم الانقطاع عنه.

عن عمر رضي الله عنه أنه قال: «تفقهوا قبل أن تُسوَّدُوا». قال البخاري رحمه الله: «وبعد أن تسودوا، وقد تعلم أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم في كبر سنهم»[٣].

وقال حسن بن منصور الجصاص رحمه الله: قلت لأحمد بن حنبل: إلى متى يكتب الرجل؟ قال: «حتى يموت»[٤].

٧. الزهد في الدنيا والتعلق بالآخرة، والمنافسة فيها.

قال ابن رجب رحمه الله: «واعلم أن النفس تحب الرفعة والعلو على أبناء جنسها، ومن هنا نشأ الكبر والحسد، ولكن العاقل ينافس في العلو الدائم الباقي، الذي فيه رضوان الله، وقربه، وجواره، ويرغب عن العلو الفاني الزائل، الذي يعقبه غضب الله، وسخطه، وانحطاط العبد وسفوله، وبُعدِهِ عن الله، وطرده عنه، فهذا هو العلو الثاني الذي يُذَمُّ، وهو العتو والتكبر في الأرض بغير حق.

(١) مجموع الفتاوى (١٠/ ١٨٩).

(٢) روضة العقلاء ونزهة الفضلاء (ص٢٧٧).

(٣) صحيح البخاري (١/ ٣٩).

(٤) طبقات الحنابلة (١/ ١٤٠).

وأما العلو الأول والحرص عليه: فهو محمود، قال الله تعالى: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦]»[١].

وقال ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «وأما الدنيا: فأمرها حقير، وكبيرها صغير، وغاية أمرها يعود إلى الرئاسة والمال، وغاية ذي الرئاسة أن يكون كفرعون الذي أغرقه الله في اليم انتقاماً منه، وغاية ذي المال أن يكون كقارون الذي خسف الله به الأرض، فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة»[٢].

٨. التفكر فيما يعوض الله عَزَّوَجَلَّ به العبد في الدنيا من اللذة والنعيم إذا أعرض عنها:

قال ابن رجب رَحِمَهُ اللَّهُ: «ومنها - وليس هو في قدرة العبد، ولكنه من فضل الله ورحمته - ما يُعَوِّضُ الله عبده العارفين به الزاهدين فيما يفنى من المال والشرف، مما يعجله الله لهم في الدنيا من شرف التقوى، وهيبة الخلق لهم في الظاهر، ومن حلاوة المعرفة والإيمان والطاعة في الباطن، وهي الحياة الطيبة التي وعدها الله لمن عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن، وهذه الحياة الطيبة لم يذقها الملوك في الدنيا، ولا أهل الرئاسات والحرص على الشرف، كما قال إبراهيم بن أدهم: لو يعلم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه لجالدونا عليه بالسيوف»[٣].

٩. أن يكون هم الإنسان خدمة الدين، ونفع الخلق، من أي موقع يكون فيه.

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ، وَعَبْدُ الدِّرْهَمِ، وَعَبْدُ الخَمِيصَةِ، إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ، وَإِنْ لَمْ يُعْطَ سَخِطَ، تَعِسَ وَانْتَكَسَ، وَإِذَا شِيكَ فَلاَ انْتَقَشَ، طُوبَى لِعَبْدٍ آخِذٍ بِعِنَانِ فَرَسِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، أَشْعَثَ رَأْسُهُ، مُغْبَرَّةٍ قَدَمَاهُ، إِنْ كَانَ فِي الحِرَاسَةِ كَانَ فِي الحِرَاسَةِ، وَإِنْ كَانَ فِي السَّاقَةِ كَانَ فِي السَّاقَةِ، إِنِ اسْتَأْذَنَ لَمْ يُؤْذَنْ لَهُ، وَإِنْ شَفَعَ لَمْ يُشَفَّعْ**»[٤].

قال ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: «إِنْ كَانَ فِي الحراسة كَانَ فِي الحِرَاسَةِ، وَإِنْ كَانَ فِي السَّاقَة كَانَ فِي السَّاقَة» التقدير: إن كان المهم في الحراسة كان فيها... وقال ابن الجوزي: المعنى أنه خامل

---

(١) شرح حديث ما ذئبان جائعان (ص٧٢).

(٢) مجموع الفتاوى (٢٨/ ٦١٥).

(٣) شرح حديث ما ذئبان جائعان (ص٧٦).

(٤) رواه البخاري (٢٨٨٧).

الذكر، لا يقصد السمو، فإن اتفق له السير سار، فكأنه قال: إن كان في الحراسة استمر فيها، وإن كان في الساقة استمر فيه.

قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «إِنِ اسْتَأْذَنَ لَمْ يُؤْذَنْ لَهُ، وَإِنْ شَفَعَ لَمْ يُشَفَّعْ» فيه ترك حب الرياسة والشهرة، وفضل الخمول والتواضع»[1].

١٠ ـ استشعار قدر مسؤولية الولاية، فهي تكليف، لا تشريف:

عن ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «لا يَسْتَرْعِي اللهُ تَبارَكَ وَتَعالَى عَبداً رَعِيَّةً، قَلَّتْ أَوْ كَثُرَتْ، إِلَّا سَأَلَهُ اللهُ تَبارَكَ وَتَعالَى عنها يَومَ القِيامَةِ، أَقامَ فِيهِم أَمرَ اللهِ تَبارَكَ وَتَعالَى أَمْ أَضاعَهُ؟ حَتَّى يَسأَلَهُ عَنْ أَهلِ بَيتِهِ خاصَّةً»[2].

وعن عوف بن مالك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «إِن شِئتُم أَنبَأتُكُم عَنِ الإِمارَةِ» قالوا: وما هي؟ قال: «أَوَّلُها مَلامَةٌ، وَثانِيها نَدامَةٌ، وثالِثُها عَذابٌ يَومَ القِيامَةِ، إلا مَن عَدَلَ»[3].

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَيَتَمَنَّيَنَّ أَقوامٌ وُلُّوا هَذا الأَمرَ، أَنَّهُم خَرُّوا مِنَ الثُّرَيّا، وَأَنَّهُم لَم يَلُوا شَيئاً»[4].

١١ ـ أن يعرف المرء قدر نفسه:

فيعرف هل يستطيع القيام بهذا العمل، وتلك المسئولية، أم لا؟

فإذا عرف من نفسه أنه لا يقدر عليها: فلا يُقدِم.

عن أبي ذر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «يا أَبا ذَرٍّ! إِنِّي أَراكَ ضَعِيفاً، وَإِنِّي أُحِبُّ لَكَ ما أُحِبُّ لِنَفسِي، لا تَأَمَّرَنَّ عَلَى اثنَينِ، وَلا تَوَلَّيَنَّ مالَ يَتِيمٍ»[5].

قال القرطبي رَحِمَهُ اللهُ: «أي ضعيف عن القيام بما يتعين على الأمير من مراعاة مصالح رعيته

(١) فتح الباري (٦/ ٨٣).

(٢) رواه أحمد (٤٦٢٣)، وصححه محققو المسند.

(٣) رواه الطبراني في الأوسط (٦٧٤٧)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (١٤٢٠).

(٤) رواه أحمد (١٠٣٥٩)، وحسنه محققو المسند.

(٥) رواه مسلم (١٨٢٦).

الدنيوية والدينية؛ ووجه ضعفه عن ذلك: أن الغالب عليه كان الزهد واحتقار الدنيا، ومَن هذا حاله لا يعتني بمصالح الدنيا ولا أموالها، اللذين بمراعاتها تنتظم مصالح الدين، ويتم أمره.. فلما علم النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ منه هذه الحالة نصحه ونهاه عن الإمارة، وعن ولاية مال الأيتام»[1].

١٢. أن يكثر من حمد الله عَزَّ وَجَلَّ، والثناء عليه، ويأمر غيره بذلك:

قال ابن رجب رَحِمَهُ اللهُ: «كان خلفاء الرسل وأتباعهم من أمراء العدل وقضاتهم لا يدعون إلى تعظيم نفوسهم ألبتة، بل إلى تعظيم الله وحده، وإفراده بالعبودية والإلهية، ومنهم من كان لا يريد الولاية إلا للاستعانة بها على الدعوة إلى الله وحده.

وكان بعض الصالحين يتولى القضاء، ويقول: ألا أتولاه لأستعين به على الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر؟!

ولهذا كانت الرسل وأتباعهم يصبرون على الأذى في الدعوة إلى الله، ويتحملون في تنفيذ أوامر الله من الخلق غاية المشقة، وهم صابرون، بل راضون بذلك، فإنَّ المحب ربما يتلذذ بما يصيبه من الأذى في رضى محبوبه، كما كان عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز يقول لأبيه في خلافته إذا حرص على تنفيذ الحق وإقامة العدل: يا أبت! لوددت أني غَلَت بي وبك القدور في الله عَزَّ وَجَلَّ»[2].

١٣. أن يبذل جاهه للناس:

وذلك بالشفاعة للمحتاجين، والسعي في قضاء حوائجهم، قال ابن أبي يعلى رَحِمَهُ اللهُ: «وقال أبو مزاحم موسى بن عبيد الله بن يحيى بن خاقان: حدثني أبي عن أبيه قال: حضرت الحسن بن سهل، وجاءه رجل يستشفع به في حاجة، فقضاها، فأقبل الرجل يشكره، فقال له الحسن بن سهل: علام تشكرنا؟ نحن نرى أن للجاه زكاة، كما أن للمال زكاة، ثم أنشأ يقول:

فرضت علي زكاة ما ملكت يدي ... وزكاة جاهي أن أعين وأشفعا
فإذا ملكت فجد، فإن لم تستطع ... فاجهد بوسعك كله أن تنفعا[3]

(١) حاشية السيوطي على سنن النسائي (٦/ ٢٥٥).
(٢) شرح حديث ما ذئبان جائعان (ص٤٥-٤٦).
(٣) طبقات الحنابلة (١/ ٢٠٤).

١٤. أن يصرف العبد ما جعله الله في قلبه من حب الجاه، في المصرف الصحيح:

قال ابن القيم رحمه الله: «ولقوة حب الجاه مصرف، وهو استعماله في تنفيذ أوامره، وإقامة دينه، ونصر المظلوم، وإغاثة الضعيف، وقمع أعداء الله، فمحبة الرياسة واحده على هذا الوجه عبادة»[1].

١٥. القراءة والتأمل في سير السلف الصالح:

فعن عمر بن سعد قال: «كان سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه في إبله، فجاءه ابنه عمر، فلما رآه سعد قال: أعوذ بالله من شر هذا الراكب، فنزل فقال له: أنزلت في إبلك وغنمك، وتركت الناس يتنازعون الملك بينهم؟! فضرب سعد في صدره فقال: اسكت، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «إِنَّ اللهَ يُحِبُّ العَبدَ التَّقِيَّ الغَنِيَّ الخَفِيَّ»»[2].

قال النووي رحمه الله: «المراد بالغنى غنى النفس، هذا هو الغنى المحبوب لقوله صلى الله عليه وسلم: «وَلَكِنَّ الغِنَى غِنَى النَّفس». وأما «الخَفِيّ» فمعناه: الخامل، المنقطع إلى العبادة والاشتغال بأمور نفسه»[3].

وقد يعزل أحدهم نفسه، ويتنازل لغيره؛ لمصلحة أعظم، ومن هذا:

ما فعله الحسن بن علي رضي الله عنهما من تنازله عن الخلافة لمعاوية رضي الله عنه، ومدحه النبي صلى الله عليه وسلم على ذلك.

فعن أبي بكرة رضي الله عنه قال: رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم على المنبر والحسن بن علي رضي الله عنهما إلى جنبه، وهو يقبل على الناس مرة، وعليه أخرى، ويقول: «إِنَّ ابنِي هَذَا سَيِّدٌ، وَلَعَلَّ اللهَ أَن يُصلِحَ بِهِ بَينَ فِئَتَينِ عَظِيمَتَينِ مِنَ المُسلِمِينَ»[4].

قال المباركفوري رحمه الله: «وهذه معجزة عظيمة من النبي صلى الله عليه وسلم؛ حيث أخبر بهذا، فوقع مثل ما أخبر»[5].

---

(١) التبيان في أقسام القرآن (ص٢٥٩).
(٢) رواه مسلم (٢٩٦٥).
(٣) شرح النووي على مسلم (١٨/ ١٠٠).
(٤) رواه البخاري (٢٧٠٤).
(٥) تحفة الأحوذي (١٠/ ١٨٩).

وكان أحدهم يمتنع غاية الامتناع عن الولاية، إذا كان هناك من هو أحق منه بها.

كما في قصة تولية أبي بكر رضي الله عنه ومبايعة الصحابة له، فهي أعظم شاهد على ذلك، فعن عمر رضي الله عنه قال: «تكلّم أبو بكر رضي الله عنه فقال. ...- فذكر الحديث، وفيه-: وقد رضيت لكم أحد هذين الرجلين، فبايعوا أيهما شئتم فأخذ بيدي وبيد أبي عبيدة بن الجراح وهو جالس بيننا، فلم أكره مما قال غيرها، كان والله أن أُقَدَّم فتضرب عنقي لا يقربني ذلك من إثم، أحب إليَّ من أن أتأمَّرَ على قوم فيهم أبو بكر»[1].

ومن ذلك أيضاً.

لما ولي عمر بن عبد العزيز رحمه الله الخلافة، جاءه صاحب الشرطة؛ ليسير بين يديه بالحربة على عادته مع الخلفاء قبله، فقال له عمر: «ما لي ولك؟ تنح عني، إنما أنا رجل من المسلمين!» ثم سار وساروا معه، حتى دخل المسجد، فصعد المنبر، واجتمع الناس إليه، فقال:

«أيها الناس، إني قد ابتليت بهذا الأمر عن غير رأي كان مني فيه، ولا طلبة له، ولا مشورة من المسلمين، وإني قد خلعت ما في أعناقكم من بيعتي، فاختاروا لأنفسكم ولأمركم من تريدون» فصاح المسلمون صيحةً واحدة: قد اخترناك لأنفسنا وأمرنا، ورضينا كلُّنا بك، فقام وخطبهم[2].

وعن فاطمة امرأة عمر بن عبد العزيز، أنها دخلت عليه، فإذا هو في مصلاه، يده على خده، سائلة دموعه، فقالت: يا أمير المؤمنين ألشيء حدث؟ قال: «يا فاطمة، إني تقلدت أمر أمة محمد صلى الله عليه وسلم، فتفكرت في الفقير الجائع، والمريض الضائع، والعاري المجهود، والمظلوم المقهور، والغريب المأسور، والكبير وذي العيال في أقطار الأرض، فعلمت أن ربي سيسألني عنهم، وأن خصمهم دونهم محمد صلى الله عليه وسلم، فخشيت ألا تثبت لي حجة عند خصومته، فرحمت نفسي، فبكيت»[3].

---

(١) رواه البخاري (٦٨٣٠)

(٢) البداية والنهاية (٩/ ٢٣٨)

(٣) سير أعلام النبلاء (٥/ ١٣١)

١٦ الدعاء

عن معقل بن يسار • قال: انطلقت مع أبي بكر الصديق رضي الله عنه إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: «يا أَبا بَكرٍ، لَلشِّركُ فيكُم أَخفَى مِن دَبيبِ النَّملِ». فقال أبو بكر رضي الله عنه: وهل الشرك إلا من جعل مع الله إلهاً آخر؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «والَّذِي نَفسِي بِيَدِهِ، لَلشِّركُ فيكُم أَخفَى مِن دَبِيبِ النَّملِ، ألا أَدُلُّكَ عَلَى شَيءٍ إذا فَعلتَهُ ذَهَبَ عَنكَ قَلِيلُهُ وكَثِيرُهُ؟» قال: «قُل اللَّهُمَّ إنِّي أَعُوذُ بِكَ أَن أُشرِكَ بِكَ وَأَنا أَعلَمُ، وَأَستَغفِرُكَ لِما لا أَعلَمُ»[1].

هذا، والله نسأل أن يوفقنا لأرشد أمرنا، وأن يجعلنا ممن يعمل بطاعته؛ ابتغاء مرضاته، والحمد لله رب العالمين.

* * *

(١) رواه البخاري في الأدب المفرد (٧١٦)، وصححه الألباني في صحيح الأدب المفرد.

الخاتمة

من المؤسف حقاً أن نرى كثيراً من الناس يتناحرون فيما بينهم؛ للوصول للرئاسة، ونيل المناصب الرفيعة، والجاه العريض، حتى أصبح الهَمُّ المسيطر على المرء أن يكون هو القائد، أو الإمـام، أو الرئيـس، بطرق تؤدي غالباً إلى الشـقاق بين صفوف المسـلمين، وإثارة الفتن والقلاقل بينهم.

وانتشـار مـرض حـب الرئاسـة يـؤدي بلا شـك إلى إهـدار الطاقـات، وتوسـيع دائرة الخلافات، والسعي للمصالح الشخصية، والمدافع الذاتية، وعدم القيام بالدين، وكفى بهذا شراً عظيماً، وفساداً كبيراً، للفرد، والمجتمع، والأمة.

والعصمـة مـن الزلـل: في الرجوع الصـدق إلى كتاب الله تعالى، وسـنة نبيه ﷺ، والسير على نهج السابقين الأولين.

هـذا، ونسـأل الله تعـالى الهدى والسـداد، وصلى الله وسـلم عـلى نبينا محمـد، وعلى آله، وصحبه أجمعين.

* * *

اختبر فهمك

بين يديك مستويان من الأسئلة، أسئلة مباشرة، وأخرى تحتاج منك إلى تأمل، وإمعان نظر.

أسئلة المستوى الأول المباشرة:

١. ما هي فوائد الولاية والإمارة؟.

٢. حب الرئاسة داء عُضال، فما هي أبرز مظاهره؟.

٣. ما هي أسباب حب الرئاسة؟.

٤. لكل داء دواء، فما دواء مرض حب الرئاسة؟.

أسئلة المستوى الثاني الاستنباطية:

١. لماذا سُمّي حب الرئاسة بالشهوة الخفية؟.

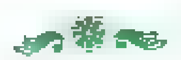
٢. عن كعب بن مالك الأنصاري رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «ما ذِئبانِ جائِعانِ أُرسِلا في غَنَمٍ بِأَفسَدَ لَها مِن حِرصِ المَرءِ عَلَى المالِ والشَّرَفِ لِدِينِهِ»، ما المقصود بهذا الحديث؟.

٣. كيف يكون حب الرئاسة والدنيا مفسداً للدين؟.

٤. ماذا تفهم من قول يوسف عليه السلام لعزيز مصر - كما ذكر الله ذلك عنه في القرآن-: ﴿قَالَ ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٥].

٥. متى يُعان الإنسان على الولاية والإمارة؟ مع ذكر الدليل.

٦. متى يكون طلب الرئاسة عبادة، يثاب المرء عليها؟





العشق



مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد، وعلى آله، وصحبه أجمعين. أما بعد:

فإن القلب السليم لا تكون له لذة تامة، ولا سرور حقيقي، إلا في محبة الله سبحانه، والتقرب إليه بما يحب، والإعراض عن كل محبوب سواه.

وهذه المحبة هي حقيقة شهادة التوحيد: «لا إله إلا الله»، وهي ملة الخليل إبراهيم عليه السلام، وسنة خاتم المرسلين محمد صلى الله عليه وسلم.

وإن من أعظم ما يُفسد القلب ويُبعده عن الله عز وجل: داء العشق.

فهو مرض يُردي صاحبه في المهالك، ويبعده عن خير المسالك، ويجعله في الغواية، ويضلُّه بعد الهداية.

وهو ذلّ في النفس، ورانٌ على القلب، وهوان في الدنيا، وعذاب في الآخرة.

هو الداء الذي تذوب معه الأرواح، ولا يقع معه الارتياح، بل هو بحر هائج، من ركبه غرق؛ لأنه لا ساحل له.

فما العشق؟ وما أنواعه؟ وهل هو اختياري، أم اضطراري؟

تساؤلات كثيرة، أحسن أن نجيب عنها، وعن غيرها من خلال هذا الفصل.

ولا يفوتني أن أشكر كل من ساهم في إعداد هذه المادة، وإخراجها بالصورة المرضية.

نسأل الله أن يوفقنا لما فيه الخير والصلاح، وأن يسدد خطانا لطريق الصواب والفلاح، إنه على كل شيء قدير.

* * *

تعريف العشق

العشق في اللغة:

(العين، والشين، والقاف) هذه المادة تدل في معناها اللغوي على تجاوز حد المحبة[١].

قال ابن منظور رَحِمَهُ اللَّهُ: «العشق: فرط الحب، وقيل: هو عُجب المحب بالمحبوب»[٢].

وسُمِّي العشق عشقاً؛ لذبول القلب من شدة الهوى، كما تذبل العَشَقة إذا قُطعت، وهي شجرة تخضر، ثم تَدق، ثم تصفر.

وقال ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «المعروف من استعمال هذا اللفظ في اللغة إنما هو في محبة جنس النكاح، مثل حب الآدمي مثله ممن يستمتع به، من امرأة، أو صبي، فلا يكاد يُستعمل هذا اللفظ في محبة الإنسان لولده وأقاربه ووطنه وماله ودينه وغير ذلك، ولا في محبة آدمي لغير صورته، مثل محبة الآدمي لعلمه ودينه وشجاعته وكرمه وإحسانه ونحو ذلك.

بل المشهور من لفظ العشق: هو محبة النكاح ومقدماته، فالعاشق يريد الاستمتاع بالنظر إلى المعشوق، وسماع كلامه، أو مباشرته بالقبلة والجس والمعانقة أو الوطء»[٣].

وفي هذا الكلام فائدتان:

الفائدة الأولى: أن العلاقة بين العبد والرب لا يجوز أن يطلق عليها عشق أبداً، كما أطلق المخرفون من الصوفية والملاحدة -كابن عربي وابن سبعين وغيرهما- ذلك على الله عَزَّوَجَلَّ.

(١) مقاييس اللغة (٤/ ٣٢١).

(٢) لسان العرب (١٠/ ٢٥١).

(٣) قاعدة في المحبة (ص٥٤-٥٥).

فقالوا: إن العشق والعاشق والمعشوق شيء واحد، وقالوا بأن الله سبحانه وتعالى قد اتّحد في خلقه، فصار هؤلاء شيئاً واحداً! تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً.

الفائدة الثانية: لا يقال: فلان عشق علماً، ولا عشقتُ في فلان علمَه وخلقه ودينه، فهذه عبارات غير مستعملة؛ لأن العشق مرتبط بالشهوة والعلاقات الشهوانية.

* * *

أنواع العشق

العشق يقع بين طرفين: عاشق ومعشوق، فقد يكون كل منهما عاشقاً لصاحبه، وقد يكون العشق من طرف واحد.

وهناك أمثلة كثيرة في التاريخ على العشق من طرفين، كعنترة وعبلة، وقيس وليلى، وجميل وبثينة، وكُثَيِّر وعزة، وغيرهم ممن كانت حرارة العشق ولوعته موجودة عند كلا الطرفين، كما في قول الشاعر:

عَيناكِ شاهِدَتانِ أَنَّكِ مِن حَرِّ الهَوى تَجِدينَ ما أَجِدُ
بِكِ ما بِنا لَكِن عَلى مَضَضٍ تَتَجَلَّدينَ وَما بِنا جَلَدُ[1]

والعشق الذي يكون من طرف واحد قد ورد له مثال في السنة النبوية، وذلك في قصة بريرة رضي الله عنها مع زوجها مُغيث رضي الله عنه، فإن بريرة كانت أمَة، فلما عتقت خيَّرها النبي صلى الله عليه وسلم بين أن تبقى مع زوجها أو تفارقه وتفسخ نكاحه، فاختارت الفراق، وللمرأة الحق شرعاً في ذلك، إن عتقت وزوجها عبد، وكان مغيث يحب بريرة حباً عظيماً، فلما اختارت الانفصال، تأثر لفراقها كثيراً.

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كأني أنظر إلى مغيث يطوف خلفها يبكي، ودموعه تسيل على لحيته، فقال النبي صلى الله عليه وسلم لعباس رضي الله عنه: **«يا عَبَّاسُ، ألا تَعجَبُ مِن حُبِّ مُغِيثٍ بَرِيرَةَ، وَمِن بُغضِ بَرِيرَةَ مُغِيثاً؟»** فقال النبي صلى الله عليه وسلم: **«لَو راجَعتِهِ»** قالت: يا رسول الله، تأمرني؟ قال: **«إِنَّما أَنا أَشفَعُ»**. قالت: لا حاجة لي فيه[2].

---

(١) روضة المحبين (ص٧٨).

(٢) رواه البخاري (٥٢٨٣).

فهذا العشق وقع بين اثنين يباح بينهما الحب؛ لأنهما زوجان، وقد يقع العشق بين طرفين لا يباح بينهما ذلك، كما هو الحال في كثير من علاقات الحب والعشق المحرمة

والعشق أربعة أنواع، باعتبار أطرافه:

النوع الأول: عشق الرجال للنساء، وهو الأعم الأغلب.

وإذا قلنا إن فيه نوعاً مباحاً، فهو علاقة النكاح بين الرجل وزوجته، أو علاقة التسري بين السيد والأمة، فإذا لم يصل إلى درجة تمس العبودية، أو ارتكاب لأجله المحرمات، أو ترك لأجله الطاعات؛ فإنه يبقى في دائرة المباح.

النوع الثاني: عشق النساء للرجال، وهو كسابقه له حالات جائزة، وله حالات محرمة، ومن الحالات المحرمة: ما أخبرنا الله سبحانه وتعالى به في كتابه عن قصة امرأة العزيز مع يوسف عليه السلام، فكان منه عفة وصبر وتقوى، وكان منها العشق والمطاردة والحرص على إيقاعه في الحرام.

وقد كان الداعي لديه قوياً، وثبته الله عز وجل، فقد كان فيه ميل طبيعي إلى المرأة بما ركبه الله في طبعه كرجل من الميل إلى النساء، وكان شاباً، عزباً، في بلاد غربة، وكانت المرأة ذات منصب وجمال، وغير آبية ولا ممتنعة، بل هي الداعية له، وأسقطت الحواجز النفسية، وهو في دارها، وتحت سلطتها، وهو عبد عندها فلا يخشى على نفسه التهمة، بل يدخل ويخرج دارها بحكم عمله عندها، واستعانت عليه بمن حولها من نساء بلدها، وتوعدته بالسجن والصَّغار، إن لم يلبِّ طلبها.

بالرغم من هذا كله فإن يوسف عليه السلام قد آثر مرضاة لله تعالى، واختار السجن على الزنا، وقال: ﴿رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِۖ وَإِلَّا تَصۡرِفۡ عَنِّي كَيۡدَهُنَّ أَصۡبُ إِلَيۡهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ [يوسف: ٣٣]، وصرف الله تعالى عنه كيدها وكيدهن، وكانت في تلك الواقعة عبرٌ عظيمة، وفوائد كثيرة.

النوع الثالث: عشق الرجال للرجال، وهو ممقوت عند الله، وجالب لغضبه وسخطه، وهو من أضرّ الأمور على العاشق والمعشوق، في الدين والدنيا والآخرة.

ومن هذا النوع عشق الرجال للمردان، وعمل قوم لوط عَلَيْهِ السَّلَامُ، الذين جلبوا لأنفسهم نقمة الله وعدابه، بما فعلوا من هذه الجريمة العظيمة المتولدة من عشق الذكران، حتى وصف الله تعالى عشقهم بأنه سكرٌ؛ فقال: ﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [الحجر: ٧٢]. إنه انتكاس للفطرة، وانحراف للطبع.

النوع الرابع: عشق النساء للنساء، وهذا النوع كسابقه في الجرم والمقت والدناءة والخسة، وكشفت إحدى الدراسات أن السبب الرئيس في انتشاره هو التعلق والإعجاب، وهو مؤذن بفساد مريع، وتدهور أخلاقي شنيع.

وهناك مظاهر تدل على العشق، منها

١ـ محاولة إخفاء العلاقة، والإسرار بها.

٢ـ إطالة الجلوس مع المعشوق.

٣ـ احتفاظ كلٍ من الطرفين بأسراره عند الآخر.

٤ـ التلفظ بعبارات تدل على الحب والغلو في هذه العلاقة.

٥ـ التصريح بالغيرة عليه.

٦ـ تقبُّل كل ما يصدر منه، حتى لو كان فيه إساءة أو معصية.

٧ـ كثرة مخالطته، ومحبة الانفراد به.

* * *

هل العشق اختياري أم اضطراري؟

نسمع كثيراً ممن يشتكون من داء العشق ويقولون: إنهم لا يستطيعون ترك مَن يحبونهم، وأن الموت أهون عليهم من تركهم!.

وهنا يتبادر إلى الذهن سؤال: هل العشق اختياري أم اضطراري؟

حاول العشاق قديماً أن يعذروا أنفسهم بأن العشق اضطراري، وأنه لا حيلة لهم في هذا العشق، ومن ذلك قول الشاعر:

يَلُومُونَنِي فِي حُبِّ سَلمَى كَأَنَّمَا يَرَونَ الهَوَى شَيئاً تَيَمَّمتُهُ عَمدا
أَلا إِنَّمَا الحُبُّ الَّذِي صَدَعَ الحَشا قَضاءٌ مِنَ الرَّحمَنِ يَبلُو بِهِ العَبدا[1]

ومقصدهم: بيان أن العشق قضاء وقدر، وهو بيد الله لا بيد المخلوق.

والحق كما ذكر ابن القيم وغيره من العلماء رحمهم الله: أن مبادئ العشق وأسبابه اختيارية، داخلة تحت التكليف؛ فإن النظر والتفكر والتعرض للمحبة أمر اختياري، فإذا أتى بالأسباب كان ترتب المسبَّب عليها بغير اختياره غالبا، كما قيل:

تَوَلَّعَ بِالعِشقِ حَتَّى عَشِق فَلَمَّا استَقَلَّ بِهِ لَم يُطِق
رَأَى لُجَّةً ظَنَّها مَوجَةً فَلَمَّا تَمَكَّنَ مِنها غَرِق
تَمَنَّى الإِقالَةَ مِن ذَنبِهِ فَلَم يَستَطِعها وَلَم يَستَطِق[2]

وهذا بمنزلة السكر من شرب الخمر؛ فإن تناول المسكر اختياري، وما يتولد عنه السكر

(١) روضة المحبين (ص١٤٢).

(٢) ذم الهوى (ص٥٨٦).

اضطراري، فمتى كان السبب واقعا باختياره، لم يكن معذورا فيما تولد عنه بغير اختياره فمتى كان السبب محظورا، لم يكن السكران معذورا، ولا ريب أن متابعة النظر واستدامة الفكر بمنزلة شُرب المسكر، فهو يلام على السبب.

خطر العشق

إن بعض العشّاق يدّعون أن العشق يسمو بالنفس، ويصعد بالروح، ويجعلون العشق شيئاً إيجابياً، والحق أن العشق سلبياته أكثر من إيجابياته.

قال ابن تيمية رحمه الله: «فإن الَّذي يورثه العشق من نقص العقل والعلم وفساد الخلق والدّين والاشتغال عن مصالح الدّين والدُّنيا، أضعاف ما يتضمنه من جنس المحمُود.

وأصدق شاهد على ذلك ما يعرف من أحوال الأُمم وسماع أخبار النّاس في ذلك، فهو يُغني عن مُعاينة ذلك وتجريبه، ومن جرب ذلك أو عاينه اعتبر بما فيه كفاية، فلم يُوجد قطّ عشق إلّا وضرره أعظم من منفعته»[1]

فمن أضرار العشق وسلبياته:

١. أن العشق ربما أوقع صاحبه في الكفر بالله:

قال ابن القيم رحمه الله عن العشق: «وهُوَ أقسامٌ: تارةً يَكُونُ كُفراً، لِمن اتَّخذ معشوقهُ نداً، يُحبُّهُ كما يُحِبُّ اللهَ، فكيفَ إذا كانَت مَحبّتهُ أعظَمَ مِن محبّةِ الله في قلبه؟ فهذا عِشقٌ لا يُغفرُ لِصاحِبِه، فإنّهُ من أعظمِ الشّركِ، واللهُ لا يغفرُ أن يُشرَكَ بِهِ، وإنّما يَغفِرُ بالتّوبَة الماحيَة ما دُونَ ذلكَ.

وعَلامةُ العِشقِ الشِّركِيِّ الكُفريِّ: أن يُقدِّمَ العاشِقُ رِضاءَ مَعشُوقِهِ على رَبِّهِ، وإذا تعارضَ عِندَهُ حَقُّ مَعشُوقِهِ وحظُّهُ، وحَقُّ ربِّهِ وطاعَتُهُ، قدَّمَ حَقَّ مَعشُوقِهِ على حَقِّ رَبِّهِ، وآثرَ رِضاهُ على رِضاهُ، وبَذلَ لهُ أنفسَ ما يقدِرُ عليهِ، وبذَلَ لِربِّهِ -إن بذلَ- أرذَأ ما عِندَهُ، واستَفرغَ وُسعَهُ في مَرضاةِ مَعشُوقِهِ وطاعَتِهِ والتَّقرُّبِ إليهِ، وجَعَلَ لِربِّهِ -إن أطاعَهُ- الفضلَةَ الَّتي تَفضُلُ عن مَعشُوقِهِ مِن ساعاتِهِ.

(١) الاستقامة (١/ ٤٥٩).

فتأمل حال أكثر عشاق الصور تجدها مطابقة لذلك، ثم ضع حالهم في كفة، وتوحيدهم وإيمانهم في كفة، ثم زن وزناً يرضى الله به ورسوله ويطابق العدل، وربما صرح العاشق منهم بأن وصل معشوقه أحب إليه من توحيد ربه، كما قال العاشق الخبيث:

يترشفن من فمي رشفات ... هن أحلى فيه من التوحيد

وكما صرح الخبيث الآخر أن وصل معشوقه أشهى إليه من رحمة ربه..

ولا ريب أن هذا العشق من أعظم الشرك، وكثير منهم يصرح بأنه لم يبق في قلبه موضع لغير معشوقه ألبتة، بل قد ملك عليه قلبه كله فصار عبداً محضاً من كل وجه لمعشوقه، فقد رضي هذا من عبودية الخالق جل جلاله بعبودية مخلوق مثله؛ فإن العبودية هي كمال الحب والخضوع، وهذا قد استفرغ قوة حبه وخضوعه وذله لمعشوقه، فقد أعطاه حقيقة العبودية

ولا نسبة بين مفسدة هذا الأمر العظيم ومفسدة الفاحشة؛ فإن تلك ذنب كبير، لفاعله حكم أمثاله، ومفسدة هذا العشق مفسدة الشرك، وكان بعض الشيوخ من العارفين يقول: لأن أبتلى بالفاحشة مع تلك الصورة، أحب إلي من أن أبتلى فيها بعشق يتعبد لها قلبي، ويشغله عن الله»[1]

وهذا مجنون عزة يصف ما انتكس إليه قلبه فيقول:

رهبان مدين والذين عهدتهم	يبكون من حذر العذاب قعودا
لو يسمعون كما سمعت حديثها	خروا لعزة ركعاً وسجودا[2]

وهذا رجل ببغداد يقال له صالح المؤذن، أذن أربعين سنة، وكان يعرف بالصلاح، صعد يوماً إلى المنارة ليؤذن، فرأى بنت رجل نصراني كان بيته إلى جانب المسجد، فافتتن بها، فجاء فطرق الباب، فقالت: من؟ فقال: أنا صالح المؤذن، ففتحت له، فلما دخل ضمها إليه. فقالت: أنتم أصحاب الأمانات[3]، فما هذه الخيانة؟! قال: إن وافقتني على ما أريد، وإلا

(١) الجواب الكافي (ص١٥٠)

(٢) وفيات الأعيان (٤/ ١١٢)

(٣) لأن المؤذن مؤتمن على أعراض الناس؛ حيث يصعد على المنارة وسطح المسجد، فيرى البيوت من حوله

فتنتك، فقالت: لا، إلا أن تترك دينك، فقال: هو بريء من الإسلام، ومما جاء به محمد، ثم دنا إليها، فقالت: إنما قلتَ هَذِهِ لِتَقْضِي غَرَضَكَ ثُمَّ تَعُودُ إلى دينِكَ، فَكُلْ من لَحم الخنزير فأكَلَ، قالَت: فاشرب الخمر. فَشَرِبَ. فلمّا دَبَّ الشَّرابُ فيه دَنَا إليها، فَدَخَلت بَيتاً وَأَغلقَت البابَ، وَقالَت: اصعَد إلى السَّطحِ؛ حَتَّى إذا جاءَ أَبي رَوَّجني مِنكَ. فَصَعَدَ، فَسَقَطَ، فَمَاتَ، فَخَرَجَت، فَلَفَّتهُ في مِسحٍ، فَجاءَ أَبوها، فَقَصَّت عَلَيه القِصَّة، فأخرَجَهُ في اللَّيلِ، فَرَماهُ في السِّكَّةِ، فَظَهَرَ حَديثُهُ، فَرُمِي في مَزبلَةٍ»[1].

وقال ابن القيم رحمه الله: «وَإِذا أَرادَ النَّصارَى أَنْ يُنَصِّرُوا الأَسِيرَ، أَرَوهُ امرَأَةً جَمِيلَةً، وَأَمَرُوها أَنْ تُطمِعَهُ في نَفسِها، حَتَّى إذا تَمَكَّنَ حُبُّها مِن قَلبِهِ، بَذَلَت لهُ نَفسَها إن دَخَلَ في دِينِها، فهنالِكَ: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّـٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾»[2].

٢. استعمال العاشق شتى الوسائل لوصال معشوقه.

إن العاشق يسعى للنيل من معشوقه بشتى الوسائل، وربما استعان العاشق على وصل المعشوق بشياطين الجن عن طريق السحر، وهذا موجود في الواقع، ومعلوم لدى الناس.

فلأجل أن يصل إلى هذا المعشوق يستخدم العاشق السحر ليخضع المعشوق له، فيأتيه متى ما يريد، ولا يحتجب منه، ولا يمتنع عنه، وهذه طامة عظيمة؛ لأن السحر كُفر بالله العظيم.

٣. اشتغال العاشق بذكر المخلوق عن ذكر الخالق:

من مفاسد العشق: اشتغال العاشق بذكر المخلوق وحبه، عن حب الرب وذكره؛ لأنه لا يجتمع في القلب حب الخالق وعشق المخلوق، بل لابد أن يقهر أحدهما الآخر.

ولذلك فإن أصحاب العشق الشيطاني لهم من تولي الشيطان نصيب عظيم، ترى الواحد منهم عبداً لذلك المعشوق، يصرّح في حضوره ومغيبه أنه عبده!.

---

(١) ذم الهوى (ص٤٥٩).

(٢) الجواب الكافي (ص١٥٥).

وينتشر هذا الداء عند أصحاب الغناء، فإنهم يصرّحون في أغانيهم بأنهم عبيدٌ لمن يحبونه ويعشقونه، بل قد يعبّرون عن ذلك بالصلاة والعبادة.

وهذا العاشق يقدم رضا معشوقه على رضا ربه، ولقاء معشوقه على لقاء ربه، ويتمنى قرب معشوقه أعظم من تمنيه قرب الرب سبحانه، ويهرب من سخط معشوقه أشد من هربه من سخط الرب سبحانه، وقد يُسخط ربَّه بمرضاة معشوقه، ويقدم مصالح معشوقه على طاعة ربه، فإن فضل من وقته فضلة وكان عنده قليل من الإيمان صرف تلك الفضلة في طاعة ربه، وإن استغرق الزمان حوائج معشوقه ومصالحه صرف زمانه كله فيها، وأهمل أمر الله.

يجود لمعشوقه بكل نفيسة ونفيس، ويجعل لربه من ماله -إن جعل له- كل رذيلة وخسيس، فلمعشوقه لبه وقلبه وهمّه ووقته وخالص ماله، ولربه الفضلة!

قد اتخذه وراءه ظهريًّا، وصار لذكره نسيًّا، إن قام في خدمته في الصلاة. فلسانه يناجيه وقلبه يناجي معشوقه، وإن وجّه بدنه إلى القبلة: فقلبه موجه إلى معشوقه.

ينفِرُ، أو يَنفُر من خدمة ربه، حتى كأنه واقف في الصلاة على الجمر من ثقلها عليه، فإذا جاءت خدمة المعشوق أقبل عليها بقلبه وبدنه فرحاً بها، ناصحاً له فيها، خفيفة على قلبه، لا يستثقلها، ولا يستطيلها.

ولا ريب أن هؤلاء من الذين اتخذوا من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله، وهذا مجنون ليلى يقول:

أَرَانِي إِذا صَلَّيْتُ يَمَّمْتُ نَحْوَها
بِوَجْهِي وَإِنْ كانَ المُصَلَّى وَرائِيا

وَما بِيَ إِشراكٌ وَلَكِنَّ حُبَّها
كَعَظْمِ الشَّجا[1] أَعيا الطَّبيبَ المُداوِيا[2]

(١) عظم الشجى: هو العظم المعترض في الحلق، والذي يصعب إخراجه، كحسك السمكة.

(٢) ذم الهوى (ص٤٠٣-٤٠٤).

٤ـ عذاب قلب العاشق:

فإنّ من أحب شيئاً غير الله عُذِّب به ولابد، كما قيل:

وَما فِي الأَرضِ أَشقَى مِن مُحِبٍّ ... وَإِن وَجَدَ الهَوَى عَذبَ المَذاقِ
تَـراهُ بـاكِيـاً فِي كُـلِّ حِـينٍ ... مَخـافَـةَ فُـرقَـةٍ أَو لاشـتِـيـاقِ[1]

والعشق وإن استلذّ به صاحبه فهو من أعظم العذاب، والعاشق قلبه أسيرٌ في قبضة معشوقه، يسومه سوء الهوان، يحركه يميناً وشمالاً، يستجيب له كالطفل الذي يحرك الآلة بجهاز التحكم، ولكن لسُكرة العشق لا يشعر بالمصيبة، فقلبه.

كعصفورة في كف طفل يذيقها ... أفانين طعم الموت، والطفل يلعب[2]

والعاشق كما قيل:

طَلِيـقٌ بِرَأيِ العَيـنِ وَهوَ أَسِيـرُ ... عَلِيلٌ عَلَى قُطـبِ الهَلاكِ يَدُورُ
وَمَيتٌ يُرَى فِي صُورَةِ الحَيِّ غادِياً ... وَلَيسَ لَهُ حَتَّى النُّشُورِ نُشُورُ
أَخُو غَمَـراتٍ ضاعَ فِيهِنَّ قَلبُـهُ ... فَلَيسَ لَهُ حَتَّى المَماتِ حُضُورُ[3]

٥ـ اشتغال العاشق عن مصالح دينه ودنياه:

فليس شيء أضيع للدين ومصالح الدنيا من عشق الصور.

أما ضياع الدين فلأن هذا الإنسان قد تفرق قلبه عن الله بالعشق، فلا يجد وقتاً لمرضاة ربه.

وأما مصالح الدنيا فهي تابعة لمصالح الدين، فإذا انشغل عن مصالح الدين، كان عن مصالح الدنيا أشد شغلاً وتفريطاً.

٦ـ آفات الدنيا والآخرة أسرع إلى العشاق من النار في الحطب اليابس:

وسبب ذلك: أن القلب كلما قرب من العشق وقوي اتصاله بالمعشوق بَعُد عن الله، فأبعدُ

(١) ذم الهوى (ص٥٩٢).
(٢) معجم الشعراء العرب (ص٢٣١٩).
(٣) الجواب الكافي (ص١٥١).

القلوب عن الله قلوب العشق، وإذا بَعد القلب عن الله طرقته الآفات، وتولاه الشيطان من كل ناحية، ومَن تولاه عدوه واستولى عليه لم يدع أذىً يمكنه إيصاله إليه إلا أوصله.

فما الظنّ بقلبٍ تمكن منه عدوه وأحرص الخلق على غيه وفساده؟!

وكذلك: فإن العشق إذا تمكن من القلب واستحكم، أفسد العقل، وأفسد الذهن، وأحدث الوسوس، وأفقد القدرة على التفكير، ولذلك تراه لا يُتقن درساً، ولا يفلح في تجارة، ولا يحسن النظر في قضية، ولا يُجيد حلَّ مشكلة؛ لأن التفكير قد شُلّ، والقلب قد علاه الران، فلم يَعُد يدري كيف يفكر!

وأشرف ما في الإنسان عقله، وبه يتميز عن البهائم، فإذا عُدِم العقل وفقده التحق بالبهائم، وربما كان حال الحيوان أصلح من حاله.

وهل أذهب عقل مجنون ليلى وأضرّ به إلا العشق؟!

بل زاد جنونه على جنون غيره.

قالُوا جُنِنتَ بِمَن تَهوَى فَقُلتُ لَهُم	العِشـقُ أَعظَمُ مِمّا بِالـمَجانِيـنِ
العِشقُ لا يَستَفيقُ الدَّهرَ صاحِبُهُ	وَإِنَّما يُصـرَعُ المَجنُونُ في الحِينِ[1]

أما المفسد المعنوي فهو فساد القلب، والقلب إذا فسد فسدت العين والأذن واللسان، والقلب الفاسد يُري صاحبَه القبائح محاسن، ويُعمي العشق عين القلب عن رؤية مساوئ المحبوب المعشوق، وعن تبصّر عيوبه، فلا ترى عَين العاشق أبداً عيوب المعشوق، فيصم أذنه عن الإصغاء إلى أي قدحٍ فيه، ومتّهٍ على أخطائه، ويستميت في الدفاع عنه، ولو كان خطأ المعشوق واضحاً.

ولما بلغ السيلُ الزُّبى، وبلغ به هذا المبلغ، لم يَعُد يرتضي أن يقدح في معشوقه أحد، أو أن يذمّه أحد، أو أن ينتقده أحد، فيدافع عنه بالحق والباطل، ويستميت في ذلك.

والرغبات تستر العيوب، فالراغب في الشيء لا يرى عيوبه، حتى إذا زالت الرغبة أبصر العيوب، وكانت هذه الرغبة ستاراً يُغشي البصر، ولذلك قال ذاك العاشق.

(١) مجموع الفتاوى (١٥/ ٤٢٥).

عَلِقْتُكِ إذْ عَيْني عَلَيها غِشاوَةٌ ... فَلَمّا انجَلَتْ قَطَّعْتُ نَفسِي أَلُومُها[1]

فعندما كان عاشقاً كانت عليه غشاوة، وبعد أن ذهب عنه ذلك العشق أصبح يتساءل كيف كنت معجباً بهذه؟!

وهكذا.. فإن الداخل في الشيء لا يرى عيوبه، والذي هو خارجه قد لا يرى عيوبه أيضاً، وإنما يرى عيوبه مَن دخل فيه ثم خرج منه، ولكن الذي يدخل العشق ويخرج منه قليل جداً.

لماذا كان الصحابة الذين دخلوا في الإسلام بعد الكفر خيراً من الذين ولدوا في الإسلام؟

لأنهم عرفوا الكفر ورأوه وذاقوه ومارسوه، ثم بعد ذلك اهتدوا، فعرفوا الجاهلية وعرفوا الإسلام، وهذا معنى قول عمر رضي الله عنه «إنما تُنقض عُرى الإسلام عروةً عروة: إذا وُلد في الإسلام مَن لا يعرف الجاهلية»[2].

وأما إفساد العشق للحواس: فشيء ظاهر؛ فإنها تمرض كما يمرض البدن، فبدن العاشق تُنسَلُّ منه العافية، فترى العاشق نحيلاً مريضاً كئيباً هزيلاً ضعيفاً طريح الفراش، لا يستطيع أداء عمل، ولا إفادة أحد.

رُفِعَ إلى ابنِ عَبّاسٍ رضي الله عنهما شابٌّ، وَهُوَ بِعَرَفَةَ، قَد صارَ كالخلال. فَقالَ: ما بِهِ؟ قالُوا: العِشقُ. فَجَعَلَ ابنُ عَبّاسٍ رضي الله عنهما عامَّةَ دُعائِهِ بِعَرَفَةَ: الاستِعاذَةَ مِن العِشقِ[3].

فمن فَرْطِ المحبة يستولي العشق على قلب المعشوق، حتى لا يستطيع أن يسلو من محبوبه، ولا أن يترك التفكير فيه، فصورة محبوبه دائماً في ذهنه، دائماً على لسانه، يراه في منامه، ويتخيله في يقظته، يصحو على ذكره، وينام على صورته، ولا يغيب عن خاطره.

---

(١) ذم الهوى (ص٣٣٢).

(٢) ذكر شيخ الإسلام رحمه الله هذا الأثر في مجموع الفتاوى (١٠/ ٣٠١)، وقد أخرجه الحاكم (٤/ ٤٧٥)، وابن أبي شيبة (٦/ ٤١٠) بلفظ آخر عن المستظل بن حصين البارقي قال: «خطبنا عمر بن الخطاب فقال: قد علمتُ وربِّ الكعبة متى تهلك العرب، فقام إليه رجلٌ من المسلمين فقال: متى يهلكون يا أمير المؤمنين؟ قال: حين يسوس أمرَهم من لم يعالج أمرَ الجاهلية، ولم يصحب الرسول صلى الله عليه وسلم».

(٣) مدارج السالكين (٣/ ٣١).

تتعطل قواه الجسدية، وتفسد روحه، وتتغير أفعاله، وتنقلب صفاته، وتنعكس مقاصده، ويحدث لديه اختلال عقلي وجسدي وروحي

وهو مرض من أخطر الأمراض، فلا تكاد ترى له دواءً، ولا طبيباً.

الحُبُّ أَوَّلُ ما يَكُونُ لَجَاجَةً تَأْتِي بِهِ وَتَسُوقُهُ الأَقْدارُ
حَتَّى إذا اقْتَحَمَ الفَتَى لُجَجَ الهَوَى جاءَت أُمُورٌ لا تُطاقُ كِبارُ[1]

العشق مبدؤه سهل حلو، وأوسطه همّ وشغل قلب وسقم، وآخره عطب وقتل، ولذلك وصل الحال ببعض العشاق إلى الموت بسبب العشق.

هناك عشاق ماتوا، لا زالوا يذبلون ويذبلون، لا يشتهون طعاماً، ولا يذوقون راحة، حتى ماتوا.

وَعِشْ خالِياً فالحُبُّ أَوَّلُهُ عَنا وَأَوسَطُهُ سَقَمٌ وَآخِرُهُ قَتلُ[2]

والمسألة يجني بها العاشق على نفسه، بدايتها منه، وأسبابها منه، وهو الذي أرادها، ومشى إليها، وسعى فيها.

هو الذي تعمد النظر، وهو الذي قصد التفكير، وهو الذي استدام طول المجالسة، وكثرة الحديث مع هذا المعشوق، حتى وصلت القضية إلى العشق.

فالمسألة كانت بيده أولاً، وكان من الممكن أن يرجع قبل الغرق في بحر العشق، لكن بعدما صار في لُجج الهوى، كيف يرجع؟

لو أدخلت فرسك في زقاق ضيق جداً، فمن الممكن أن ترجع إلى الخلف في بداية الزقاق بشيء يسير من الجهد، لكن إذا أصبحت في وسط الزقاق وقد أبعدت وأوغلت، فكيف ترجع؟

إن الدابة لا تستطيع الدوران للرجوع، ولا تستطيع أن تمشي إلى الخلف.

ولذلك، فإن مَن دخل في هذا الموضوع لا يستطيع أن يتركه، إلا بتوفيق الله.

---

(١) ذم الهوى (ص٣٣٤)

(٢) روضة المحبين (ص١٤١)

٧. فساد سيرة العاشق بين الناس

إن هذا العاشق يضرّ بسيرته وسمعته عند الناس، فتصبح سيرته على كل لسان، ويتناقل الناس قصصه متلذذين شامتين، وربما افتروا عليه فيها؛ ليجمّلوا القصة ويحسنوها، وقد يتهمونه بالفاحشة، وغير ذلك.

٨. استغلال المعشوق العاشق أحياناً

ربما يستغلّ بعض هؤلاء المعشوقين تلك العلاقة المحرمة، ويستغلون العاشق استغلالاً بشعاً، فيأخذون أمواله وبعض ممتلكاته.

تحدَّثت إحدى العوائل عن ابنها الذي سافر إلى بلدٍ من البلدان، وعشق امرأة هناك، طارت بلبّه، وذهبت بعقله، فأنفق عليها الكثير من أمواله في المطاعم، والفنادق، والهبات، والأعطيات، والملابس، والحليّ، وغير ذلك، حتى رجع مفلساً.

وقد يدخل بعضهم السجن؛ بسبب السرقة، أو الاقتراض، من أجل محبوبته.

٩. العشق ربما أدى إلى القتل، وارتكاب الجرائم.

فكم للعشق من قتيل من الجانبين!

فربما عمد العاشق إلى قتل أي طرف آخر يقترب من معشوقه أو معشوقته!.

فهذا العشق كم قد أزال من نعمة، وأفقر من غني، وأسقط من مرتبة، وشتَّت من شمل، وكم أفسد من أسَر، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

١٠. عدم التوفيق للخاتمة الحسنة

ومن مفاسد العشق: عدم توفيق العاشق للخاتمة الحسنة، إلا أن يتغمده الله برحمته، وإذا كان العبد في حال حضور ذهنه وقوته وكمال إدراكه قد يخدعه الشيطان، فكيف إذا صار غافلاً عن ذكر الله؟

وكيف إذا نزل به الموت، وسقطت قواه، واشتغل قلبه بألم النزع، واجتمع عليه كيد إبليس، وحشد عليه كل ما يقدر؛ لينال الفرصة النهائية بخروجه من الدنيا، فهل يسلم العاشق عند ذلك في هذه اللحظة من الضعف؟!

هنالك ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ [إبراهيم ٢٧].

والسؤال هو: كيف يوفق لحسن الخاتمة من غفل قلبه عن ذكر الله، واتبع هواه، وكان أسيراً للشهوات والموبقات؟!

مَن كانت جوارحه معطلة عن طاعة الله، ولسانه بمعزل عن ذكر الله، وكان مشغولاً بالمعصية وخدمة المعشوق، كيف تُكتب له العاقبة الحسنة؟!

وقصة صاحب «حمام منجاب» الذي مات على ذكر محبوبته واعظٌ لمن كان له قلب، أو ألقى السمع وهو شهيد.

رُوي أن رجلاً نزل به الموت فقيل له: قل: لا إله إلا الله. فجعل يقول: أين الطريق إلى حمام منجاب؟

وقصته: أنه كان واقفاً على باب داره يوماً، وكان بابه يشبه باب الحمام، فمرت به جارية لها منظر جميل وهي تقول: أين الطريق إلى حمام منجاب؟ فقال لها: هذا حمام منجاب. وأشار إلى داره، فدخلت الدار، فدخل وراءها، فلما رأت نفسها معه في داره وليست بحمام علمت أنه خدعها، فأظهرت له البشر والفرح باجتماعها معه على تلك الخلوة في تلك الدار، وقالت له: يصلح أن يكون عندنا ما يطيب به عيشنا، وتقر به عيوننا، فهلا جئت بشيء من الطعام. فقال لها: الساعة آتيك بكل ما تريدين، وبكل ما تشتهين، وخرج، فتركها في الدار ولم يغلقها، تركها مفتوحة على حالها، ومضى، فأخذ ما يصلح لها، ورجع ودخل الدار، فوجدها قد خرجت وذهبت، ولم يجد لها أثراً، فهام الرجل بها، وأكثر الذكر لها والجزع عليها، وظل يمشي في الطرق والأزقة وهو يقول:

يا رُبَّ قائِلَةٍ يَوماً وَقَد تَعِبَت ... أَينَ الطَّريقُ إِلى حَمّامِ مِنجابِ

وبعد أشهر مر في بعض الأزقة وهو ينشد هذا البيت، وإذا بجارية تجاوبه من طاقٍ وهي تقول:

هَلّا جَعَلتَ لَها إِذ ظَفِرتَ بِها ... حِرزاً عَلى الدّارِ أَو قُفلاً عَلى البابِ

فزاد هيمانه، واشتد هيجانه، ولم يزل كذلك حتى مات على الحال التي ذكرنا، نعوذ بالله من المحن والفتن[١].

وقريب منه:

ذلك الذي كان يعشق شاباً اسمه أسلم، واشتد به الأمر إلى أن أصابه المرض بسبب فراقه، وحضرته الوفاة، فقيل له: قل لا إله إلا الله. فقال:

أَسلَمُ يا راحَةَ العَليلِ رِفقاً عَلَى الهائِمِ النَّحِيلِ
وَصلُكَ أَشهَى إلى فُؤادِي مِن رَحمَةِ الخالِقِ الجَليلِ

ومات على هذه الكلمة[٢].

١١. فساد العقل:

العشق قد يُفسد العقل، فترى الناس في وادٍ والعاشق في وادٍ آخر، دائم التفكير بمحبوبه، فلا يستطيع أن يستفيد من عقله، ولا يُفيد أحداً بفائدة.

بل إنه ربما جعل دواءه داءه!.

* * *

(١) العاقبة في ذكر الموت (ص١٧٩-١٨٠)

(٢) ذم الهوى (ص٥٦٠)

أسباب العشق

للوقوع في العشق أسباب عديدة، منها:

إعراض القلب عن محبة الله

قال العلماء عن العشق: «العشق حركة قلب فارغ»[1].

والمقصود: أن القلب لو كان فيه محبة الله لا يمكن أن يدخله العشق، فالعشق إنما تُبتَلى به القلوب الفارغة من محبة الله.

قال ابن القيم رحمه الله: «ومن أعظم الأشياء ضرراً على العبد بطالته وفراغه، فإن النفس لا تقعد فارغة، بل إن لم يشغلها بما ينفعها شغلته بما يضره، ولابد»[2].

فإن لم يكن هناك محبة قوية لله سبحانه وتعالى؛ فلابُدَّ أن تدخل محبة شخص آخر ذلك القلب، فإن النفس لا تقعد فارغة، وإن لم تشغلها بالطاعة شغلتك بالمعصية، والقلب إذا خلا من محبة الله امتلأ بغيره.

أَتاني هَواها قَبلَ أَن أَعرِفَ الهَوَى فَصادَفَ قَلباً خاوِياً فَتَمَكنا[3]

الجوع العاطفي:

بعض الناس يكون عنده جوع عاطفي، فعاطفته لم تُشبَع منذ صغره، فربما كان مفتقداً لحنان أمٍ ترضعه وترعاه، وشفقة أبٍ يحوطه ويحنو عليه، فيبحث عن هذا الحنان من خلال العشق.

(١) زاد المعاد (٤/ ٢٤٦).

(٢) طريق الهجرتين (ص٤١٣).

(٣) روضة المحبين (ص١٣٨).

وهؤلاء الأطفال الذين عاشوا في أسرة مفككة، فالأب طلّق الأم، ولم يرعيا أطفالهما، بل قد يكون الطفل عاش في بيت ثالث، فلم يذق حنان أمه، ولم يعرف شفقة أبيه، هؤلاء الأطفال هم أكثر الناس عرضة لهذا النوع من العشق؛ لجوعهم العاطفي.

لذلك؛ فإن إشباع غريزة الطفل في العاطفة من قبَل الأبوين؛ يجعل له ثباتاً نفسياً، وربما يُبعدُ عنه مثل هذه الآفات.

الأغاني المحرمة، والأفلام الهابطة، والروايات الرومانسية:

من الأسباب العظيمة للوقوع في العشق هذه الوسائل الخطيرة من الأغاني والأفلام الهابطة، التي تدعو إلى الفحشاء والعلاقات المحرمة، فجُلُّ الأغاني، ونسبة كبيرة من الأفلام تدور حول هذا الموضوع.

فكلمات الأغاني تدور حول المحبوبة والمعشوقة، ولا تتحدث إلا عن الحب والغرام، ولا تصف إلا أحوال العشاق.

والأفلام تصور قصص العشاق بأفضل الوسائل التكنولوجية الحديثة، بقصص كتبها متخصصون، ومثّلها ممثلون، مع ما يصاحبها من الموسيقى الحالمة، والكلمات المثيرة، مما جعل كثيراً من الناس يعجبون بالعشق والغرام، ويَسعون لتطبيق ما سمعوه وشاهدوه.

وليست الروايات الرومانسية ببعيدة عن هذه المفاسد، بل قد تزيد مفاسدها في بعض الأحيان.

إن هذه الأفلام والروايات قد أضرت بشبابنا وفتياتنا أعظم الضرر، وأوقعتهم في مرض العشق، فهاموا على وجوههم في صحراء المعاصي، لا يجدون معلَماً للحق يأوون إليه؛ لعظَم تعلق قلوبهم بغير الله.

هذا الجوع العاطفي جعل الشباب في هيجان شديد، يبحثون عن الشهوات المحرمة، والعلاقات المشبوهة، في كل وقت.

ضعف الشخصية والتقليد:

إن العاشق فيه ضعف في الشخصية، لا يستطيع أن يتحكم في عواطفه ومشاعره، بل يجرفه التيار، ولذا: يقع فيما يقع فيه الناس بدون تفكير، ولو كان حزما قويّ الشكيمة لامتلك زمام نفسه، ولردَّها عن هذا الغيّ.

غياب القدوة الصالحة:

من أسباب الوقوع في العشق: عدم وجود القدوة الصالحة التي توجِّه عواطف الشباب والفتيات إلى ما ينبغي حبه، وهو حب الله عَزَّوَجَلَّ، وحب رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وحب الصالحين، فحمل النفس على حب الله ورسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وحب الصالحين يجعل في القلب غُنية عن حب الصور والعشق المحرم.

الفراغ:

الفراغ داء العصر، أشغل كثيرا من الشباب بالمعاصي، خاصة عندما يكون الشاب في مجتمع غني لا يحتاج فيه للعمل، فيتفرغ للعشق والهيمان، والذهاب للأسواق، والسير خلف فلانة وفلان، وتضييع الساعات الطويلة في هذا الأمر.

مظاهر الزينة:

ومن أسباب الوقوع في العشق: انتشار مظاهر الزينة التي كثرت في هذا العصر، فزُينت الأجساد بما بهر الألباب، وأوقع القلوب في سجن العشق.

عدم حفظ الجوارح:

إن عدم حفظ الجوارح يدفع بالإنسان إلى وقوع القلب في العشق والهوى، وقد يكون العشق بالنظر أو بالسمع.

فوقوع العشق بالنظر واضح جدًا، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**إنَّ الله كَتَبَ عَلَى ابنِ آدمَ حَظَّهُ مِنَ الزِّنا، أَدرَكَ ذَلِكَ لا مَحالَةَ، فَزِنا العَينِ النَّظَرُ، وَزِنا اللِّسانِ المَنطِقُ، والنَّفسُ تَمَنَّى وَتَشتَهِي، والفَرجُ يُصَدِّقُ ذَلِكَ كُلَّهُ أَو يُكَذِّبُهُ**»[1].

---

(١) رواه البخاري (٦٢٤٣)، ومسلم (٢٦٥٧).

فتأمل كيف بدأ النبي ﷺ بذكر النظر.

وقد يكون السمع طريقاً إلى ذلك، فقد أوقع سماع الأغاني كثيراً من الشباب في العشق، فكان سماع الأغنية الذي وقر في القلب هو الذي أدى إلى هذه الهاوية، كما قال بشار بن برد:

يا قومِ أُذني لِبَعضِ الحَيِّ عاشِقَةٌ والأُذنُ تَعشَقُ قَبلَ العَينِ أَحيانا
قالُوا: بِمَن لا تَرى تَهذِي، فَقُلتُ لَهُم: الأُذنُ كالعَينِ تُوفِي القَلبَ ما كانا[1]

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: **«لا تُبَاشِرُ المرأةُ المرأةَ، فَتَنعَتُها لِزَوجِها، كَأَنَّهُ يَنظُرُ إِلَيها»**[2].

لماذا؟

حتى لا يعشقها، فإن القلب قد يعشق بالسماع.

وهذا خطأ تقع فيه كثير من الزوجات، فتجلس الزوجة تصف لزوجها امرأة أخرى، شكلها كذا، وطولها كذا، ولونها كذا، وتحدثه عن ميزاتها، وضحكها، ومزاحها.

فيقع الرجل في غرام هذه المرأة، حتى وإن لم يرَها.

وبعضُ الأزواج تزوَّجَ ثانية، من وراء وصف زوجته هذه الثانية، كانت زميلتها، فإذا بها تصبح ضرتها!

***

(١) خزانة الأدب (٣/ ٢١٩).
(٢) رواه البخاري (٥٢٤٠).

سبل الوقاية من العشق

للوقاية من الوقوع في مرض العشق وسائل عدة، من أبرزها ما يلي:

اجتناب أسباب العشق:

الطبع تتسوى في الميل إلى الهوى، فيسعي للحازم اجتنب أسبابه، والبعد عنه منذ البداية، فيحمي سمعه وبصره من مسببات الهوى.

محبة الله وحده، وملء القلب بها.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «ولهذا كان أعظم صلاح العبد: أن يصرف كل قوى حبه لله تعالى وحده، بحيث يحب الله بكل قلبه وروحه وجوارحه، فيوحِّد محبوبه، ويوحد حبه، فتوحيد المحبوب: ألا يتعدد محبوبه، وتوحيد الحب: أن لا يبقى في قلبه بقية حب، حتى يبذلها له»[1]

فيجب على الإنسان ألا يبقى في قلبه حب إلا ويبذله لله، فيحب الله، ويحب في الله، ويبغض في الله، ويكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وهذا الحب غاية صلاح العبد ونعيمه وقرة عينه، وليس لقلبه صلاح ولا نعيم إلا به.

محبة الله فوق محبة العشاق والمحبين لمحبوبيهم، إنها أكمل وأعظم وأكثر وأشد من محبة الولد والوالد والمال؛ لأن محبة الله فيها كمال ذل وخضوع وتعظيم وطاعة وانقياد، ظاهراً وباطناً.

(١) روضة المحبين (ص١٩٩).

تحليل العلاقات:

على الإنسان العاقل أن يحلل علاقاته مع الآخرين؛ فيسطر: لمَ أحبَّ فلاناً ولمَ كرِهَ الآخر، ولا يعمل على خداع نفسه، فلا يبرر لنفسه أنه يحب فلاناً في الله، مع أن الحقيقة أنه يحبه لجمال منظره، وبهاء طلعته.

غض البصر:

الواجب على من وقع نظره على مستحسن فوجد لذة تلك النظرة أن يصرف بصره؛ لأن الناظر متى عاود الكرة، وقع في اللوم شرعاً وعقلاً.

وتأمل قوله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ﴾ [النور: ٣٠]، فجعل سبحانه غض البصر وحفظ الفرج أزكى للنفس، وزكاة النفوس تتضمن زوال جميع الشرور، ومن ذلك العشق.

والعشق له علاقة قوية بالنظر، وعلاجه غض البصر، وعدم تكراره؛ فإن النظر كالبذرة التي تبذر في الأرض، فالنظرة الأولى هي البذرة، ولكن معاودة النظر هو الماء الذي تُسقى به تلك البذرة.

فإذا تعاهد الشخص تلك البذرة بالسقي، فستصبح البذرة شجرة قوية، لا يمكن انتزاعها.

ولذلك، فإن غض البصر من أعظم الوقايات.

* * *

علاج العشق

أما علاج العشق: فيختلف بحسب المرحلة التي وصل إليها العاشق، فدخول الهوى يسير، ولكن الخروج منه شديد.

ومن علاجات العشق:

١. الفرار:

البعد عن أرض المعشوق من أعظم علاجات العشق، كما يقال: البعيد عن العين بعيدٌ عن القلب.

فعلى العاشق أن يسافر إلى بلد آخر، ويترك المكان الذي يرى فيه معشوقه، فيغيّر مسكنه، أو مقر عمله.

وعلى المسلم أن يحذر من خديعة إبليس، والتي يصح بها العشاق وأهل الغرام

نَعِمَت بِها عَينِي فَطالَ عَذابُها وَلَكَم عَذابٌ قَد جَناهُ نَعِيمُ!
نَظَرَت فَأَقصَدَتِ الفُؤادَ بِسَهمِها ثُمَّ انثَنَت نَحوِي فَكِدتُ أَهِيمُ
وَيلاهُ إِن نَظَرَت وَإِن هِيَ أَعرَضَت وَقعُ السِّهامِ وَنَزعُهُنَّ أَلِيمُ[1]

ولابدَّ للمعشوق أن يكون له دور في العلاج، فعليه أن يفر من العاشق، ويخرج من أرضه، ويُخلّي الطريق فارغاً، حتى لا يقع العاشق على خبر له، ولا على حسٍّ أو أثر، فلا يراه، ولا يسمع كلامه، حتى ينساه شيئاً فشيئاً.

وقد يحس المعشوق بالألم هذا الفراق، ويزداد عذاباً به، فيقال له: اصبر؛ فإن النصر مع الصبر.

(١) ذم الهوى (ص٥٩٦)

وقد يقول: أوشكت على الموت، فنقول له: لو مت فأنت مأجورٌ بإذن الله؛ لأنك منعت نفسك عن الحرام. وإن عشت فستحيا حياة كريمة تتخلص فيها من هذا البلاء.

وإياك من النظرة الأخيرة، فإن بعضهم قد يقول عندما يشتد به الأمر: هاتوه لحظة، أراه، وأجلس معه قليلاً فقط، فنقول: لو جلس معك ورأيته؛ فسترجع إلى ما كنت عليه.

كما أن على المعشوق أن يتقي الله وينصرف عن طريق العاشق، وإلا، فإنه سيعرِّض العاشق للتلف، وذلك ظلم منه، بل عليه أن يسعى بكل طريق في إنقاذه، وإخراجه من هذه الحالة، بالبعد عنه.

٢. تأمُّل مساوئ المعشوق:

إن عين المحب كليلة عن عيوب المحبوب، والعاشق لا يكاد يرى شيئاً من عيوب محبوبه، بل قد يراها من المحاسن.

ومن علاج الهوى: أن يتأمل الإنسان في مساوئ محبوبه: كيف يحمل النجاسات في أحشائه وأمعائه! وإذا كانت امرأة: ماذا يحصل لها من الحيض والنفاس والدماء!

قال ابن مسعود رضي الله عنه: «إذا أعجبت أحدكم امرأة: فليذكر مَنَتْنها»(١).

يُذكر أنَّ رَجُلا وامرَأتَهُ اختَصَما إلى أَميرٍ مِن أُمَراءِ العِراقِ، وَكانَت المَرأَةُ حَسَنَةَ المُتَنَقَّبِ، قَبيحَةَ المَسفرِ، وَكانَ لها لِسانٌ، فَكَأَنَّ العامِلَ مالَ مَعَها، فَقالَ: يَعمَدُ أَحَدُكُم إلى المَرأَةِ الكَريمَةِ فَيَتَزَوَّجُها، ثُمَّ يُسيءُ إليها. فَأَهوى الرَّجُلُ، فَأَلقى النقابَ عَن وَجهِها، فَقالَ العامِلُ: عَلَيكِ اللَّعنَةُ! كَلامُ مَظلومٍ، وَوَجهُ ظالِمٍ(٢).

قال ذلك لما رأى المنظر الحقيقي لبقية الوجه، واتضح له أن المرأة ليست جميلة.

٣. ردع النفس عن الحرام:

على الإنسان أن يردع نفسه عن الحرام، فإن كانت المعشوقة زوجة لرجل يقول لنفسه: هذه زوجة رجل، فكيف أعشقها؟

---

(١) ذم الهوى (ص١٥).

(٢) ذم الهوى (ص٥٨٥).

وإذا كان ذكراً فالله هذه العلاقة التي لعن الله عليها قوم لوط، وأهلكهم، وعاقبهم بعقوبات ما عاقب غيرهم بها: ﴿فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ﴾ [القمر: ٣٧]، ﴿جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ﴾ [هود: ٨٢]، ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ﴾ [الحجر: ٧٣].

ليس هناك قوم عاقبهم الله بمثل عقاب قوم لوط؛ فإذا جاء في نفسه عشق أحد الذكران أو المردان؛ فليردع نفسه عن هذا العشق؛ بتذكيرها بهذا العقاب الأليم.

٤. تذكير النفس بعظمة الرب سبحانه:

لو أن الإنسان رأى زوجة ملك من الملوك فهويها، وتعلق قلبه بها، فما الذي يقطعه عنها؟

إنه الخوف من ذلك الملك، وخوف انتقامه وبطشه.

فعلى المرء أن يذكِّر نفسه بعظمة الرب سبحانه، وأنه شديد العقاب، قوي البطش

٥. النظر في عواقب العشق:

إن العشق يورث قلقاً دائماً، وعواقب مشينة، وأضراراً عظيمة.

فالعشق يُصَيِّر الإنسان سفيهاً تافهاً، وينقص عقله وحكمته.

والعشق مشوب بالغموم، والهموم، وخوف الفراق، وفضيحة الدنيا، وحسرات الآخرة.

والعاقل إذا رأى أن مرضاً سيفضي به إلى الهلاك، فإنه سيعالج نفسه منه ولابدّ، فكذلك العشق، هذا المرض القلبي لابد للعاقل أن يسرع إلى علاج نفسه منه إذا وقع فيه.

٦. الدعاء:

الدعاء هو السلاح الذي لا يخون في النوائب والملمات، السلاح الناجع الذي ينبغي على المؤمن أن يستعمله في كل وقت وحين، قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦].

وقد كان من هدي النبي ﷺ تعليم الصحابة أدعية لمواجهة العشق وغيره من الآفات، فعن شَكَل بن حُميد رضي الله عنه، قال: قلت: يا رسول الله، علمني دعاء. قال: «قُلِ اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ سَمْعِي، وَمِنْ شَرِّ بَصَرِي، وَمِنْ شَرِّ لِسَانِي، وَمِنْ شَرِّ قَلْبِي، وَمِنْ شَرِّ مَنِيِّي»[١].

وكان ﷺ يقول: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الهُدَى، والتُّقَى، والعَفَافَ، والغِنَى»[٢].

فإياك والاغترار بنفسك، فتبتعد عن الدعاء وتأمن المكر.

إِذا لَمْ يَكُن عَونٌ مِنَ اللهِ لِلفَتَى ... فَأَوَّلُ ما يَجْنِي عَلَيهِ اجتِهادُهُ[٣]

قال ابن القيم رحمه الله: «فَإِنْ عَجَزَت عَنهُ هذِهِ الأَدوِيَةُ كُلُّها: لَم يَبقَ لَهُ إِلا صِدقُ اللُّجأِ إِلى مَن يُجِيبُ المُضطَرَّ إِذا دَعاهُ، وَليَطرَح نَفسَهُ بَينَ يَدَيهِ عَلى بابِهِ مُستَغِيثاً بِهِ، مُتَضَرِّعاً مُتَذَلِّلاً، مُستَكِيناً، فَمَتَى وُفِّقَ لِذلِكَ، فَقَد قَرَعَ بابَ التَّوفِيقِ»[٤].

٧. الصبر:

فإن الصبر عاقبته حميدة، والنصر مع الصبر، وتجرُّع مرارة الصبر الآن، خير لك من تجرع مرارة غسلين في نار جهنم، والعياذ بالله.

٨. مجاهدة النفس:

قال عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

٩. استشارة من يثق فيه:

ما خاب من استشار ولا ندم، ولذلك على من وقع في هذه المصيبة أن يأخذ برأي إخوانه، فيما يستعين به في مواجهة هذا المرض.

---

(١) رواه أبو داود (١٥٥١)، وصححه الألباني.

(٢) رواه مسلم (٢٧٢١).

(٣) نفح الطيب (٦/ ١٧٧).

(٤) زاد المعاد (٤/ ٢٧٤).

ويستعين بالإخوان الصالحين، الذين ينصحونه حق النصيحة، ويرشدونه إلى الطريقة الشرعية المنجية من هذا الداء.

* * *

الخاتمة

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ عن العشق: «وتلك لعمر الله الفتنة الكبرى، والبلية العظمى، التي استعبدت النفوس لغير خلّاقها، وملَّكت القلوب لمن يسومها الهوان من عشاقها، وألقت الحرب بين العشق والتوحيد، ودعت إلى موالاة كل شيطان مريد، فصيَّرت القلب للهوى أسيراً، وجعلته عليه حاكماً وأميراً، فأوسعت القلوب محنة، وملأتها فتنة، وحالت بينها وبين رشدها، وصرفتها عن طريق قصدها.

ونادت عليها في سوق الرقيق، فباعتها بأبخس الأثمان، وأعاضتها بأخس الحظوظ وأدنى المطالب عن العالي من غرف الجنان، فضلاً عما هو فوق ذلك من القرب من الرحمن، فسكنت إلى ذلك المحبوب الخسيس، الذي ألمُها به أضعاف لذتها، ونَيله والوصول إليه أكبر أسباب مضرتها، فما أوشكه حبيباً يستحيل عدواً عن قريب، ويتبرأ منه محبه لو أمكنه حتى كأنه لم يكن له بحبيب. وإن تمتع به في هذه الدار فسوف يجد به أعظم الألم بعد حين، لاسيما إذا صار «الأخِلاء يومئذ بعضهم لبعض عدواً إلا المتقين».

فيا حسرة المحب الذي باع نفسه لغير الحبيب الأول بثمن بخس، وشهوة عاجلة، ذهبت لذتها، وبقيت تبعتها، وانقضت منفعتها، وبقيت مضرتها، فذهبت الشهوة، وبقيت الشّقوة، وزالت النشوة، وبقيت الحسرة، فوا رحمتاه لصبٍّ جُمع له بين الحسرتين، حسرة فوت المحبوب الأعلى والنعيم المقيم، وحسرة ما يقاسيه من النصب في العذاب الأليم. فهناك يعلم المخدوع أيَّ بضاعة أضاع، وأن من كان مالك رقه وقلبه لم يكن يصلح أن يكون له من جملة الخدم والأتباع، فأي مصيبة أعظم من مصيبة ملك أُنزل عن سرير ملكه، وجُعل لمن لا يصلح أن يكون مملوكه أسيراً، وجُعل تحت أوامره ونواهيه مقهوراً. فلو رأيت قلبه وهو في يد محبوبه لرأيته:

كعُصفُورَةٍ فِي يدِ طِفلٍ يَسُومُها   حِياضَ الرَّدَى، والطِّفلُ يلهُو وَيَلعَبُ

ولو شاهدت حاله وعيشه لقلت:

وَما فِي الأرضِ أشقَى مِن مُحِبٍ   وإن وَجَدَ الهَوَى حُلوَ المَذاقِ
تَـراهُ باكِيـاً فِي كُـلِّ حِينٍ   مَخافَةَ فُـرقَـةٍ، أو لاشتِياقِ
فيَبكِي إن نَـأوا، شَوقاً إلَيهِم   وَيَبكِي إن دنَوا، حَذَرَ الفِراقِ

ولـو شـاهدت نومه وراحته، لعلمـت أن المحبة والمنام تعـاهدا وتحالفا أن ليـس يلتقيان، ولو شاهدت فيض مدامعه، ولهيب النار في أحشائه لقلت:

سُبحانَ رَبِّ العَرشِ، مُتقِنِ صُنعِهِ   وَمُؤَلِّفِ الأَضـدادِ دُونَ تَعانُدِ
قَطرٌ تَوَلَّدَ عَن لَهِيبٍ فِي الحَشا   مـاءٌ وَنـارٌ فِي مَحَـلٍّ واحِـدِ

ولو شاهدت مسلك الحب في القلب وتغلغله فيه، لعلمت: أن الحب ألطف مسلكاً فيه من الأرواح في أبدانها.

فهل يليق بالعاقل أن يبيع هذا الملك المطاع لمن يسـومه سـوء العـذاب، ويوقع بينه وبين وليه ومولاه الحق الذي لا غناء له عنه ولا بد له منه أعظم الحجاب؟

فالمحب بمن أحبه قتيل، وهو له عبد خاضع ذليل، إن دعاه لبّاه، وإن قيل له: ما تتمنى؟ فهـو غايـة ما يتمناه، لا يأنس بغيره، ولا يسـكن إلى سـواه، فحقيق بـه أن لا يملك رقه إلا لأجلِّ حبيب، وأن لا يبيع نصيبه منه بأخس نصيب»[1].

نسـأل الله سـبحانه وتعالى أن يملأ قلوبنا بنوره، وأن يُفيض علينا من رحمته، وأن ينـزل علينـا السـكينة، وأن يثبتنـا بالقول الثابـت في الحياة الدنيـا وفي الآخـرة، وأن يصلح قلوبنا ونياتنا وذرياتنا، إنه سميع مجيب قريب.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله، وصحبه أجمعين.

* * *

(١) إغاثة اللهفان (٢/ ١٢٢).

اختبر فهمك

فيما يلي مستويان من الأسئلة حول الموضوع: أسئلة حلولها مباشرة، وهي أسئلة المستوى الأول.

وأسئلة تحتاج إلى بحث وتأمل، وهي أسئلة المستوى الثاني.

أسئلة المستوى الأول (المباشرة):

١. عرِّف العشق في اللغة والاصطلاح.

٢. ما هي أنواع العشق؟

٣. للعشق مظاهر عدة، فما هي أبرزها؟

٤. ما هي مفاسد وأضرار العشق؟

أسئلة المستوى الثاني (الاستنباطية):

١. بماذا يرتبط العشق غالباً؟

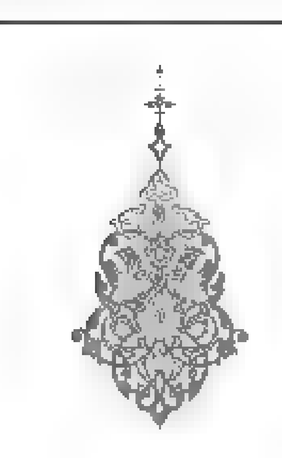
٢. ما السبب الرئيسي المؤدي لعشق النساء للنساء؟

٣. لابن القيم رأي سديد في مسألة العشق، فما هو؟

٤. ذكر ابن تيمية في كتابه (الاستقامة) أموراً يورثها العشق للعاشق، فما هي؟

٥. ماذا يفعل النصارى إذا أرادوا تنصير الأسرى؟





حب الدنيا



مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، نبينا محمد، وعلى آله، وأصحابه أجمعين

أما بعد:

فمن لا شك فيه أن القلب هو ملك الأعضاء، والأعضاء جنوده، فإذا صلح الملك صلح الجنود، كما روى النعمان بن بشير رضي الله عنه قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: «أَلا وَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضغَةً، إِذا صَلَحَت صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذا فَسَدَت فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ، أَلا وَهِيَ القَلْبُ»[1]

والقلب كالحصن الرفيع، وله أبواب ومداخل، والشيطان كالعدو الغاشم المتربص، الذي يسعى جاهدا لدخول هذا الحصن؛ ليستولي عليه.

ولا يُقدَر على حفظ هذا الحصن إلا بحراسة أبوابه ومداخله، فيجب على العاقل أن يعرف هذه الأبواب وتلك المداخل؛ حتى يصد ذلك العدو الغاشم عن قلبه، حتى لا يفسده عليه

ومداخل الشيطان إلى القلب كثيرة، ومنها -على سبيل المثال-:

الحسد، والحرص، والطمع، والبخل، والشح، والرياء، والعجب، وسوء الظن، والعجلة، والطيش، والغضب، وحب الدنيا، والتعلق بها، وبزينتها، في اللباس، والأثاث، والدور، والمراكب، ونحوها.

وسوف نتناول بمشيئة الله تعالى هذا المدخل الأخير من مداخل الشيطان في ثنايا هذا

(١) رواه البخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩)

الفصل ضمن كتاب مفسدات القلوب، وسنعرض لبيان شيء من حقيقة الدنيا، مع إشارة موجزة لموقف المؤمنين منها، ثم نذكر ما تيسر من مظاهر حب الدنيا، وأسبابه، ومفاسده، وعلاجه.

ولا يفوتني أن أشكر كل من ساهم في إعداد هذه المادة، وإخراجها بالصورة المرضية.

ونسأل الله تعالى أن لا يجعل الدنيا أكبر همنا، ولا مبلغ علمنا، ولا إلى النار مصيرنا

وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

***

حقيقة الدنيا

قال تعالى: ﴿ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَـٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَـٰمًا ۖ وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾ [الحديد: ٢٠].

قال القرطبي رحمه الله: «(ما) صلة، تقديره: اعلموا أن الحياة الدنيا لعب باطل، ولهوٌ فرح، ثم ينقضي، وقال قتادة: لعب ولهو: أكل وشرب، وقيل: إنه على المعهود من اسمه، قال مجاهد: كل لعب لهو»[1].

وقال ابن كثير رحمه الله: «يقول تعالى موهِّناً أمر الحياة الدنيا ومحقراً لها: ﴿أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَـٰدِ﴾ أي: إنما حاصل أمرها عند أهلها هذا، كما قال تعالى: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَـٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَـٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴾[آل عمران: ١٤].

ثم ضرب الله تعالى مثل الحياة الدنيا، وبيَّن أنها زهرة فانية، ونعمة زائلة فقال: ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ﴾ وهو المطر الذي يأتي بعد قنوط الناس، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟﴾ [الشورى: ٢٨].

وقوله تعالى: ﴿أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ﴾ أي: يعجب الزراع نبات ذلك الزرع الذي نبت بالغيث، وكما يعجب الزراع ذلك تُعجِبُ الحياة الدنيا الكفار؛ فإنهم أحرص شيء عليها، وأميل الناس إليها.

(١) تفسير القرطبي (١٧/ ٢٥٤)

﴿ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا﴾ أي يهيج ذلك الزرع، فتراه مصفرا بعدما كان خضرا نضرا، ثم يكون بعد ذلك كله حطاما، أي يصير يبسا متحطما. هكذا الحياة الدنيا: تكون أولا شابة، ثم تكتهل، ثم تكون عجوزا شوهاء، والإنسان يكون كذلك أول عمره وعنفوان شبابه: غضا طريا، لين الأعطاف، بهي المنظر، ثم إنه يشرع في الكهولة؛ فتتغير طباعه، ويفقد بعض قواه، ثم يكبر، فيصير شيخا كبيرا، ضعيف القوى، قليل الحركة، يعجزه الشيء اليسير، كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ﴾ [الروم: ٥٤].

ولما كان هذا المثل دالا على زوال الدنيا وانقضائها وفراغها لا محالة، وأن الآخرة كائنة لا محالة؛ حذر من أمرها، ورغب بما فيها من الخير، فقال: ﴿وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ أي: وليس في الآخرة الآتية القريبة إلا إما هذا وإما هذا، إما عذاب شديد، وإما مغفرة من الله ورضوان.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ أي: هي متاع فان غار لمن ركن إليه، فإنه يغتر بها وتعجبه، حتى يعتقد أن لا دار سواها، ولا معاد وراءها، وهي حقيرة قليلة بالنسبة إلى الدار الآخرة»[1].

وقال تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ [الكهف: ٤٥].

وقال الطبري رحمه الله: «يقول: فلا يفخر ذو الأموال بكثرة أمواله، ولا يستكبر على غيره بها، ولا يغترن أهل الدنيا بدنياهم، فإنما مثلها مثل هذا النبات الذي حسن استواؤه بالمطر، فلم يكن إلا ريث أن انقطع عنه الماء، فتناهى نهايته، عاد يابسا تذروه الرياح، فاسداً، تنبو عنه أعين الناظرين، ولكن، ليعمل للباقي الذي لا يفنى، والدائم الذي لا يبيد، ولا يتغير»[2].

قال ابن كثير رحمه الله: «يقول تعالى: واضرب - يا محمد - للناس مثل الحياة الدنيا في زوالها وفنائها وانقضائها، كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض، أي ما فيها من الحب

(١) تفسير ابن كثير (٨/ ٢٤)

(٢) تفسير الطبري (١٨/ ٣٠).

فشب وحسن وعلاه الزهر والنور والنضرة، ثم بعد هذا كله أصبح هشيما يابسا تذروه الرياح، أي تفرقه وتطرحه ذات اليمين وذات الشمال، وكان الله على كل شيء مقتدرا، أي هو قادر على هذه الحال، وهذه الحال، وكثيرا ما يضرب الله مثل الحياة الدنيا بهذا المثل»[1].

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ السَّمَآءِ فَاخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [يونس: ٢٤].

قال ابن القيم رحمه الله: «شبه سبحانه الحياة الدنيا في أنها تتزين في عين الناظر فتروقه بزينتها، وتعجبه فيميل إليها ويهواها؛ اغترارا منه بها، حتى إذا ظن أنه مالك لها قادر عليها، سُلبها بغتة أحوج ما كان إليها، وحيل بينه وبينها، فشبهها بالأرض التي ينزل الغيث عليها، فتعشب، ويحسن نباتها، ويروق منظرها للناظر، فيغتر به، ويظن أنه قادر عليها، مالك لها، فيأتيها أمر الله، فتدرك نباتها الآفةُ بغتة، فتصبح كأن لم تكن قبل، فيخيب ظنه، وتصبح يداه صفرا منها، فكذا حال الدنيا والواثق بها سواء، وهذا من أبلغ التشبيه والقياس»[2].

وقال تعالى: ﴿وَمَا هَٰذِهِ الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْءَاخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٤].

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: **«إِنَّ الدُّنيا حُلوَةٌ خَضِرَةٌ، وَإِنَّ اللهَ مُستَخلِفُكُم فيها، فَيَنظُرُ كَيفَ تَعمَلُونَ. فاتَّقُوا الدُّنيا، واتَّقُوا النِّساءَ؛ فَإِنَّ أَوَّلَ فِتنَةِ بَنِي إِسرائِيلَ كانَت في النِّساءِ»**[3].

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: **«الدُّنيا مَتاعٌ، وَخَيرُ مَتاعِ الدُّنيا: المَرأَةُ الصّالِحَةُ»**[4].

---

(١) تفسير ابن كثير (٥/ ١٦١).

(٢) إعلام الموقعين (١/ ١٥٣).

(٣) رواه مسلم (٢٧٤٢).

(٤) رواه مسلم (١٤٦٧).

وعن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**لَو كانَتِ الدُّنيا تَعدِلُ عِندَ اللهِ جَناحَ بَعُوضةٍ، ما سَقَى كافِراً مِنها شَربَةَ ماءٍ**»[1].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**الدُّنيا سِجنُ المُؤمِنِ، وَجَنَّةُ الكافِرِ**»[2].

وعن المستورد بن شداد رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**والله ما الدُّنيا في الآخِرَةِ إلّا مِثلُ ما يَجعَلُ أَحَدُكُم إِصبعَهُ هَذِهِ -وَأَشارَ يَحيَى- أحد الرواة -بِالسَّبّابَةِ- في اليَمِّ، فَليَنظُر بِمَ تَرجِعُ**»[3].

❋ ❋ ❋

(١) رواه الترمذي (٢٣٢٠) وقال: حديث صحيح غريب، وصححه الألباني في صحيح الترمذي

(٢) رواه مسلم (٢٩٥٦)

(٣) رواه مسلم (٢٨٥٨)

المؤمنون والدنيا

موقف النبي ﷺ من الدنيا:

قال عمر رضي الله عنه -واصفاً حال رسول الله ﷺ-: «وإنَّهُ لَعَلَى حصيرٍ ما بينَهُ وَبَينَهُ شيءٌ، وتحت رَأسِهِ وسادَةٌ مِن أَدَمٍ حَشوُها لِيفٌ، وَإنَّ عِندَ رِجلَيهِ قَرَظاً مَصبُوباً، وَعِندَ رأسِهِ أَهَبٌ مُعَلَّقَةٌ، فَرَأيتُ أثرَ الحَصيرِ في جَنبِهِ فبكَيتُ، فقالَ: «ما يُبكِيكَ؟» فَقُلتُ: يا رَسُولَ الله إنَّ كِسرَى وقَيصَر فيما هُما فيهِ، وَأنتَ رَسُولُ الله! فقال: «أَما تَرضَى أَن تَكُونَ لَهُمُ الدُّنيا وَلَنا الآخِرَةُ»[1].

قال ابن القيم رحمه الله: «وقد عرضت الدنيا على النبي ﷺ بحذافيرها، وتعرضت له، فدفع في صدرها باليدين، وردها على عقبيها، ثم عرضت بعده على أصحابه، وتعرضت لهم، فمنهم من سلك سبيله ودفعها عنه، وهم القليل، ومنهم من استعرضها، وقال: ما فيك؟ قالت: فيَّ الحلال والشبهة والمكروه والحرام، فقالوا: هاتي حلالك، ولا حاجة لنا فيما عداه. فأخذوا حلالها.

ثم تعرضت لمن بعدهم، فطلبوا حلالها، فلم يجدوه، فطلبوا مكروهها وشبهها، فقالت: قد أخذه من قبلكم، فقالوا: هاتي حرامك. فأخذوه، فطلبه من بعدهم، فقالت: هو في أيدي الظلمة، قد استأثروا به عليكم، فتحيلوا على تحصيله منهم بالرغبة والرهبة، فلا يمد فاجر يده إلى شيء من الحرام، إلا وجد أفجر منه وأقوى قد سبقه إليه. هذا، وكلهم ضيوف، وما بأيديهم عارية، كما قال ابن مسعود رضي الله عنه ما أصبح أحد في الدنيا إلا ضيف، وماله عارية، فالضيف مرتحل، والعارية مؤداة»[2].

---

(١) البخاري (٤٩١٣)، ومسلم (١٤٧٩).

(٢) عدة الصابرين (ص١٨٦).

وأنبياء الله عليهم السلام لا يحصل لهم سرور بأمور الدنيا، وإنما يكون سرورهم بالله، وبفضله، وبرحمته، قال تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس ٥٨]، قال القرطبي رحمه الله: «وَلا يُسَرُّ نَبِيٌّ بِأَمرِ دُنيا»[1].

بعض مواقف الصحابة رضي الله عنهم من الدنيا.

تورع أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن كثير من طيبات المآكل والمشارب، وتنزه عنها، وقال: «إني أخاف أن أكون كالذين قال الله تعالى لهم، وقرّعهم: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا﴾ [الأحقاف ٢٠]» وقال أبو مجلز: «ليفقدن أقوام حسنات كانت لهم في الدنيا، فيقال لهم: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا﴾»[2].

وعن عرفجة الثقفي قال: استَقرَأتُ ابنَ مَسعُودٍ ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ فَلَمَّا بَلَغَ: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ تَرَكَ القِراءَةَ، وَأَقبَلَ عَلَى أَصحابِهِ، وَقالَ: «آثَرنا الدُّنيا عَلَى الآخِرَةِ» فَسَكَتَ القَومُ، فَقالَ: «آثَرنا الدُّنيا؛ لِأَنّا رَأَينا زِينَتَها ونِساءَها وَطَعامَها وَشَرابَها، وَزُوِيَت عَنّا الآخِرَةُ، فاختَرنا هَذا العاجِلَ، وَتَرَكنا الآجِلَ».

قال ابن كثير رحمه الله: «وَهَذا مِنهُ عَلَى وَجهِ التَّواضُعِ والهَضمِ، أو هُوَ إِخبارٌ عَنِ الجِنسِ مِن حَيثُ هُوَ، واللهُ أَعلَمُ»[3].

وعَنِ الأَحنَفِ بنِ قَيسٍ، قالَ: قَدِمتُ المَدِينَةَ، فَبَينا أَنا فِي حَلقَةٍ فِيها مَلَأٌ مِن قُرَيشٍ، إِذ جاءَ رَجُلٌ أَخشَنُ الثِّيابِ، أَخشَنُ الجَسَدِ، أَخشَنُ الوَجهِ، فَقامَ عَلَيهِم، فَقالَ: «بَشِّرِ الكانِزِينَ بِرَضفٍ يُحمَى عَلَيهِ فِي نارِ جَهَنَّمَ، فَيُوضَعُ عَلَى حَلَمَةِ ثَديِ أَحَدِهِم، حَتَّى يَخرُجَ مِن نُغضِ كَتِفَيهِ، وَيُوضَعُ عَلَى نُغضِ كَتِفَيهِ، حَتَّى يَخرُجَ مِن حَلَمَةِ ثَديَيهِ يَتَزَلزَلُ» قالَ: فَوَضَعَ القَومُ رُءُوسَهُم، فَما رَأَيتُ أَحَدًا مِنهُم رَجَعَ إِلَيهِ شَيئًا، قالَ: فَأَدبَرَ، وَتَبِعتُهُ، حَتَّى جَلَسَ إِلَى سارِيَةٍ، فَقُلتُ: ما رَأَيتُ هَؤُلاءِ إِلّا كَرِهُوا ما قُلتَ لَهُم، قالَ: «إِنَّ هَؤُلاءِ لا يَعقِلُونَ شَيئًا، إِنَّ خَلِيلِي

(١) تفسير القرطبي (١٣ / ١٧٠)

(٢) تفسير ابن كثير (٧/ ٢٨٤)

(٣) تفسير ابن كثير (٨ / ٣٨٢)

أن القاسم ﷺ دعاني فأجبتُهُ، فقال: «أترى أُحُداً؟» فنظرتُ ما عليَّ من الشمس، وأنا أظنُّ أنَّهُ يبعثني في حاجةٍ لهُ، فقال: «ما يسُرُّني أنَّ لي مثلَهُ ذهباً أُنفِقُهُ كُلَّهُ، إلّا ثلاثةَ دنانيرَ» ثُمَّ هؤلاء يجمعُون الدُّنيا، لا يعقلُون شيئاً» قال: قُلتُ: ما لكَ ولإخوتكَ من قُريشٍ، لا تعتريهم وتُصيبُ منهُم، قال: «لا، وربِّكَ، لا أسألُهُم عن دُنيا، ولا أستفتيهم عن دينٍ، حتَّى ألحَقَ باللهِ ورسُولِهِ»(١).

وعن وبرة قال: سأل رجل ابن عمر رضي الله عنهما: أطوف بالبيت وقد أحرمت بالحج؟ فقال: «وما يمنعك؟» قال: إني رأيت ابن فلان يكرهه، وأنت أحب إلينا منه، رأيناه قد فتنته الدنيا، فقال: «وأيُّنا - أو أيكم - لم تفتِنه الدنيا؟»(٢).

وعن عمرو بن قيس عمن حدثه عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: لما حضره الموت قال: «مرحبا بالموت، زائر مُغبّ، حبيب جاء على فاقة، اللهم كنت أخافك، فأنا اليوم أرجوك، اللهم إنك تعلم أني لم أكن أحب الدنيا وطول البقاء فيها لجري الأنهار، ولا لغرس الأشجار، ولكن لظمأ الهواجر، ومكابدة الساعات، ومزاحمة العلماء بالرُّكب عند حلق الذكر»(٣).

بعض مواقف التابعين من الدنيا:

عن حزم بن أبي حزم قال: دخلنا على مالك بن دينار رحمه الله في مرضه الذي مات فيه، وهو يكابد نفسه، فرفع رأسه إلى السماء ثم قال: «اللهم إنك تعلم أني لم أكن أحب البقاء في الدنيا لبطن ولا لفرج»(٤).

ودخل أبو مسلم الخولاني رحمه الله المسجد، فنظر إلى نفر قد اجتمعوا جلوساً، فرجا أن يكونوا على ذكر وعلى خير، فجلس إليهم، فإذا بعضهم يقول: قدم غلام لي فأصاب كذا وكذا، وقال الآخر: قد جهزت غلامي، فنظر إليهم فقال: «سبحان الله! هل تدرون يا هؤلاء ما مثلي ومثلكم؟ كمثل رجل أصابه مطر غزير وابل، فالتفت فإذا هو بمصراعين

(١) رواه مسلم (٩٩٢).

(٢) رواه مسلم (١٢٣٣).

(٣) الثبات عند الممات (ص١١٨-١١٩).

(٤) الثبات عند الممات (ص١٤٨).

عظيميين، فقال: لو دخلت هذا البيت حتى يذهب عني أذى هذا المطر، فدخل، فإذا بيت لا سقف له، جئت إليكم وأنا أرجو أن تكونوا على خير وعلى ذكر، فإذا أنتم أصحاب دنيا!» فقام عنهم[1].

هذه بعض النماذج من سير الرعيل الأول، ومن أراد المزيد، فبإمكانه الرجوع لما سطره العلماء في مصنفاتهم الخاصة بالتراجم والسير.

* * *

(١) الزهد لابن المبارك (١/ ٣٣٨).

مظاهر حب الدنيا

لحب الدنيا مظاهر عديدة، ومن أبرزها ما يلي:

- **إصرار الناس على الانهماك في الدنيا:**

عن عبد الله بن الحرث بن نوفل قال: كنت واقفا مع أبي بن كعب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقال: «لا يزال الناس مختلفة أعناقهم في طلب الدنيا»[1].

- **طلب الدنيا بعمل الآخرة.**

قال مطرف رَحِمَهُ اللَّهُ: «إن أقبح الرغبة في الدنيا: أن تُطلَبَ بعمل الآخرة»[2].

قال الفضيل بن عياض رَحِمَهُ اللَّهُ: «لأن آكل الدنيا بالطبل والمزمار، أحب إلي من أن آكلها بديني»[3].

قال الجنيد رَحِمَهُ اللَّهُ: «سمعت السري يذم من يأكل بدينه ويقول: من النذالة أن يأكل العبد بدينه»[4].

كان مالك بن أنس رَحِمَهُ اللَّهُ يقول: «قال لي ربيعة الرأي - وكان أستاذ مالك -: يا مالك من السفلة؟ قال: قلت: من أكل بدينه، فقال: من سفلة السفلة؟ قال: من أصلح دنيا غيره بفساد دينه». قال: «فصدّرني»[5].

(١) رواه مسلم (٢٨٩٥).

(٢) رواه البيهقي في الشعب (٦٩٣٠).

(٣) رواه البيهقي في الشعب (٦٩٣١).

(٤) رواه البيهقي في الشعب (٦٩٣٢).

(٥) رواه البيهقي في الشعب (٦٩٣٣).

وعن فضيل بن عياض قال: «سئل ابن المبارك رحمه الله: من الناس؟ قال: العلماء، قال: من الملوك؟ قال: الزهاد، قال: فمن السفلة؟ قال: الذي يأكل بدينه»[١].

• الترف والتنعم في الملبس، والمأكل، والمشرب:

عن معاذ بن جبل رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما بعث به إلى اليمن قال له: «**إِيَّاكَ وَالتَّنَعُّمَ؛ فَإِنَّ عِبادَ اللهِ لَيْسُوا بِالْمُتَنَعِّمِينَ**»[٢].

• حب المال، وحب الجاه، والشرف، والشهرة:

قال الله تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٨٣].

عن كعب بن مالك رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «**ما ذِئْبانِ جائِعانِ أُرْسِلا في غَنَمٍ بِأَفْسَدَ لَها مِن حِرْصِ المَرْءِ عَلَى المالِ والشَّرَفِ لِدِينِهِ**»[٣].

* * *

(١) رواه البيهقي في الشعب (٦٩٣٤).

(٢) رواه أحمد (٢١٦٠٠) قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ٢٥٠) «رجاله ثقات»، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٢٦٦٨).

(٣) رواه الترمذي (٢٣٧٦) وقال: حديث حسن صحيح، وصححه الألباني في صحيح الترمذي

أسباب حب الدنيا

لحب الدنيا أسباب كثيرة، ولعل من أبرزها الأسباب التالية:

- **زينتها، وحسنها الظاهر:**

قال الله تعالى: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ [الكهف: ٤٦].

وعن أبي سعيد رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**إِنَّ الدُّنيا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ، وَإِنَّ الله مُستَخلِفُكُم فيها، فَيَنظُرُ كَيفَ تَعمَلُونَ، فاتَّقوا الدُّنيا، واتَّقُوا النِّساءَ، فَإِنَّ أَوَّلَ فِتنَةِ بَنِي إِسرائِيلَ كانَت في النِّساءِ**»[1].

- **ميل النفس والقلب إليها:**

قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾ [آل عمران: ١٤].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه يبلغ به النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**قَلْبُ الشَّيخِ شابٌّ عَلَى حُبِّ اثْنَتَينِ حُبِّ العَيشِ والمالِ**»[2].

وفي لفظ: «**يَهرَمُ ابنُ آدَمَ وَتَشِبُّ مِنهُ اثْنَتانِ: الحِرصُ عَلَى المالِ، والحِرصُ عَلَى العُمُرِ**»[3].

---

(١) رواه مسلم (٢٧٤٢).

(٢) رواه مسلم (١٠٤٦).

(٣) رواه مسلم (١٠٤٧) من حديث أنس رضي الله عنه.

وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لَو أَنَّ لِابنِ آدَمَ وادِياً مِن ذَهَبٍ أَحَبَّ أَن يَكُونَ لَهُ وادِيانِ، وَلَن يَملَأَ فاهُ إِلَّا التُّرابُ، وَيَتُوبُ اللهُ عَلَى مَن تابَ»[1].

• **إيثار العاجل الحاضر على الآجل المنتظر:**

قال الله تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝١٦ وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [الأعلى: ١٧].

قال ابن القيم رحمه الله: «أرسل إليهم رسله، وأنزل عليهم كتبه وبيَّنَ لهم مواقع رضاه وغضبه، ووعدهم على مخالفة هواهم وطباعهم أكمل اللذات في دار النعيم، فلم تقو عقول الأكثرين على إيثار الآجل المنتظر بعد زوال الدنيا، على هذا العاجل الحاضر المشاهد، وقالوا: كيف يباع نقد حاضر - وهو قبض باليد - بنسيئة مؤخرة، وُعدنا بحصولها بعد طي الدنيا وخراب العالم؟ ولسان حال أكثرهم يقول:

خذ ما تراه ودع شيئا سمعت به.

فساعد التوفيق الإلهي مَن عَلم أنه يصلح لمواقع فضله، فأمدَّه بقوة إيمان وبصيرة، رأى في ضوئها حقيقة الآخرة ودوامها، وما أعد الله فيها لأهل طاعته وأهل معصيته، ورأى حقيقة الدنيا، وسرعة انقضائها، وقلة وفائها، وظلم شركائها، وأنها كما وصفها الله سبحانه: لعب، ولهو، وتفاخر بين أهلها، وتكاثر في الأموال والأولاد، وأنها كغَيثٍ أعجب الكفار نباته، ثم يهيج فتراه مصفرا، ثم يكون حطاما، فنشأنا في هذه الدار، ونحن منها وبنوها، لا نألف غيرها، وحُكِّمت العادات، وقهر سلطان الهوى، وساعده داعي النفوس، وتقاضاه موجب الطبع، وغلب الحس على العقل، وكانت الدولة له»[2].

وخلاصة القول: أن حب الدنيا وإيثارها على الآخرة يرجع إلى أحد سببين:

السبب الأول: فساد في الإيمان والدين.

والسبب الثاني: فساد في العقل.

* * *

(١) رواه البخاري (٦٤٣٩)، ومسلم (١٠٤٨).

(٢) شفاء العليل (ص٢٦٥).

مفاسد حب الدنيا

حذّرنا الله جلّ وعلا من الاغترار بالدنيا والركون إليها، لما في ذلك من المفاسد والمضار العاجلة والآجلة، ومنها ما يلي:

- **أن حب الدنيا مفتاح كل شر:**

قال ابن القيم رحمه الله: «ومفتاح الاستعداد للآخرة قصر الأمل، ومفتاح كل خير الرغبة في الله والدار الآخرة، ومفتاح كل شرّ: حب الدنيا وطول الأمل، وهذا باب عظيم من أنفع أبواب العلم، وهو معرفة مفاتيح الخير والشرّ، ولا يوفق لمعرفته ومراعاته إلا من عظم حظه وتوفيقه، فإن الله سبحانه وتعالى جعل لكل خير وشرّ مفتاحاً، وباباً يدخل منه إليه»[1].

- **أن حب الدنيا سبب للوقوع في الكفر بالله، ومعصيته:**

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**بادِرُوا بالأعمالِ فِتَناً كقِطَعِ اللَّيلِ المُظلِمِ، يُصبِحُ الرَّجُلُ مُؤمِناً ويُمسِي كافِراً، أو يُمسِي مُؤمِناً ويُصبِحُ كافِراً، يَبِيعُ دِينَهُ بِعَرَضٍ مِنَ الدُّنيا**»[2].

قال ابن تيمية رحمه الله: «والكافر قد يعلم وجود ذلك الضرر، لكنه يحمله حب العاجلة على الكفر، يبين ذلك قوله: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ۝١٠٦ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ

---

(١) حادي الأرواح (ص٤٨).

(٢) رواه مسلم (١١٨).

﴿ٱلْكَـٰفِرِينَ ۝١٠٧ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَـٰرِهِمْ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَـٰفِلُونَ ۝١٠٨ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ﴾.

فقد ذكر تعالى مَن كفر بالله مِن بعد إيمانه، وذكر وعيده في الآخرة، ثم قال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ وبيّن تعالى أن الوعيد استحقوه بهذا»[1].

- **التعرض للعقوبة والعذاب في الدنيا قبل الآخرة:**

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «محبها أشد الناس عذابا بها، وهو معذب في دوره الثلاث، يعذب في الدنيا بتحصيلها، والسعي فيها، ومنازعة أهلها، وفي دار البرزخ بفواتها، والحسرة عليها، وكونه قد حيل بينه وبين محبوبه على وجه لا يرجو اجتماعه به أبدا، ولم يحصل له هناك محبوب يعوضه عنه، فهذا أشد الناس عذابا في قبره، يعمل الهم والغم والحزن والحسرة في روحه، ما تعمل الديدان وهوام الأرض في جسمه»[2].

وقال أيضا: «محب الدنيا يعذب في قبره، ويعذب يوم لقاء ربه، قال تعالى: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَـٰفِرُونَ﴾ قال بعض السلف: يعذبهم بجمعها، وتزهق أنفسهم بحبها، وهم كافرون بمنع حق الله فيها»[3].

وقال أيضاً: «وقالت طائفة: تعذيبهم بها أنهم يتعرضون بكفرهم لغنيمة أموالهم، وسبي أولادهم، فإن هذا حكم الكفر، وهم في الباطن كذلك. وهذا ذهاب عن مقصود الآية؛ فإن الله سبحانه أقرّ المنافقين، وعصم أموالهم وأولادهم بالإسلام الظاهر، وتولى سرائرهم، فلو كان المراد ما ذكره هؤلاء لوقع مراده سبحانه من غنيمة أموالهم، وسبي أولادهم؛ فإن الإرادة ههنا كونية بمعنى المشيئة، وما شاء الله كان ولابد، وما لم يشأ لم يكن. والصواب والله أعلم أن يقال: تعذيبهم بها هو الأمر المشاهد من تعذيب طلاب الدنيا ومحبيها ومؤثريها على الآخرة، بالحرص على تحصيلها، والتعب العظيم في جمعها، ومقاساة أنواع

(١) مجموع الفتاوى (٧/ ٥٥٩).
(٢) عدة الصابرين (ص١٨٩).
(٣) عدة الصابرين (ص١٨٩).

المشاق في ذلك، فلا تجد أتعب ممن الدنيا أكبر همه، وهو حريص بجهده على تحصيلها، والعذاب هنا هو الألم، والمشقة، والتعب»[١].

- **غفلة القلب عن الدار الآخرة والتقصير في العمل الصالح**

عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**مَن أَحَبَّ دُنياهُ أَضَرَّ بِآخِرَتِهِ، وَمَن أَحَبَّ آخِرَتَهُ أَضَرَّ بِدُنياهُ، فَآثِرُوا ما يَبقَى عَلَى ما يَفنَى**»[٢].

قال ابن تيمية رحمه الله: «وقال تعالى ﴿قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى غَمْرَةٍ سَاهُونَ﴾ أي: ساهون عن أمر الآخرة، فهم في غمرة عنها، أي: فيما يغمر قلوبهم من حب الدنيا ومتاعها، ساهون عن أمر الآخرة وما خلقوا له، وهذا يشبه قوله ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ فالغمرة تكون من اتباع الهوى، والسهو من جنس الغفلة، ولهذا قال من قال: «السهو: الغفلة عن الشيء، وذهاب القلب عنه»، وهذا جماع الشر: الغفلة والشهوة، فالغفلة عن الله والدار الآخرة تسد باب الخير، الذي هو الذكر واليقظة، والشهوة تفتح باب الشر والسهو والخوف، فيبقى القلب مغمورا فيما يهواه ويخشاه، غافلا عن الله، رائدا غير الله، ساهيا عن ذكره، قد اشتغل بغير الله، قد انفرط أمره، قد ران حب الدنيا على قلبه، كما روي في صحيح البخاري وغيره عن أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «**تَعِسَ عَبدُ الدِّينارِ، وَعَبدُ الدِّرهَمِ، وَعَبدُ الخَمِيصَةِ، إن أُعطِيَ رَضِيَ، وَإِن لَم يُعطَ سَخِطَ، تَعِسَ وانتَكَسَ، وَإِذا شِيكَ فَلاَ انتَقَشَ**»[٣].

جعله عبدَ ما يرضيه وُجودُه، ويسخطه فقدُه، حتى يكون عبد الدرهم، وعبد ما وصف في هذا الحديث، والقطيفة هي التي يجلس عليها، فهو خادمها»[٤].

وقال ابن القيم رحمه الله: «محبتها تعترض بين العبد، وبين فعل ما يعود عليه نفعه في

(١) إغاثة اللهفان (١/ ٣٦)

(٢) رواه أحمد (١٩١٩٨)، وقال الهيثمي في المجمع (١١/ ١٤٤): «رجاله ثقات»، وقال الألباني في صحيح الترغيب (٣/ ١٤٤): «صحيح لغيره»

(٣) رواه البخاري (٢٨٨٧)

(٤) الزهد والورع والعبادة (ص٣٥)

الآخرة؛ لاشتغاله عنه بمحبوبه. والناس ها هنا مراتب: فمنهم من يشغله محبوبه عن الإيمان وشرائعه، ومنهم من يشغله عن الواجبات التي تجب عليه لله ولخلقه، فلا يقوم بها ظاهرا ولا باطنا، ومنهم من يشغله حبها عن كثير من الواجبات، ومنهم من يشغله عن واجب يعارض تحصيلها، وإن قام بغيره، ومنهم من يشغله عن القيام بالواجب في الوقت الذي ينبغي، على الوجه الذي ينبغي، فيفرط في وقته، وفي حقوقه، ومنهم من يشغله عن عبودية قلبه في الواجب، وتفريغه لله عند أدائه، فيؤديه ظاهرا لا باطنا، وأين هذا من عشاق الدنيا ومحبيها؟ هذا من أندرهم.

وأقل درجات حبها: أن يشغل عن سعادة العبد، وهو تفريغ القلب لحب الله، ولسانه لذكره، وجمع قلبه على لسانه، وجمع لسانه وقلبه على ربه. فعشقها ومحبتها تضر بالآخرة ولا بد، كما أن محبة الآخرة تضر بالدنيا، وقد روي مرفوعا: «مَن أَحَبَّ دُنياهُ أَضَرَّ بِآخِرَتِهِ، وَمَن أَحَبَّ آخِرَتَهُ أَضَرَّ بِدُنياهُ، فَآثِرُوا ما يَبقَى عَلَى ما يَفنَى»»[١].

• مزاحمته لمحبة الله في القلب.

قال ابن تيمية رحمه الله: «فكيف إذا استولى على القلب ما هو أعظم استعبادا من الدرهم والدينار، من الشهوات، والأهواء، والمحبوبات التي تجذب القلب عن كمال محبته لله وعبادته؛ لما فيه من المزاحمة والشرك بالمخلوقات؟ كيف تدفع القلب وتزيغه عن كمال محبته لربه، وعبادته، وخشيته؟ لأن كل محبوب يجذب قلب محبه إليه، ويزيغه عن محبة غير محبوبه»[٢].

• عدم تلذذ القلب بذكر الله تعالى:

قال ابن تيمية رحمه الله: «القلب إنما خلق لذكر الله سبحانه، ولذلك قال بعض الحكماء المتقدمين من أهل الشام -أظنه سليمان الخواص رحمه الله قال: «الذكر للقلب بمنزلة الغذاء للجسد، فكما لا يجد الجسد لذة الطعام مع السقم، فكذلك القلب لا يجد حلاوة الذكر مع حب الدنيا» أو كما قال»[٣].

(١) عدة الصابرين (ص١٨٨).
(٢) الزهد والورع (ص٣٨).
(٣) مجموع الفتاوى (٩/ ٣١٢).

- **الهم الدائم، والفقر اللازم، وتشتت الشمل:**

عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**مَن كانَتِ الآخِرَةُ همَّهُ، جعَلَ اللهُ غِناهُ في قَلبِهِ، وَجَمَعَ لَهُ شَملَهُ، وَأَتَتهُ الدُّنيا وَهِيَ راغِمَةٌ، وَمَن كانَتِ الدُّنيا همَّهُ، جعَلَ اللهُ فَقرَهُ بَينَ عَينَيهِ، وَفَرَّقَ عَلَيهِ شَملَهُ، وَلَم يَأتِهِ مِنَ الدُّنيا إلّا ما قُدِّرَ لَهُ**»[1].

قال ابن القيم رحمه الله: «ومن أبلغ العذاب في الدنيا: تشتيت الشمل، وتفرق القلوب، وكون الفقر نصب عيني العبد لا يفارقه، ولولا سكرة عشاق الدنيا بحبها لاستغاثوا من هذا العذاب»[2].

- **أنه يلهي عن ذكر الله:**

قال ابن القيم رحمه الله: «وأقل ما في حبها أنه يُلهي عن حب الله وذكره، ومن ألهاه ماله عن ذكر الله فهو من الخاسرين، وإذا لها القلب عن ذكر الله سكنه الشيطان، وصرَّفهُ حيث أراد»[3].

وقال ابن الجوزي رحمه الله: «والله لو كانت الدنيا صافية المشارب من كل شائب، ميسرة المطالب لكل طالب، باقية علينا لا يسلبها ما سالب، لكان الزهد فيها هو الفرض الواجب؛ لأنها تشغل عن الله، والنعم إذا شغلت عن المنعم، كانت من المصائب»[4].

- **أن الدنيا تصير غايته:**

قال ابن القيم رحمه الله: «إذا أحبها صَيَّرها غايته، وتوسل إليها بالأعمال التي جعلها الله وسائل إليه، وإلى الدار الآخرة، فعكس الأمر، وقلب الحكمة، فانعكس قلبه، وانعكس سيره إلى وراء، فهنا أمران، أحدهما: جعل الوسيلة غاية، والثاني: التوسل بأعمال الآخرة إلى الدنيا، وهذا شر معكوس من كل وجه، وقلب منكوس غاية الانتكاس، وهذا هو الذي انطبق عليه حذو القذة بالقذة قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ

---

(١) رواه الترمذي (٢٤٦٥)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٣/ ١٢٧).

(٢) إغاثة اللهفان (١/ ٣٦).

(٣) عدة الصابرين (ص١٨٦).

(٤) التذكرة في الوعظ (ص٧١).

﴿إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ۝١٥ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، وقوله تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا﴾ وقوله تعالى ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾

فهذه ثلاث آيات يشبه بعضها بعضا، وتدل على معنى واحد، وهو أن من أراد بعمله الدنيا وزينتها دون الله والدار الآخرة: فحظه ما أراد، وهو نصيبه، ليس له نصيب غيره، والأحاديث عن رسول الله ﷺ مطابقة لذلك، مفسرة له»[1].

- **حرمان العبد من الأجر، وإفساد عمله:**

ثم ذكر ابن القيم رحمه الله عدة أحاديث في معنى الآيات المتقدمة، ثم قال: «فانظر محبة الدنيا ماذا حرمت هذا المجاهد من المجاهدين من الأجر، وأفسدت عليه عمله، وجعلته أول الداخلين إلى النار»[2].

- **الطغيان:**

قال الله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ۝٦ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ﴾ [العلق: ٦-٧].

قال ابن كثير رحمه الله: «روى ابن أبي حاتم عن ابن مسعود قال: «منهومان لا يشبعان، صاحب العلم، وصاحب الدنيا، ولا يستويان، فأما صاحب العلم: فيزداد رضى الرحمن، وأما صاحب الدنيا: فيتمادى في الطغيان» قال: ثم قرأ عبد الله: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ۝٦ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ﴾، وقال للآخر ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾، وقد روي هذا مرفوعا إلى رسول الله ﷺ: «**منهومان لا يشبعان، طالب علم، وطالب دنيا**»[3]»[4].

---

(١) عدة الصابرين (ص١٨٦).

(٢) عدة الصابرين (ص١٨٨).

(٣) رواه الطبراني في الكبير (١٠٣٨٨)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٦٢٤).

(٤) تفسير ابن كثير (٨/ ٤٣٧).

- **بيع الدنيا بالدين:**

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**بادِرُوا بالأعمالِ فِتَناً كَقِطَعِ اللَّيلِ المُظلِمِ، يُصبِحُ الرَّجُلُ مُؤمِناً وَيُمسِي كافِراً، أو يُمسِي مُؤمِناً وَيُصبِحُ كافِراً، يَبيعُ دِينَهُ بِعَرَضٍ مِنَ الدُّنيا**»[1].

- **القول على الله بغير علم، والابتداع في الدين:**

قال ابن القيم رحمه الله: «كل من آثر الدنيا من أهل العلم واستحبها، فلابد أن يقول على الله غير الحق في فتواه، وحكمه، في خبره وإلزامه؛ لأن أحكام الرب سبحانه كثيراً ما تأتي على خلاف أغراض الناس، ولاسيما أهل الرياسة، والذين يتبعون الشبهات، فإنهم لا تتم لهم أغراضهم إلا بمخالفة الحق، ودفعه كثيراً، فإذا كان العالم والحاكم محبين للرياسة متبعين للشهوات، لم يتم لهم ذلك إلا بدفع ما يضاده من الحق، ولاسيما إذا قامت له شبهة، فتتفق الشبهة والشهوة، ويثور الهوى، فيخفى الصواب، وينطمس وجه الحق، وإن كان الحق ظاهراً لا خفاء به ولا شبهة فيه، أقدم على مخالفته، وقال: لي مخرج بالتوبة. وفي هؤلاء وأشباههم قال تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾ وقال تعالى فيهم أيضاً: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَـٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ ۚ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَـٰقُ ٱلْكِتَـٰبِ أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ وَدَرَسُوا۟ مَا فِيهِ ۗ وَٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ فأخبر سبحانه أنهم أخذوا العرض الأدنى، مع علمهم بتحريمه عليهم، وقالوا سيغفر لنا، وإن عرض لهم عرض آخر أخذوه، فهم مصرون على ذلك، وذلك هو الحامل لهم على أن يقولوا على الله غير الحق، فيقولون: هذا حكمه وشرعه ودينه، وهم يعلمون أن دينه وشرعه وحكمه خلاف ذلك، أو لا يعلمون أن ذلك دينه وشرعه وحكمه، فتارة يقولون على الله ما لا يعلمون، وتارة يقولون عليه ما يعلمون بطلانه، وأما الذين يتقون فيعلمون أن الدار الآخرة خير من الدنيا، فلا يحملهم حب الرياسة والشهوة على أن يؤثروا الدنيا على الآخرة»[2].

---

(١) رواه مسلم (١١٨)

(٢) الفوائد (ص ١٠٠-١٠١)

• ترك الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وترك الجهاد في سبيل الله.

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [التوبة: ٣٨].

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أَلَا لَا يَمْنَعَنَّ أَحَدَكُم رَهْبَةُ النَّاسِ أَنْ يَقُولَ بِحَقٍّ إِذَا رَآهُ أَوْ شَهِدَهُ»[١].

• تأخر النصر ونزع المهابة من صدور الأعداء:

عن ثوبان رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يُوشِكُ الأُمَمُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُم كَمَا تَدَاعَى الأَكَلَةُ إِلَى قَصْعَتِهَا»، فقال قائلٌ: وَمِن قِلَّةٍ نحنُ يومَئِذٍ؟ قال: «بَلْ أَنْتُم يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ، وَلَكِنَّكُم غُثَاءٌ كَغُثَاءِ السَّيْلِ، وَلَيَنْزَعَنَّ اللهُ مِن صُدُورِ عَدُوِّكُمُ المَهَابَةَ مِنْكُم، وَلَيَقْذِفَنَّ اللهُ فِي قُلُوبِكُمُ الوَهْنَ»، فقال قائلٌ: يا رسولَ الله، وما الوَهنُ؟ قال: «حُبُّ الدُّنيا، وَكَرَاهِيَةُ المَوتِ»[٢].

• خسارة الدنيا والآخرة

قال الله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾ [الحج: ١١].

قال الحسن رحمه الله: «غدا كل امرئ فيما يهمه، ومن همَّ بشيء أكثر من ذكره، إنه لا عاجلة لمن لا آخرة له، ومن آثر دنياه على آخرته، فلا دنيا له ولا آخرة»[٣].

• التعبد الأجوف، وموت القلب:

قال ابن الجوزي رحمه الله: «مثل المحب لها - ولو كبد العبدة - كمثل ناشر الأرز، يرفع رجلاً، ويضع أُخرى، ومن مكانه لا يبرح، وكذلك الذي شُغلَ بحب الدنيا قلبه، وبالعبادة جوارحه، تراه طول عمره يتقرب إلى الله بظواهره، ويبعد عنه بقلبه»[٤].

---

(١) رواه أحمد (١١٠٨٢)، وصححه محققو المسند.

(٢) رواه أبو داود (٤٢٩٧)، وصححه الألباني في صحيح أبي داود.

(٣) الزهد لأحمد بن حنبل (ص٢٥٨).

(٤) التذكرة في الوعظ (ص٣٦).

• سوء الخاتمة.

قال الحافظ أبو محمد عبد الحق بن عبد الرحمن الإشبيلي رحمه الله: «واعلم أن لسوء الخاتمة -أعاذنا الله منها- أسباباً، ولها طرق وأبواب، أعظمها: الإنكباب على الدنيا، وطلبها، والحرص عليها، والإعراض عن الأخرى، والإقدام والجرأة على معاصي الله عز وجل، وربما غلب على الإنسان ضرب من الخطيئة، ونوع من المعصية، وجانب من الإعراض، ونصيب من الجرأة والإقدام؛ فملك قلبه، وسبى عقله، وأطفأ نوره، وأرسل عليه حجبه، فلم تنفع فيه تذكرة، ولا نجعت فيه موعظة، فربما جاءه الموت على ذلك، فسمع النداء من مكان بعيد، فلم يتبين له المراد، ولا علم ما أراد، وإن كرر عليه الداعي وأعاد»[1].

***

(١) الجواب الكافي (ص١١٦)

علاج حب الدنيا

ما من داء إلا وله دواء، علمه من علمه، وجهله من جهله، ومن ذلك داء حب الدنيا، فعلاجه كامن في الأمور التالية

- **العلم الراسخ بحقيقة الدنيا:**

وقد تقدم الكلام على ذلك في مبحث حقيقة الدنيا.

- **احتقار الدنيا وإهانتها.**

قال ابن القيم رحمه الله: «وقال إسحق بن هانئ في مسائله: قال أبو عبد الله -وأنا أخرج من داره-: قال الحسن: أهينوا الدنيا؛ فوالله لأهنأ ما تكون حين تهان، وقال الحسن: والله ما أبالي شرقت أم غربت، قال: وقال لي أبو عبد الله: يا إسحق! ما أهون الدنيا على الله عز وجل»[1].

- **التفكر في سرعة زوالها، وسرعة إقبال الآخرة:**

قال ابن القيم رحمه الله: «عاشقها ومحبها الذي يؤثرها على الآخرة من أسفه الخلق، وأقلهم عقلا؛ إذ آثر الخيال على الحقيقة، والمنام على اليقظة، والظل الزائل على النعيم الدائم، والدار الفانية على الدار الباقية، وباع حياة الأبد في أرغد عيش، بحياة إنما هي أحلام نوم، أو كظل زائل، إن اللبيب بمثلها لا يُخدع، كما نزل أعرابي بقوم، فقدموا له طعاما، فأكل، ثم قام إلى ظل خيمة هام، فاقتلعوا الخيمة، فأصابته، فانتبه وهو يقول:

وإن امرؤ دنياه أكبر همه　　　لمستمسك منها بحبل غرور

(١) عدة الصابرين (ص١٨٥-١٨٦).

وكان بعض السلف يتمثل بهذا البيت

يا أهل لذات دنيا لا بقاء لها   إن اغترارا بظل زائل حمق

قال يونس بن عبد الأعلى رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ما شبهت الدنيا إلا كرجل نام، فرأى في منامه ما يكره وما يحب، فبينما هو كذلك انتبه»[1].

قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾ [آل عمران: ١٤].

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: إنما هذا زهرة الحياة وزينتها الفانية الزائلة ﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾ أي: حسن المرجع والثواب، وقد روى ابن جرير عن عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: «لما أنزلت ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾ قلت: الآن يا رب حين زينتها لنا، فنزلت: ﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾.

ولهذا قال تعالى: ﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ﴾

أي: قل يا محمد للناس: أأخبركم بخير مما زين للناس في هذه الحياة الدنيا، من زهرتها، ونعيمها الذي هو زائل لا محالة، ثم أخبر عن ذلك، فقال: ﴿لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾»[2].

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٥﴾ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ۗ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٥-٩٦].

قال ابن كثير: «﴿وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ أي: لا تعتاضوا عن الإيمان بالله عرض الحياة الدنيا وزينتها فإنها قليلة، ولو حيزت لابن آدم الدنيا بحذافيرها لكان ما عند

(١) عدة الصابرين (ص١٩٠).

(٢) تفسير ابن كثير (٢ / ٢٢).

الله هو خير له، أي جزاء الله وثوابه خير لمن رجاه، وآمن به، وطلبه، وحفظ عهده، رجاء موعوده؛ ولهذا قال: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ثم قال: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي: يفرغ وينقضي؛ فإنه إلى أجل معدود، محصور، مقدر، متناهٍ، وما عند الله باقٍ، أي: ثوابه لكم في الجنة باقٍ، لا انقطاع ولا نفاد له، فإنه دائم لا يحول ولا يزول. ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

قَسَم من الرب تعالى مؤكد باللام: أنه يجازي الصابرين بأحسن أعمالهم، أي: ويتجاوز عن سيئها»[1].

- **القناعة باليسير:**

قال الله تعالى: ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ [التكاثر: ١].

وعن أنس رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**مَن كانَتِ الآخِرَةُ همَّهُ؛ جَعَلَ اللهُ غِناهُ في قَلبِهِ، وَجَمَعَ لَهُ شَملَهُ، وَأَتَتهُ الدُّنيا وَهِيَ راغِمَةٌ، وَمَن كانَتِ الدُّنيا هَمَّهُ؛ جَعَلَ اللهُ فَقرهُ بَينَ عَينَيهِ، وَفَرَّقَ عَلَيهِ شَملَهُ، وَلَم يَأتِهِ مِنَ الدُّنيا إلاَّ ما قُدِّرَ لَهُ**»[2].

قال ابن القيم رحمه الله: «وقال الحسن: ابن آدم! لا تعلق قلبك في الدنيا؛ فتعلقه بشر معلق، اقطع حبالها، وغلق أبوابها، حسبك يا ابن آدم منها ما يبلغك المحل»[3].

- **تدبر عواقب حب الدنيا:**

قال ابن القيم رحمه الله: «شهوات الدنيا في القلب كشهوات الأطعمة في المعدة، وسوف يجد العبد عند الموت لشهوات الدنيا في قلبه من الكراهة والنتن والقبح ما يجده للأطعمة اللذيذة إذا انتهت في المعدة غايتها، وكما أن الأطعمة كلما كانت ألذ طعمًا وأكثر دسمًا وأكثر حلاوة كان رجيعها أقذر، فكذلك كل شهوة كانت في النفس ألذ وأقوى، فالتأذي بها عند الموت أشد، كما أن تفجع الإنسان بمحبوبه إذا فقده يقوى بقدر محبة المحبوب.

(١) تفسير ابن كثير (٢ / ٧٧٢).

(٢) رواه الترمذي (٢٤٦٥)، وصححه الألباني.

(٣) عدة الصابرين (ص١٩٣).

وفي المسند أن النبي ﷺ قال للضحاك بن سفيان رضي الله عنه: «يا ضَحّاكُ! ما طَعامُكَ؟» قال: اللحم واللبن، قال: «ثُمَّ يَصِيرُ إلى ماذا؟» قال: إلى ما قد علمت، قال: «فَإِنَّ اللهَ تَبارَكَ وَتَعالَى ضَرَبَ ما يَخْرُجُ مِن ابنِ آدَمَ مَثَلاً لِلدُّنيا»(١).

كان بعض السلف يقول لأصحابه: انطلقوا حتى أريكم الدنيا، فيذهب بهم إلى مزبلة، فيقول: انظروا إلى ثمارهم، ودجاجهم، وعسلهم، وسمنهم»(٢).

• الاشتغال بتحصيل أسباب اللذة الحقيقية، لا المتوهَّمة:

قال ابن القيم رحمه الله -وهو يتكلم عن اللذة-: «وَإِذا عُرِفَ هَذا، فَأَعظَمُ الأَسبابِ الَّتِي تُحَصِّلُ هَذِهِ اللَّذَّةَ -يعني في الآخرة- هُوَ أَعظَمُ لَذّاتِ الدُّنيا عَلَى الإِطلاقِ، وَهِيَ لَذَّةُ مَعرِفَتِهِ سُبحانَهُ، ولَذَّةُ مَحَبَّتِهِ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ هُوَ جَنَّةُ الدُّنيا وَنَعِيمُها العالِي، وَنِسبَةُ لَذّاتِها الفانِيَةِ إِلَيهِ كَتَفلَةٍ فِي بَحرٍ، فَإِنَّ الرُّوحَ والقَلبَ والبَدَنَ إِنَّما خُلِقَ لِذَلِكَ، فَأَطيَبُ ما فِي الدُّنيا معرفتُهُ ومحبَّتُهُ، وَأَلَذُّ ما في الجَنَّةِ: رُؤيَتُهُ ومُشاهَدَتُهُ، فمحبَّتُهُ ومعرفتُهُ قُرَّةُ العُيُونِ، وَلَذَّةُ الأَرواحِ، وَبَهجَةُ القُلُوبِ، وَنَعِيمُ الدُّنيا، وَسُرُورُها، بل لذّاتُ الدُّنيا القاطِعَةُ عَن ذَلِكَ تَتَقَلَّبُ آلاماً وعَذاباً، وَيَبقَى صاحِبُها في المَعِيشَةِ الضَّنكِ، فَلَيسَتِ الحَياةُ الطَّيِّبَةُ إلّا بِاللهِ.

وكانَ بعضُ المُحِبِّينَ تَمُرُّ بِهِ أَوقاتٌ، فَيَقُولُ: إِن كانَ أَهلُ الجَنَّةِ في نَعِيمٍ مِثلِ هَذا إِنَّهُم لَفِي عَيشٍ طَيِّبٍ. وَقَد تَقَدَّمَ ذَلِك، وَكانَ غَيرُهُ يَقُولُ: لَو يَعلَمُ المُلُوكُ وَأَبناءُ المُلُوكِ ما نَحنُ فِيهِ لَجالَدُونا عَلَيهِ بِالسُّيُوفِ»(٣).

• أن يقدم رضى الله على ما تحبه نفسه وهواه:

قال ابن رجب رحمه الله: «وفي بعض الكتب السالفة: من أحب الله لم يكن شيء عنده آثر من رضاه، ومن أحب الدنيا لم يكن شيء عنده آثر من هوى نفسه. وروى ابن أبي الدنيا بإسناده عن الحسن قال: ما نظرت ببصري، ولا نطقت بلساني، ولا بطشت بيدي، ولا

(١) رواه أحمد (٢٠٧٣٣)، وصححه محققو المسند.

(٢) عدة الصابرين (ص١٩٥).

(٣) الجواب الكافي (ص١٦٨).

نهضت على قدمي، حتى أنظر على طاعة الله أو على معصيته، فإن كانت طاعة تقدمت، وإن كانت معصية تأخرت»[1].

- **التفكر في نعيم الجنة**

قال ابن رجب رحمه الله: «قال النبي صلى الله عليه وسلم: «**اللَّهُمَّ لا عَيْشَ إلا عَيْشُ الآخِرَةِ**»[2] وسبب ذلك: أن ابن آدم مركب من جسد وروح، وكل منهما يحتاج إلى ما يتقوت به، ويتنعم به، وذلك هو عيشه، فالجسد عيشه الأكل، والشرب، والنكاح، واللباس، والطيب، وغير ذلك من اللذات الحسية، فهيه -بهذا الاعتبار- مشابهة بالحيوانات في هذه الأوصاف، وأما الروح: فهي لطيفة، وهي روحانية، فقوتها، ولذتها، وفرحها، وسرورها، في معرفة خالقها، وبارئها، وفاطرها، وفيما يقرب من طاعته، وذكره، ومحبته، والأنس به، والشوق إلى لقائه، فهذا هو عيش النفس وقوتها، فإذا فقدت ذلك مرضت، وهلكت أعظم مما يهلك الجسد بفقد طعامه وشرابه، ولهذا يوجد كثير من أهل الغنى والسعة يعطي جسده حظه من النعيم، ثم يجد ألمًا في قلبه، ووحشة، فيظنّ الجهال أن هذا يزول بزيادة هذه اللذات الحسية، وبعضهم يظن أنه يزول بإزالة العقل بالسكر، وكل هذا يزيد الألم، والوحشة، وإنما سببه أن الروح فقدت قوتها، وغذاءها، فمرضت، وتألمت»[3].

- **اليقين بأن الجمع بين عيش الدنيا والآخرة متعذر، فيتعين إيثار عيش الآخرة على عيش الدنيا:**

قال ابن رجب رحمه الله: «واعلَم أن الجمع بين هذين العيشين في دار الدنيا غير ممكن، فمن اشتغل بعيش روحه وقلبه، وحصل له منه نصيب وافر: لهى عن عيش جسده وبدنه، ولم يقدر أن يأخذ منه نهاية شهوته، ولم يقدر أن يتوسع في نيل الشهوات الحسية، وإنما يأخذ منها بقدر ما تقوم به حاجة البدن خاصة، فينتقص بذلك عيش الجسد ولابد، وهذه كانت طريقة الأنبياء والمرسلين وأتباعهم، وكان الله يختار أن يقلل نصيبهم من عيش أجسادهم،

(١) كلمة الإخلاص (ص٣٥).

(٢) رواه البخاري (٢٩٦١)، ومسلم (١٨٠٥).

(٣) شرح حديث لبيك (ص٥٨).

ويوفي نصيبهم من عيش قلوبهم وأرواحهم. قال سهل التستري: ما آتى الله عبدا من قربه ومعرفته نصيبا، إلا حرمه من الدنيا بقدر ما أعطاه من معرفته وقربه، ولا آتاه من الدنيا نصيبا، إلا حرمه من معرفته وقربه بقدر ما آتاه في الدنيا»[1].

• التدبر في سرعة زوال الدنيا:

قال ابن القيم رحمه الله: «مثل أهلها في غفلتهم، مثل قوم ركبوا سفينة، فانتهت بهم إلى جزيرة، فأمرهم الملاح بالخروج لقضاء الحاجة، وحذرهم الإبطاء، وخوفهم مرور السفينة، فتفرقوا في نواحي الجزيرة، فقضى بعضهم حاجته، وبادر إلى السفينة، فصادف المكان خاليا، فأخذ أوسع الأماكن وألينها وأوفقها لمراده، ووقف بعضهم في الجزيرة ينظر إلى أزهارها وأنوارها العجيبة، ويسمع نغمات طيورها، ويعجبه حسن أحجارها، ثم حدثته نفسه بفوت السفينة، وسرعة مرورها، وخطر ذهابها، فلم يصادف إلا مكانا ضيقا، فجلس فيه، وأكب بعضهم على تلك الحجارة المستحسنة، والأزهار الفائقة، فحمل منها حمله، فلما جاء لم يجد في السفينة إلا مكانا ضيقا، وزاده حمله ضيقا، فصار محموله ثقلا عليه ووبالا، ولم يقدر على نبذه، بل لم يجد من حمله بُدّا، ولم يجد له في السفينة موضعا، فحمله على عاتقه، وندم على أخذه، فلم تنفعه الندامة، ثم ذبلت الأزهار، وتغيرت أراييجها، وآذاه نتنها، وتولج بعضهم في تلك الغياض، ونسي السفينة، وأبعد في نزهته، حتى إن الملاح نادى بالناس عند دفع السفينة، فلم يبلغه صوته؛ لاشتغاله بملاهيه، فهو تارة يتناول من الثمر، وتارة يشم تلك الأنوار، وتارة يعجب من حسن الأشجار، وهو على ذلك خائف من سَبُعٍ يخرج عليه، غير منفك من شوك يتشبث في ثيابه، ويدخل في قدميه، أو غصن يجرح بدنه، أو عوسج يخرق ثيابه»[2].

• الصبر عن محبة الدنيا

قال ابن كثير رحمه الله: «يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ قَارُونَ: إِنَّهُ خَرَجَ ذَاتَ يَوْمٍ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَةٍ عَظِيمَةٍ، وَتَجَمُّلٍ بَاهِرٍ، مِنْ مَرَاكِبَ، وَمَلَابِسَ، عَلَيْهِ، وَعَلَى خَدَمِهِ، وَحَشَمِهِ، فَلَمَّا رَآهُ

(١) شرح حديث لبيك (ص٦٢).

(٢) عدة الصابرين (ص١٩٥-١٩٦).

مَن يريد الحياة الدنيا ويميل إلى زخارفها وزينتها، تمنَّوا أن لو كان لهم مثلُ الَّذي أُعطيَ قالوا: ﴿يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ أي: ذُو حظٍّ وافرٍ من الدُّنيا، فلمَّا سمعَ مقالتَهُم أهلُ العلمِ النافعِ، قالوا لهم: ﴿وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ أي: جزاءُ الله لعباده المؤمنينَ الصالحينَ في الدارِ الآخرةِ خيرٌ ممَّا ترونَ. كما في الحديثِ الصَّحيحِ: «قالَ اللهُ: «أعددتُ لِعِبادِي الصَّالِحينَ ما لا عَينٌ رأَت، ولا أُذُنٌ سَمِعَت، ولا خَطَرَ علَى قَلبِ بَشَرٍ». فاقرءُوا إن شِئتُم: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾»[1].

وقوله: ﴿وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ﴾: قال السدي: ولا يُلقَّى الجنَّةَ إلَّا الصَّابِرُونَ، كأنَّهُ جعَلَ ذلكَ من تمام الكلام الذين أوتوا العلم. قال ابن جرير: ولا يُلقَّى هذه الكلمةَ إلَّا الصَّابِرُونَ عن محبَّةِ الدُّنيا، الرَّاغبُونَ في الدارِ الآخرةِ، وكأنَّهُ جعلَ ذلكَ مقطوعاً من كلامِ أولئكَ، وجعلَهُ من كلام الله عزوجل، وإخباره بذلك»[2].

* * *

(١) رواه البخاري (٣٢٤٤)، ومسلم (٢٨٢٤) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) تفسير ابن كثير (٦/ ٢٥٥)، وانظر: تفسير الطبري (١٩/ ٦٢٩).

الخاتمة

تفكّر في دنياك: كم قتلت، وتذكّر ما صنعت بأقرانك وما فعلت، واحذرها؛ فإنها عما لابد منه قد شغلت، وإياك أن تساكنها؛ فإنها إن خلّت رحلت.

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: مر رسول الله ﷺ بشاة ميتة، قد ألقاها أهلها، فقال: «والَّذي نَفسِي بيَدِهِ إنَّ الدُّنيا أَهوَنُ عَلَى الله مِن هَذِهِ عَلَى أَهلِها»[1].

وعن المستورد بن شداد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «والله ما الدُّنيا في الآخِرَةِ إلَّا مِثلُ ما يجعَلُ أَحَدُكُم إِصبعهُ هَذِهِ -وَأَشار يَحيَى -أحد الرواة- بالسَّبَّابَةِ- في اليَمِّ، فَليَنظُر بِمَ تَرجعُ»[2].

هذا، وأسأل الله تعالى أن يجعلنا من الذين يتجافون عن دار الغرور، وينيبون إلى دار الخلود والسرور.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله، وصحبه أجمعين.

* * *

(١) رواه أحمد (٣٠٣٩)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٣٢٣٦).

(٢) رواه مسلم (٢٨٥٨).

اختبر فهمك

فيما يلي مستويان من الأسئلة حول الموضوع: أسئلة حلولها مباشرة، وهي أسئلة المستوى الأول.

وأسئلة تحتاج إلى بحث وتأمل، وهي أسئلة المستوى الثاني.

أسئلة المستوى الأول (المباشرة):

١. ما هي مظاهر حب الدنيا؟

٢. لحب الدنيا أسباب عديدة، فما هي أبرزها؟

٣. ما المفاسد والأضرار المترتبة على حب الدنيا؟

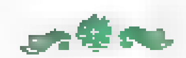
٤. ما العلاج الناجع لمرض حب الدنيا؟

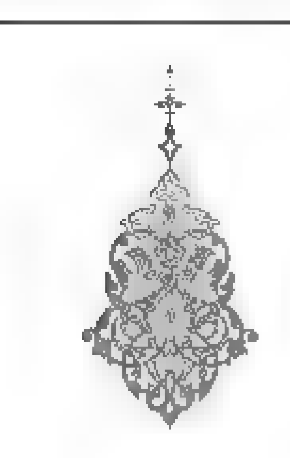
أسئلة المستوى الثاني (الاستنباطية):

١. عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الدُّنيا سِجنُ المُؤمِنِ، وَجَنَّةُ الكافِرِ»، وضح ذلك؟

٢. بكى عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ لما رأى حال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فماذا قال؟ وبماذا أجابه الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟

٣. ما العلاقة بين القول على الله بغير علم، وبين حب الدنيا؟





الجدال والمراء



مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، نبينا محمد، وعلى آله، وأصحابه أجمعين.

أما بعد:

فإن الجدل من الآفات الشديدة التي تقسّي القلب، ولخطورته، كان مجالاً لكلام العلماء رحمهم الله، وهو خُلُق يكرهه السلف، ويبتعدون عنه أشد الابتعاد، قال عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما: «لا ينبغي لحامل القرآن أن يخوض مع من يخوض، ولا يجهل مع من يجهل، ولكن يعفو ويصفح لحقِّ القرآن،... ويترك الجدال والمراء»[1].

وقال إبراهيم النخعي: «كانوا يكرهون الجدال»[2].

فما معنى الجدال والمراء؟

وما السبب الذي جعل العلماء يكرهونه؟

وما الفرق بين الجدال المحمود، والجدال المذموم؟

وما أمثلة كل نوع؟

وهل الجدل شيء مركب في طبع النفس البشرية؟ أم هو طارئ عليها؟

تساؤلات كثيرة أحببت الإجابة عليها من خلال هذا الفصل.

ولا يفوتني أن أشكر كل من ساهم في إعداد هذه المادة، وإخراجها بالصورة المرضية

نسأل الله تعالى أن يوفقنا لما فيه الخير والصلاح، وأن يسدد خطانا لطريق الصواب والفلاح، إنه على كل شيء قدير.

(١) تفسير القرطبي (١/ ٥٣)

(٢) تفسير ابن كثير (١/ ٣١٩)

تعريف الجدال والمراء

الجدال: الخصومة، ومراجعة الكلام، وهو دفع المرء خصمه؛ تصحيحاً لكلامه، وهو منازعة للخصم

قال الزجاج رَحِمَهُ اللَّهُ: «الجدال: هو المبالغة في الخصومة والمناظرة»[1].

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ: «الْمُجادَلَةُ: دَفْعُ الْقَوْلِ عَلَى طَرِيقِ الْحُجَّةِ بِالْقُوَّةِ، مَأْخُوذٌ مِنَ الْأَجْدَلِ، طائِرٌ قَوِيٌّ. وَقِيلَ: هُوَ مَأْخُوذٌ مِنَ الجدالَةِ، وَهِيَ الْأَرْضُ، فَكَأَنَّهُ يَغلبُهُ بالحجة يقهره حتى يصير كالمجدول بالأرضِ. وَقِيلَ: هُوَ مَأْخُوذٌ من الجدل، وهو شدة الفتل، فَكَأَنَّ كُلَّ واحِدٍ مِنْهُما يَفتِلُ حُجَّةَ صاحِبِهِ حَتَّى يَقطَعَها، وَتَكُونُ حَقّاً في نُصرَةِ الحَقِّ، وباطِلاً في نُصرَةِ الباطِلِ»[2].

أما المراء: فقيل: هو الجدال[3].

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ: «ماريت فلاناً: إذا جادلته وخاصمته»[4].

وقيل: هو طعن في كلام الغير؛ لإظهار خلل فيه، من غير أن يرتبط به غرض، سوى تحقير الغير[5].

وقيل: إن المراء لإثبات قول باطل، والجدال لإثبات قول قد يكون باطلاً، وقد لا يكون

(١) زاد المسير (٤/ ٩٩).

(٢) تفسير القرطبي (٧/ ٦٧).

(٣) فتح القدير (٣/ ٣٩٦).

(٤) تفسير الطبري (١٨/ ١٩٤).

(٥) التعريف (١/ ٢٦٦).

معنى الجدال في القرآن

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**المِراءُ في القُرآنِ كُفْرٌ**»[1].

وصف النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المراء في القرآن بأنه كفر، فما معنى المراء في القرآن؟

المراد بالمراء في القرآن: الشك فيه، وهذا كفر، فإذا شك أنه كلام الله، أو قال: إنه مخلوق، أو جعل يتتبع الأشياء لكي يصل إلى جحد شيء مما أنزله الله، ونحو ذلك: فالمجادلة والمماراة هنا على مذهب الشك والريبة.

وليس من الجدال في القرآن الممنوع أن يناقش في التفسير بعلم، فيقول: هل المراد كذا؟ أو المراد كذا؟ وترجيح أحد الوجوه. فهذا نقاش بعلم لمعرفة مراد الله.

فالمقصود بوصف المراء في القرآن بأنه كفر، أي: الذي يكون على سبيل الشك والارتياب والتكذيب.

وعن جندب بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**اقْرَؤُوا القُرْآنَ ما ائْتَلَفَتْ قُلُوبُكُمْ، فَإِذا اخْتَلَفْتُمْ فَقُومُوا عَنْهُ**»[2]. أي: إذا اختلفتم في فهم معانيه فقوموا عنه؛ لئلا يؤدي بكم الاختلاف إلى الشر.

ويحتمل أن المعنى: اقرؤوا والزموا الائتلاف على ما دل عليه، وقاد إليه، فإذا وقع الاختلاف أو عرضت شبهة تقتضي المنازعة الداعية إلى الافتراق. فاتركوا ذلك، وتمسكوا بالمحكم، واتركوا المتشابه الذي سبَّب الاختلاف.

---

(١) رواه أبو داود (٤٦٠٣)، وصححه الألباني.

(٢) رواه البخاري (٥٠٦٠).

وأهل الباطل يتّبعون ما تشابه من القرآن، ويجدلون فيه؛ ابتغاء الفتنة.

قال عمر رضي الله عنه: «إِنَّهُ سَيَأْتِي نَاسٌ يُجَادِلُونَكُمْ بِشُبُهَاتِ القُرْآنِ، فَخُذُوهُم بِالسُّنَنِ؛ فَإِنَّ أَصحابَ السُّنَنِ أَعلَمُ بِكِتَابِ اللهِ عز وجل»[1].

لأن السنن تبين مراد الله، والسنة مفسرة للقرآن.

***

(١) رواه الدارمي (١١٩).

الجدل طبع مركب في الإنسان

إن الجدل طبع مركب في الإنسان، فهو كثير الجدل كثير المراء، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٤]، أي: أكثر شيء مراءً وخصومةً، لا ينيب لحق، ولا ينزجر لموعظة[١].

وعن عَلِيّ بن أَبِي طَالِبٍ أَنَّ رَسُولَ الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ طَرَقَهُ وَفَاطِمَةَ بِنتَ النَّبِيِّ عَلَيهِ السَّلَامُ لَيلَةً، فَقَالَ: «أَلَا تُصَلِّيَانِ؟» فَقُلتُ: يَا رَسُولَ الله، أَنفُسُنَا بِيَدِ الله، فَإِذَا شَاءَ أَن يَبعَثَنَا بَعَثَنَا، فَانصَرَفَ حِينَ قُلنَا ذَلِكَ وَلَم يَرجِع إِلَيَّ شَيئاً، ثُمَّ سَمِعتُهُ وَهُوَ مُوَلٍّ يَضرِبُ فَخِذَهُ، وَهُوَ يَقُولُ: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾[٢].

يعني: تعجب من سرعة جوابه، وعدم موافقته له على الاعتذار بهذا، وهذا ضرب فخذه.

ومن الناس من يُحسن فنّ الجدل أكثر من غيره، وإن كان من ناحية الطبع مركوزاً في الجميع، لكن يتفاوت فيه البشر، وقد قال تعالى عن الكفار لما بعث إليهم محمداً صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا﴾ [مريم: ٩٧].

أي: أهل لدد وجدل بالباطل، لا يقبلون الحق.

وقال تعالى عن أهل الباطل: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ [الزخرف: ٥٨]. يعني: أشداء في المخاصمة.

---

(١) تفسير الطبري (١٨/ ٤٨).

(٢) رواه البخاري (١١٢٧)، ومسلم (٧٧٥).

ومن الأدلة على أن بعض الناس أعطي جدلا أكثر من بعض: حديث كعب بن مالك ﷺ حين تخلف عن تبوك، قال كعب: لم أتخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة غزاها إلا في غزوة تبوك، ... فلما بلغني أنه ﷺ توجه قافلا حضرني همي، وطفقت أتذكر الكذب، وأقول بماذا أخرج من سخطه غدا؟ واستعنت على ذلك بكل ذي رأي من أهلي، فلما قيل: إن رسول الله ﷺ قد أظل قادما زاح عني الباطل، وعرفت أني لن أخرج منه أبدا بشيء فيه كذب، فأجمعت صدقه ... فجئته، فلما سلمت عليه تبسم تبسُّم المغضب، ثم قال: «تَعالَ» فجئت أمشي حتى جلست بين يديه فقال لي: «ما خَلَّفَكَ؟». فقلت: إني والله يا رسول الله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أن سأخرج من سخطه بعذر، ولقد أُعطيت جدلا ... الحديث[1].

وموضع الشاهد: (أعطيت جدلاً) يعني: أعطيت فصاحة وقوة كلام، بحيث أخرج من عُهدة ما يُنسب إليّ، وأسُلُّ نفسي، كما تُسل الشعرة من العجين.

وعن أم سلمة ﷺ زوج النبي ﷺ، عن رسول الله ﷺ أنه سمع خصومة بباب حجرته، فخرج إليهم فقال: «إنَّما أَنا بَشَرٌ، وَإِنَّهُ يَأْتِيني الخَصمُ، فَلَعَلَّ بَعضَكُم أَن يَكُونَ أَبلَغَ مِن بَعضٍ؛ فَأَحسِبُ أَنَّهُ صَدَقَ، فَأَقضِي لَهُ بِذلِكَ، فَمَن قَضَيتُ لَهُ بِحَقِّ مُسلِمٍ فَإِنَّما هِيَ قِطعَةٌ مِنَ النّارِ، فَليَأخُذها، أَو فَليَترُكها»[2].

وهذا الطبع من الجدل يستمر في الإنسان إلى يوم القيامة، حتى بعدما تقوم الساعة، قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا﴾ [النحل: ١١١]، أي: تخاصم وتحتج بما أسلفت في الدنيا، وتحاجّ عن نفسها.

وعن أنس بن مالك ﷺ قال: كنا عند رسول الله ﷺ فضحك فقال: «هَل تَدرُونَ مِمَّ أَضحَكُ؟» قال: قلنا: الله ورسوله أعلم. قال: «مِن مُخاطَبَةِ العَبدِ رَبَّهُ، يَقُولُ: يا رَبِّ، أَلَم تُجِرنِي مِنَ الظُّلمِ؟ قالَ: يَقُولُ: بَلَى. قالَ: فَيَقُولُ: فَإِنِّي لا أُجِيزُ عَلَى نَفسِي إِلّا شاهِداً مِنِّي. قالَ: فَيَقُولُ: كَفَى بِنَفسِكَ اليَومَ عَلَيكَ شَهِيداً، وَبِالكِرامِ الكاتِبِينَ شُهُوداً. قالَ: فَيُختَمُ

---

(١) رواه البخاري (٤٤١٨)، ومسلم (٢٧٦٩).

(٢) رواه البخاري (٢٤٥٨)، ومسلم (١٧١٣).

عَنْ فِيهِ، فَيُقَالُ لِأَرْكَانِهِ: انْطِقِي. قَالَ: فَتَنْطِقُ بِأَعْمَالِهِ. قَالَ: ثُمَّ يُخَلَّى بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْكَلَامِ، قَالَ فَيَقُولُ: بُعْداً لَكُنَّ وَسُحْقاً، فَعَنْكُنَّ كُنْتُ أُنَاضِلُ»[1].

وقال تعالى واصفاً جدال الكفار يوم القيامة: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ۝٢٣ انظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ ۚ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام: ٢٢-٢٤].

وعن أبي سعيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يَجِيءُ نُوحٌ وَأُمَّتُهُ، فَيَقُولُ اللهُ تَعَالَى: هَلْ بَلَّغْتَ؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ، أَيْ رَبِّ. فَيَقُولُ لِأُمَّتِهِ: هَلْ بَلَّغَكُمْ؟ فَيَقُولُونَ: لَا، مَا جَاءَنَا مِنْ نَبِيٍّ. فَيَقُولُ لِنُوحٍ: مَنْ يَشْهَدُ لَكَ؟ فَيَقُولُ: مُحَمَّدٌ صلى الله عليه وسلم وَأُمَّتُهُ. فَنَشْهَدُ أَنَّهُ قَدْ بَلَّغَ، وَهُوَ قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣]. وَالْوَسَطُ الْعَدْلُ»[2].

***

(١) رواه مسلم (٢٩٦٩).

(٢) رواه البخاري (٣٣٣٩).

أسباب حصول المراء والجدال

لو وقفنا نسأل أنفسنا: لماذا يحصل المراء والجدال بين الناس؟ لتوصلنا إلى عدة أسباب، منها

١. النصيحة العلنية.

٢. اختيار الوقت غير المناسب.

٣. اختيار المكان غير المناسب، بحيث يتجهم الآخر ويُثار.

٤. قد يكون سبب الجدال والمراء: إرادة الحظوة عند الآخرين.

٥. قد يكون السعي للتغلب على الآخر بأي طريقة: بالباطل، أو بالحق.

٦. البيئة – أحياناً – لها دور في تنشيط عمليات المجادلة والمهارة، وخصوصاً في أوساط الشباب، فيجب أن يحذروا منها، وقد يوجد في بعض أوساط الدعاة والمتدينين وسط يُغذّي هذه الأشياء، فيشجع كل منهم فريقاً، فهذه عمليات تنشيطية، وأجواء بيئية، تؤدي إلى المراء والجدل.

ويوجد في بعض الأوساط التربوية مدرسون يشجعون الجدل، وكثيراً ما يجادلون الطلاب، فيتسلل هذا الطبع ويتسرب لنفوس الطلاب.

وقد تتسرب هذه الطبيعة الجدلية من الأب إلى الأبناء، إن كان الأب ذا طبيعة جدلية.

فعلى المربي أن يكون متخلصاً من هذه السلبية.

٧. قد يكون السبب في الجدل عند البعض: العُجب، أو الغرور، أو الكِبر.

٨. قد يكون من فراغ القلب من تقوى الله

٩. الفراغ، فالعسكر الفارغ تسوده المشاغبات، ومن تأمل كثيرًا من الأوساط التي يكثر فيها الجدال، يجد أنهم أناس فارغون، ليس لديهم برامج تشغلهم، فهذا من أكبر أسبابه.

❋ ❋ ❋

شروط المجادلة

لا بد أن نعرف ماذا نلتزم إذا أردنا أن نجادل؟

وماذا نشترط قبل أن نجادل؟

شروط الجدال المحمود كالآتي:

أولاً: إخلاص النية لله، وهو الشرط الأول؛ لتكثر البركة، وتعظم الفائدة، وينقطع اللجج؛ لأن القصد هو الحق، ومعرفة الحق، فيجب أن يقدم تقوى الله قبل الدخول في ذلك، والقصد الحسن هو أهم شيء.

ثانياً: يجب أن يكون الجدل بالتي هي أحسن.

ثالثاً: يجب أن يكون الجدل بالعلم، قال تعالى: ﴿ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ﴾ [آل عمران: ٦٦].

رابعاً: البدء بذكر الله تعالى، فيبدأ كل من المتجادلين المتناظرين للحق بذكر الرب عَزَّوَجَلَّ، وبالبسملة، وإن لم يذكره بلسانه فليذكره في قلبه ونفسه.

خامساً: التأدب في الجلوس، وتوقير صاحبه الذي يجادله، وإحسان الجلسة أمامه، وبين يديه.

سادساً: اجتناب الهوى، فالإنسان قد يكتشف أنه مخطئ أثناء النقاش، وأن صاحبه على حق، فعليه أن يتراجع عن خطئه.

ومَن تأمل كلام المصنفين والسلف يهون عليه التراجع عن الخطأ.

عن محمد بن كعب رَحِمَهُٱللَّهُ قال: سأل رجلٌ علياً رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ عن مسألة، فقال فيها رأيه، فقال

الرجل: ليس هكذا! ولكن كذا وكذا، فقال علي: «أصبتَ وأخطأتُ، وفوق كل ذي علم عليم»[1].

وعن طاووس رَحِمَهُ اللَّهُ أن زيد بن ثابت وابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ تماريا في صدر الحائض قبل أن يكون آخر عهدها الطواف بالبيت، أي: هل الحائض تخرج بدون طواف وداع أم لا؟ فقال ابن عباس: تنفر، وقال زيد: لا تنفر، فدخل زيد على عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فسألها فقالت: تنفر، فخرج زيد وهو يتبسم ويقول: «ما الكلام إلا ما قلتَ».

قال ابن عبد البر رَحِمَهُ اللَّهُ: «هكذا يكون الإنصاف، وزيد معلِّم ابن عباس، فما لنا لا نقتدي بهم، والله المستعان»[2].

ورُوي أن أبا حنيفة رَحِمَهُ اللَّهُ نهى ابنه حمّاداً عن المناقشة والجدال، وكان أبو حنيفة معروفاً بأنه كان من المناظرين الأذكياء الكبار، الذين يناظرون للوصول إلى الحق، فقال له ابنه: رأيتك تناظر في الكلام وتنهاني؟!

فقال: «يا بني، كنا نناظر وكأن على رؤوسنا الطير مخافة أن يزل صاحبنا، وأنتم تناظرون وتريدون زلة صاحبكم»[3].

وجاء عن الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ أنه قال: «ما ناظرت أحداً قط إلا على النصيحة، وما ناظرت أحداً فأحببت أن يخطئ»[4]، أي: ما دخلت أبداً في مناظرة وأريد أن الطرف الثاني يخطئ؛ لأن القصد هو الوصول إلى الحق، سواءً مني أو منه.

وورد أنه ناقش بعض أهل العلم في مسألة فيها رأيان، فرجع الشافعي لرأي الثاني، ورجع العالم الثاني بعد النقاش لرأي الشافعي، فكل واحد منهما اقتنع برأي الآخر، وانتهى النقاش بهذه النتيجة العجيبة.

---

(١) تفسير الطبري (١٦/ ١٩٢).

(٢) التمهيد (١٧/ ٢٧٠).

(٣) تبيين الحقائق (١/ ١٣٥).

(٤) تاريخ دمشق (٥١/ ٣٨٤).

سابعاً: أن يكون متحلياً بالحلم والصبر؛ لأنه بدون التحلي بالحلم والصبر تنقلب المجادلات إلى نقاشات عقيمة.

ثامناً: أن يكون متريثاً متأنياً لا يعجل، فربما أن الشخص الآخر لو أفرغ ما عنده لانتهى النقاش بمجرد حكاية كلامه، فيكون كلامه يُغني عن الرد عليه، فاصبر عليه، ودعه يفرغ ما عنده، فقد يكون متصوراً القضية بشكل معين، فإذا طرح ما عنده اكتشف خطأه.

تاسعاً: لابدَّ من التزام الصدق: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٦].

عاشراً: لابدَّ من الترفق بالخصم.

وهذه نقطة مهمة جداً، فنحن عندما نتناقش في مسألة ما إنما نريد أن نصل إلى نتيجة، ونصل إلى الحق، وليس الهدف إمضاء الوقت، أو ظهور أحدنا على الآخر.

فلا ينبغي كسر المخاصم، أو إحراجه أمام الناس، أو عدم إعطائه فرصة للتراجع، أو الانهيال عليه بالعبارات القاسية الجارحة، أو جعله مسخرة ومضحكة للناس، ونحو ذلك.

إن المهم في النقاشات هو كسب الخصم، لا كسب الموقف.

الحادي عشر: اجعل للخصم طريقاً للتراجع، وإذا زلّ زلة فلا تخجله، ولا تذكرها له بطريقة مسيئة، وإنما نبهه بلطف، وأحسن الاستماع إليه؛ فإن حسن الاستماع نصف الوصول إلى النتيجة.

الثاني عشر: الإنصاف له، فقد يقول المخاصم حقاً، فأقرّ له بذلك، وأقر له بمكانته ومنزلته.

قال أبو جعفر المنصور للإمام مالك -رحمهما الله-: إني عزمت أن أكتب كتبك هذه نسخاً، ثم أبعث إلى كل مصر من أمصار المسلمين بنسخة، آمرهم بأن يعملوا بما فيها، ولا يتعدوها إلى غيرها من هذا العلم المحدث؛ فإنني رأيت أصل العلم رواية أهل المدينة وعلمهم.

فقال الإمام مالك: «يا أمير المؤمنين لا تفعل؛ فإن الناس قد سبقت لهم أقاويل، وسمعوا أحاديث وروايات، وأخذ كل قوم بما سبق إليهم، وعملوا به، ودانوا له، من اختلاف أصحاب رسول الله ﷺ وغيرهم، وإن ردهم عما اعتقدوا شديد، فدع الناس وما هم عليه، وما اختار أهل كل بلد لأنفسهم» فقال أبو جعفر: لو طاوعتني على ذلك لأمرت به»[1]. وهذا من إنصافه رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

ويقول أبو محمد بن حزم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ناظرت رجلا من أصحابنا في مسألة، فعلوته فيها، لكونه كان في لسانه -أي: عيب في لسانه-، وانفصل المجلس على أني ظاهر، فلما أتيت منزلي حاك في نفسي منها شيء، فتطلبتها في بعض الكتب، فوجدت برهانا صحيحا يبين بطلان قولي وصحة قول خصمي، وكان معي أحد أصحابنا ممن شهد ذلك المجلس، فعرفته بذلك، ثم رآني قد علمت على المكان من الكتاب، فقال لي: ما تريد؟ فقلت: أريد حمل هذا الكتاب وعرضه على فلان، وإعلامه بأنه المحق، وأني كنت المبطل، وأني راجع إلى قوله.

فهجم عليه من ذلك أمر مبهت وقال لي: وتسمح نفسك بهذا! فقلت له: نعم، ولو أمكنني ذلك في وقتي هذا لما أخرته إلى غد»[2].

الثالث عشر: لابدَّ من تهذيب النطق والكلام، وعدم رفع الصوت والصياح، تناظر رجلان عند المأمون فارتفعت أصواتهما، فقال: «الصواب في الأسدّ، لا في الأشدّ»[3].

الرابع عشر: تجنب المماراة، والرفق بالمشايخ؛ فإن الرفق بهم تُستخرج به العلوم، قال بعض تلاميذ ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: «لو رفقتُ بابن عباس لاستخرجت منه علماً جماً»[4]، وقال ابن جريج رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«لم أستخرج الذي استخرجت من عطاء إلا برفقي به»[5].

---

(١) ترتيب المدارك للقاضي عياض (٢/ ٧٣).

(٢) رسائل ابن حزم (٤/ ٣٣٧).

(٣) ربيع الأبرار (٣/ ١٤١).

(٤) تاريخ دمشق (٢٩/ ٢٩٧).

(٥) مفتاح دار السعادة (١/ ١٦٩).

الخامس عشر: من شرط المناظرة: أن تكون بين أنس من أهل العلم، وليس من أهل الجهل.

السادس عشر: اختلاف الرأي لا يفسد للودّ قضية.

قال عباس بن عبد العظيم العنبري: «كنت عند أحمد بن حنبل، وجاءه علي بن المديني راكبا على دابة، قال: فتناظرا في الشهادة، وارتفعت أصواتهما، حتى خفت أن يقع بينهما جفاء، فلما أراد عليّ الانصراف قام أحمد فأخذ بركابه»[1].

السابع عشر: ينبغي تجنب ما يشوّش الأفكار.

الثامن عشر: لتُترك الحيل في النقاش، وليُجعل حَكَمٌ يحفظ الكلام بين المتناقشين، حتى لا ينكر أحدهما شيئاً مما قاله، بل يكون الحكم شاهداً على كل ما يقال.

التاسع عشر: هناك أناس يجب تجنب مماراتهم ومجادلاتهم أصلاً، مثل: الجاهل الذي لا يقر بجهله، والمتعنت، والمعتدي، والسفيه، والذي لا يشهد بالحق، بل بالزور.

* * *

(١) جامع بيان العلم وفضله (٢/ ٩٦٨).

أنواع الجدال

الجدال المحمود، والجدال المذموم:

الجدال منه ما يكون محموداً، ومنه ما يكون مذموماً.

الجدال قد يكون حواراً ومحاجة ومناظرة؛ فيكون محموداً، وقد يكون ملاحاة ومماراة ومماحلة؛ فيكون مذموماً.

لقد أمر الله عَزَّوَجَلَّ بالجدال المحمود، فقال تعالى: ﴿وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ [النحل: ١٢٥] أي: فليكن جدالك لهم بالوجه الحسن، برفق، ولين، وحسن خطاب.

وقال تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ﴾ [العنكبوت: ٤٦]، ومعنى ﴿إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾:

١. الجدال بالقرآن.

٢. وقيل: الجدال بلا إله إلا الله.

٣. وقيل: جادلهم غير فظ ولا غليظ، وألِن لهم جانبك.

ومعنى قول الله تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ﴾ أي: إلا الذين أبوا أن يقروا لكم بالحق، ولا بإعطاء الجزية، ونصبوا الحرب لكم، فعند ذلك يكون جدالهم بالسيف؛ لأن جدالهم باللسان غير ممكن في هذه الحالة.

الجدال المذموم:

ما تعلق بإظهار الباطل، أو أشغل عن إظهار الحق، وتوضيح الصواب.

فإن كانَ الجدال للوقوف على الحق وتقريره كانَ محموداً، وإن كانَ في مدافعة الحق أو كانَ جدالاً بغير علم كانَ مذموماً.

الجدال المحمود:

ما كان بنية خالصة، وأدّى إلى خير، وهذا من الواجبات التي على المسلم أن يفعلها لأجل دينه، قال ابن تيمية رحمه الله: «فكل من لم يناظر أهل الإلحاد والبدع مناظرة تقطع دابرهم لم يكن أعطى الإسلام حقه، ولا وفّى بموجَب العلم والإيمان، ولا حَصّل بكلامه شفاء الصدور وطمأنينة النفوس، ولا أفاد كلامه العلم واليقين»[1].

والمجادلة بالحق عبادة عظيمة، فعندما قال قوم نوح عليه السلام لنبيهم: ﴿قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [هود: ٣٢] جادلهم لأجل تعريفهم بالحق، وإقناعهم به، ولذلك رد عليهم: ﴿قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ اللَّهُ إِن شَاءَ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [هود: ٣٣-٣٤].

وقد حفلت الآيات الكريمة في القرآن الكريم بقصص من المناظرات بين موسى وفرعون، وبين نوح وقومه، وبين إبراهيم والنمرود، وبين إبراهيم وأبيه، وبين إبراهيم وقومه، وبين النبي ﷺ وقريش، وبين الصحابة والمشركين، وهكذا.

فهذا جدال من أهل الحق لأهل الباطل؛ لإقناعهم، فهو جدال محمود.

وكذلك المرأة التي جاءت تستفتي، وذُكرت قصتها في قوله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة: ١] هذه المرأة تريد أن تعرف مصيرها مع زوجها، ماذا تفعل معه؟ هل هي حرام عليه، أم حلال؟ فهو جدال محمود.

أما الجدال المذموم: فهو كل جدال ظاهر البطلان أو أفضى إليه، كما قال الله عز وجل: ﴿وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ﴾ [الكهف: ٥٦] يعني: ليدفعوه ويبطلوه.

---

(١) مجموع الفتاوى (٢٠/ ١٦٤).

والجدل المذموم من طبع الكفر، قال تعالى: ﴿وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّۖ﴾ [الكهف: ٥٦]، فهذه الآية العظيمة تدل على جدال الكفار باستمرار؛ لدحض الحق وإزالته.

وقال تعالى: ﴿كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۖ وَهَمَّتۡ كُلُّ أُمَّةِۭ بِرَسُولِهِمۡ لِيَأۡخُذُوهُۖ وَجَٰدَلُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّ فَأَخَذۡتُهُمۡۖ فَكَيۡفَ كَانَ عِقَابِ﴾ [غافر: ٥] ما حاولوا، وجادلوا، وخاصموا؛ ليُذهبوا الحق.

وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ٱسۡتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمۡ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمۡ وَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ وَلَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٌ﴾ [الشورى: ١٦]، وهذا وعيد من الله للذين يحاجون ويجادلون في الله بعد ما استجاب له المؤمنون، ويحاولون أن يصدوا المؤمنين عن الله تعالى وعن سبيله، فتوعدهم الله عز وجل.

وقال تعالى: ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَا يَغۡرُرۡكَ تَقَلُّبُهُمۡ فِي ٱلۡبِلَٰدِ﴾ [غافر: ٤].

وقال تعالى: ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُ إِلَيۡكَۖ وَجَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً أَن يَفۡقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٗاۚ وَإِن يَرَوۡاْ كُلَّ ءَايَةٖ لَّا يُؤۡمِنُواْ بِهَاۚ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ [الأنعام: ٢٥] أي: أخذته عن الأوائل، ونقلته من كتبهم وأفواههم.

وقال تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيۡرٌ أَمۡ هُوَۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلَۢاۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٌ خَصِمُونَ﴾ [الزخرف: ٥٨] مجادلون بالباطل كثيرو الخصومة.

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: جاء عبد الله بن الزِّبَعرى إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: تزعم أن الله أنزل عليك هذه الآية: ﴿إِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمۡ لَهَا وَٰرِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٨]؟ فقال ابن الزبعرى: قد عبدت الشمس والقمر والملائكة وعزير وعيسى بن مريم، كل هؤلاء في النار مع آلهتنا؟ فنزلت: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوۡمُكَ مِنۡهُ يَصِدُّونَ ۝٥٧ وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيۡرٌ أَمۡ هُوَۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلَۢاۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٌ خَصِمُونَ﴾ [الزخرف: ٥٧، ٥٨]، ثم نزلت: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنۡهَا مُبۡعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠١][1].

(١) أخرجه ابن مردويه - كما في تفسير ابن كثير (٣/ ٢٦٥).

فعزير وعيسى بن مريم مبعدون عن النار، وبقية الآلهة الباطلة فيها، حتى الشمس والقمر والأصنام في النار؛ تعذيباً لعابديها، يقال: هذا الذي عبدتموه هو الآن سبب إحراقكم، فصرتم حصب جهنم، فذوقوا العذاب.

وقد حصلت عدة محاولات من المشركين في الجدال بالباطل في عهد النبي ﷺ، وجادلوا الصحابة بالباطل، قال تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ ۗ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ١٢١].

يوحون: يوسوسون.

إلى أوليائهم: الكفار.

ليجادلوكم: بهذه الحجة التي يريدون بها دحض الحكم الشرعي، وهو الحق، فهم يقولون للمسلمين: ما ذبحتموه بأيديكم تأكلوه، وما قتله الله - يعني مات حتف أنفه - لا تأكلوه؟! انظر إلى منطق أهل الجاهلية، فردّ الله عليهم، مخاطباً المسلمين: ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ فكله قدر الله، حتى الذي ذبحه الإنسان بقدر من الله، والبهيمة مانت بحتف أنفها بقدر من الله.

لكن هذا القدر أباحه الله عز وجل إذا وقع الذبح باليد مع التسمية، وهذا القدر حرمه الله إذا وقع، وهو أن تموت حتف أنفها.

وانظر إلى هذه المحاجة: عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: أتى أناس النبي ﷺ فقالوا: يا رسول الله، أنأكل ما نقتل، ولا نأكل ما يقتل الله؟ فأنزل الله: ﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ﴾ إلى قوله: ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ١١٨-١٢١][(١)].

وقال تعالى - واصفاً مجادلة المشركين لما رآه محمد ﷺ في معراجه -: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ (١١) أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ﴾ [النجم: ١١-١٢] أي: أتجادلون يا أيها المشركون محمداً ﷺ على ما أراه الله من الآيات، وتكذبون وتشككون؟!!

(١) رواه الترمذي (٣٠٦٩)، وصححه الألباني في صحيح الترمذي.

وقال تعالى: ﴿وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ۝٦٨ ٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [الحج: ٦٨-٦٩] فهذه الآية نزلت على النبي ﷺ لما جادله الكفار بالباطل، فدافعهم بقوله: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من الكفر والتكذيب، وأمره بالإعراض عن مماراتهم؛ صيانة عن الاشتغال بتعنتهم؛ لأن صاحب العناد لا ينفع معه النقاش.

ومما يجادلون فيه بالباطل: القرآن، ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [غافر: ٤]، فعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «**لا تُجادِلُوا في القُرآنِ؛ فَإِنَّ جِدالاً فيهِ كُفرٌ**»[1].

وأيضاً: فقد حصلت المجادلة من ضعاف الإيمان:

قال تعالى: ﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ۝٥ يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾ [الأنفال: ٥-٦] أي: لما أيقنوا بالقتال، وأن المصادمة آتية، كرهوا ذلك، وقالوا: لِمَ لَمْ تخبرنا أنا سنلقى العدو، حتى نتأهب لذلك ونستعد؟ ونحن خرجنا للعير والقافلة وما خرجنا للجيش، فهذا كان جدالهم.

ومجادلة الكفار للأنبياء كانت موجودة مع وجود الرسل، فهذا هود عليه السلام ناقشه قومه وجادلوه في الأصنام، قال تعالى على لسان هود عليه السلام: ﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ ۖ أَتُجَٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾ [الأعراف: ٧١] أي: أتحاجوني في أصنام سميتموها أنتم وآباؤكم، لا تضر ولا تنفع؟!

وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ [غافر: ٣٥].

من الذي قال هذا الكلام؟ حكاه الله عز وجل عن من؟

---

(١) رواه البيهقي (٢٢٥٧)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٧٢٢٣).

هذا قاله مؤمن آل فرعون، لما قام يدافع عن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ﴾ [غافر: ٥٦].

فهذا رابط بين الكبر والجدال والمراء، فانظر كيف يبعث الكبر على الجدل بغير حق، والمراء بغير حق، وإرادة دحض الحق، وتقرير الباطل، كبراً وعناداً.

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّى يُصْرَفُونَ﴾ [غافر: ٦٩].

والجدال المذموم ينقسم إلى قسمين:

١. جدال بغير علم، كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ﴾ [الحج: ٣].

وقال تعالى يخاطب أهل الكتاب: ﴿هَا أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٦].

والجدال في الله من المجادلة بغير علم، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ﴾ [الرعد: ١٣] أي: شديد القوة، سبحانه وتعالى.

وقال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ ﴿٣﴾ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ [الحج: ٣-٤]، فيزعم أن الله لا يقدر على إحياء الموتى، ويأتي الكافر إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعظم قد بَلِيَ فيفتّه أمامه ويقول: أتزعم أن ربك يقدر على أن يحيي هذا؟ وهكذا كانوا يجادلون النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وينكرون البعث بعد الموت.

وقال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ﴿٨﴾ ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الحج: ٨-٩]، أي: متكبر، ويريد إضلال الناس عن سبيل الله.

ومما يجادل فيه هؤلاء أيضاً: الساعة: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ [الشورى: ١٨]، مع أن قيام الساعة من علم الغيب الذي لا يعرفه أحد.

ومن الجدال بغير علم: الجدال في القدر:

فعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده رضي الله عنه قال: خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم على أصحابه وهم يختصمون في القدر، فكأنما يُفقأ في وجهه حب الرمان من الغضب، فقال: «**بِهَذا أُمِرتُم؟ أَو لِهَذا خُلِقتُم؟ تَضرِبُونَ القُرآنَ بَعضَهُ بِبَعضٍ؟! بِهَذا هَلَكَتِ الأُمَمُ قَبلَكُم**»، قال: فقال عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما: «ما غبطت نفسي بمجلس تخلفت فيه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما غبطت نفسي بذلك المجلس وتخلفي عنه»[1].

فقوله: «**يختصمون في القدر**»: يعني يتنازعون نزاعاً مذموماً في القدر.

وقوله: «**فكأنما يُفقأ في وجهه حب الرمان من الغضب**»: هذا التعبير فيه دليل على شدة احمرار الوجه من الغضب، وكيف صار من شدة الحمرة كأنه شق أو عصر في وجنتيه – في خديه – حب الرمان.

وإنما غضب لأن القدر سر من أسرار الله تعالى، فمن يخوض فيه بغير علم ينتهي إلى الضلالة، إما أن يصبح قدرياً، أو يصبح جبرياً، ولذلك نهي عنه.

والمناقشات في القدر تؤدي إلى الشك والريبة، وتؤدي إلى تخلخل الإيمان، ولما تصبح هذه القضية مدار نقاشات بلا علم، أو تؤدي إلى إثارة شبهات بدون حسم، وبدون رد على الشبهات، فهذا نقاش مذموم، وجدال مذموم، ولذلك قال ابن عباس رضي الله عنهما: «لا يَزالُ أَمرُ هَذِهِ الأُمَّةِ قِواماً – أَو مُقارِباً – ما لَم يَتَكَلَّمُوا في الوِلدانِ والقَدَرِ»[2].

الولدان: يعني أطفال المشركين، ما مصيرهم؟

والقدر: معروف، والمقصود: الكلام بغير علم.

قال ابن القيم رحمه الله: «الحديث –لو صح– إنما يدل على ذم من تكلم فيهم بغير علم، أو ضرب النصوص بعضها ببعض»[3].

(١) رواه ابن ماجة (٨٥)، وحسنه الألباني.

(٢) رواه عبد الله بن أحمد في السنة (٢/ ٤٠٠)، وإسناده صحيح. ورواه ابن حبان (٦٧٢٤) مرفوعاً، والموقوف أصح.

(٣) أحكام أهل الذمة (٢/ ١٠٩٢).

٢ـ والنوع الثاني من الجدال الباطل: الجدال لنصرة الباطل، والشغب على الحق بعدما تبين، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَجَٰدَلُواْ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُواْ بِهِ ٱلْحَقَّ﴾ [غافر: ٥].

قال ابن بطة رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الجدال المذموم: «إِنَّما هُوَ لَهْوٌ يُتَعَلَّمُ، وَدِرايَةٌ يُتَفَكَّهُ بِها، وَلَذَّةٌ يُستَراحُ إِلَيها، وَمُهارَشَةُ العُقُولِ، وَتَذرِيبُ اللِّسانِ بِمَحقِ الأَديانِ، وَضَراوَةٌ عَلَى التَّغَلُّبِ، واستِمتاعٌ بِظُهُورِ حُجَّةِ المُخاصِمِ، وَقَصدٌ إِلَى قَهرِ المُناظِرِ، والمُغالَطَةِ فِي القِياسِ، وبَهتٌ فِي المُقاوَلَةِ، وَتَكذِيبُ الآثارِ، وَتَسفِيهُ الأَحلامِ الأَبرارِ، وَمُكابَرَةٌ لِنَصِّ التَّنزِيلِ، وَتَهاوُنٌ بِما قالَهُ الرَّسُولُ، وَنَقضٌ لِعُقدَةِ الإِجماعِ، وَتَشتِيتُ الأُلفَةِ، وَتَفرِيقٌ لِأَهلِ المِلَّةِ، وَشُكُوكٌ تَدخُلُ عَلَى الأُمَّةِ، وَضَراوَةُ السَّلاطَةِ، وَتَوغِيرٌ لِلقُلُوبِ، وَتَولِيدٌ لِلشَّحناءِ فِي النُّفُوسِ. عَصَمَنا اللهُ وَإِيّاكُم مِن ذَلِكَ، وَأَعاذَنا مِن مُجالَسَةِ أَهلِهِ»[1].

والجدال المحمود: دعانا النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إليه، بل هو نوع من الجهاد؛ فعن أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: **«جاهِدُوا المُشرِكِينَ بِأَموالِكُم، وَأَنفُسِكُم، وَأَلسِنَتِكُم»**[2].

فكيف نجاهد بألسنتنا؟

بالجدال بالتي هي أحسن، فالأمر بالمناظرة واجب كما يجب الجهاد والنفقة في سبيل الله، كما قال ابن حزم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[3].

قال الصنعاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «في الحديث دليل على وجوب الجهاد بالنفس، وهو بالخروج والمباشرة للكفار، وبالمال، وهو بذله لما يقوم به من النفقة في الجهاد والسلاح ونحوه، والجهاد باللسان، بإقامة الحجة عليهم، ودعائهم إلى الله تعالى»[4].

وجنس المناظرة بالحق قد تكون واجبة تارة، ومستحبة أخرى.

أما الجدال المذموم فهو مذموم بكل حال؛ لأنه إبطال لحق، أو نصرة لباطل.

---

(١) الإبانة (٢/ ٥٣١).

(٢) رواه أبو داود (٢٥٠٤)، وصححه الألباني.

(٣) الإحكام (١/ ٢٩).

(٤) سبل السلام (١/ ١٩٩).

وقد يكون الجدال محموداً ومذموماً في مكان واحد.

ففي الحج – مثلاً – يقول تعالى: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ﴾ [البقرة ١٩٧]

فما هو الجدال المنهي عنه في الحج؟

هو الجدال الذي يسبب خصومة وشحناء وبغضاء، الجدال بغير علم، الجدال الذي يريد كل واحد أن يعلو صاحبه فيه، ولا يريد أحدهما به الوصول إلى الحق، إنما هو لمعرفة مَن الأفضل في المناقشة، من يفحم الآخر، من يسكته، فليس هو لوجه الله.

وقد يكون جدالاً في أحكام الحج بلا علم، وهذا جدال مذموم أيضاً.

أما أن تناقش: هل التمتع أفضل، أم الإفراد؟ وكيف حج النبي ﷺ؟ متمتعاً، أو قارناً، أو مفرداً؟ فهذا النقاش والجدال لمعرفة الحق ومعرفة السنة له ثمرة، وهو أن تعمل بالحق، وتصل إليه.

وكذلك النقاش في الصيام: فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**الصِّيامُ جُنَّةٌ، فَلا يَرفُثُ، وَلا يَجهَلُ، وَإِنِ امرُؤٌ قاتَلَهُ أَو شاتَمَهُ فَليَقُل: إِنِّي صائِمٌ – مَرَّتَينِ**»[1]، وفي رواية: «**فَلا يَرفُثُ وَلا يُجادِلُ**»[2]

وينبغي للمسلم أن يترك الجدل، ولو كان محقاً؛ لأن المماراة والجدل يقسِّيان القلب، ويسبِّبان الشحناء والبغضاء بين المسلمين، وفيهما رفض الحق، وتقرير الباطل، ولما في هذه المماراة –التي يريد بها الشخص أن يزيف قول الآخر، وأن يبطل قوله، وأن يظهره بمظهر المخطئ، ولو كان ما يقوله حقاً– من الظلم والعدوان؛ لذا ندب الشارع إلى ترك المراء، فقال النبي ﷺ: «**أَنا زَعيمٌ بِبَيتٍ في رَبَضِ الجَنَّةِ لِمَن تَرَكَ المِراءَ، وَإِن كانَ مُحِقّاً**»[3]

زعيم: كفيل، وضمين.

---

(١) رواه البخاري (١٨٩٤)، ومسلم (١١٥١)

(٢) عمدة القاري (١٠/ ٢٥٨) وفتح الباري (٤/ ١٠٤)

(٣) رواه أبو داود (٤٨٠٠)، وحسنه الألباني

ببيت: بقصر.

في ربض الجنة: حولها.

المراء: الجدال الذي يريد به كسر الخصم، ولو كان على الحق، أي: لِجاجٌ، وخصومة، وجدل، يوقع في الباطل.

وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**إِنَّ أَبْغَضَ الرِّجَالِ إِلَى اللهِ: الأَلَدُّ الخَصِمُ**»[1].

الألدّ: كثير الجدال، والمراء، والمماحكة

الخصم: صاحب خصومات، وعداوات.

والمقصود بترك المراء والجدال هنا: هو الجدال مع أهل الحق، أما الجدال مع أهل الباطل والبدع: فلابُدَّ من متابعة نقاشهم؛ حتى يهتدوا، أو ينكسر باطلهم.

***

(١) رواه البخاري (٢٤٥٧)، ومسلم (٢٦٦٨).

أمثلة للجدال المحمود

هناك أمثلة على كيفية مجادلة الأنبياء عليهم السلام، والسلف الصالح، لأهل الباطل، وما يكون في الجدالات والمناقشات الفقهية العلمية.

- إبراهيم عليه السلام جادل النمرود؛ ليدحض باطله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

فلما صار النقاش في توحيد الربوبية، قال الكافر: ﴿أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ﴾ أي: هذا محكوم عليه بالقتل، فأعفو عنه، وهذا بريء، فأقتله فهذه مجادلة بالباطل، وليس هذا الإحياء، وهذه الإماتة، هما المقصودين في توحيد الربوبية، المقصود: أن الله يحيي من العدم، فإن كنت صادقاً فأحي من العدم!.

لكن، لما صارت المسألة مجال مجادلة بالباطل من قِبَل النمرود؛ انتقل إبراهيم إلى شيء لا يمكن المجادلة فيه، فقال: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ﴾ ماذا سيقول في هذه؟ ﴿فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ﴾ وسكت.

- كذلك النقاش الذي حصل بين صاحب الجنّتين، وبين صاحبه الصالح، وكيف رد عليه؟ وكيف أرشده إلى ما يجب أن يقوله، بدلاً من الاغترار بالنعيم الذي عنده؟ ثم ذكر له رجاءه بالله ﴿فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ﴾ [الكهف: ٤٠]، وذكّره بما يمكن أن يحصل له من غوران الماء، وذهاب الثمر.

• وكذلك، فإن عدداً من أهل العلم أيضاً جادلوا الكفار وناظروهم، قال ابن أبي العز الحنفي رحمه الله:

«يُحكَى عَن أَبِي حَنِيفَةَ رحمه الله أَنَّ قوماً مِن أَهلِ الكَلامِ أَرادُوا البَحث مَعهُ فِي تَقرِير توحِيد الرُّبوبِيَّةِ. فَقالَ لَهُم: أَخبِرُونِي قبل أَن نَتَكَلَّمَ فِي هَذِهِ المَسأَلَة عَن سَفِينَةٍ فِي دِجلَةَ، تَذهَبُ، فَتَمتَلِئُ مِنَ الطَّعامِ والمَتاعِ وَغيرِهِ بِنَفسِها، وَتعُودُ بِنفسِها، فَتَرسُو بِنَفسِها، وَتُفرِغُ وَتَرجِعُ، كُلُّ ذلِكَ مِن غَيرِ أَن يُدَبِّرَها أَحدٌ؟! فقالُوا: هذا مُحالٌ لا يُمكِنُ أَبداً! فَقالَ لَهُم: إِذا كانَ هَذا مُحالاً فِي سَفِينَةٍ، فكيفَ فِي هَذا العالَمِ كُلِّهِ، عُلوِهِ وَسُفلِهِ!!

وَتُحكَى هَذهِ الحِكايَةُ أَيضاً عَن غَيرِ أَبِي حَنِيفَةَ»[1].

• وكذلك لما قام عمرو بن عبيد -وهو من المعتزلة الذين يقولون: إن مرتكب الكبيرة مخلد في النار- قام -مرة- فقال: «يؤتى بي يوم القيامة، فأُقام بين يدي الله، فيقول لي: لم قلت إن القاتل في النار؟ فأقول: أنت قلته ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا﴾ [النساء: ٩٣]»

فقال له قريش بن أنس -وما في البيت أصغر منه-: «أرأيت إن قال لك: قد قلت: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ١١٦]، فمن أين علمت أني لا أشاء أن أغفر هذا؟».

فما استطاع أن يرد شيئاً[2].

• وكذلك وجه عمر بنُ عبدِ العزيز عَونَ بنَ عبدِ الله بنِ عُتبَةَ إلى الخَوارِجِ ليُناظِرهُم، فلمّا قَدِمَ عَلَيهم قالَ لَهُم: «قاتلتُم دَهرَكُم كُلَّهُ عَلَى أن يعمَلَ بِالَّذي عَمِلَ بِه عُمَرُ، فَلَمّا جاءَ رَأيُكُمُ الَّذي كُنتُم تَطلُبُونَ، وَقالَ النّاسُ: هذا، والله، رَأيُهُم، كُنتُم أَوَّلَ مَن نَفَرَ عنهُ»، قالُوا: والله، لَقَد صَدَقتَ، ما كُنّا نطلُبُ إلا الَّذي عَمِلَ بِهِ، وَلكِنَّهُ لَم يَتَبَرّأ مِنَ الَّذِينَ كانُوا قَبلَهُ، وَلَم يَلعَنهُم، فقالَ لَهُم: «هَل أَنتُم صادِقِيَّ عَمّا أَسأَلُكُم عنهُ؟» فَقالُوا: نَعَم، لَم

(١) شرح الطحاوية (ص٣٥).

(٢) تهذيب الكمال (٢٢/ ١٣١).

تَسـأَل عَن شَيءٍ إلا صَدَقـكَ، فقال: «مَتـى عهدُكُم بِلَعنِ هامان؟» فَقالُوا: ما لَعَنَّاهُ قَطُّ. فقال لَهُم: «أَفيَسَـعُكُم أَن تَترُكُوا وَزِيرَ فرعَونَ المُمَدِّ لأمرِه، ولا يسَعُ عُمَرَ بنَ عَبدِ العَزِيزِ أَن يَعمَـلَ بالحَـقِّ، وَيَكُفَّ اللَّعنَ عَن أَهلِ مِلَّتِهِ، إن كانُـوا أَخطَئُوا في شَيءٍ، وَعَملُوا بِغَيرِ الحَقِّ؟!».

فَرَجَـعَ إلى عُمَـرَ بنِ عَبدِ العزيزِ فأَخبَرَهُ، فَقَالَ: «ما أُحِبُّ أَنِّي بَعثتُ إِلَيهِم غَيرَكَ»، ثُمَّ قالَ لَـهُ: «كَيفَ فَطِنتَ لِهامان؟» فَقَالَ: «تَخَوَّفتُ إن ذَكَرتُ فِرعَـونَ أَن يَقُولُوا: قَد لَعَنَّاهُ، فَإنَّهُ مَلعونٌ خَبيثٌ»[1].

- وكذلك جاء الضحاك الشاري -وهو من الخوارج- إلى أبي حنيفة رحمه الله فقال: تب.

قال: «مم أتوب؟».

قال: من قولك بتجويز الحكمين.

قال أبو حنيفة: «تقتلني أو تناظرني؟».

قال: أناظرك.

قال: «فإن اختلفنا في شيء مما تناظرني عليه، فمن يحكم بيني وبينك؟».

قال: اجعل مَن شئت.

قال أبو حنيفة لرجل من أصحاب الضحاك الشاري: «اقعد فاحكم بيننا فيما اختلفنا فيه».

ثم قال للضحاك: «أترضى هذا بيني وبينك حكماً؟».

قال: نعم.

قال أبو حنيفة: «فأنت جوزت التحكيم».

فانقطع وسكت، ولم يستطع أن يرد[2].

- وناظر سنيٌّ أحد القدرية، فقال السنّي للقدريّ: «بلغني أن أناساً في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم يقال هم القدرية كانوا يسرقون نعال الصحابة!»

(١) كتاب المحاربة من موطأ ابن وهب (ص١٦).

(٢) الانتقاء - لابن عبد البر (ص١٥٩).

فقال القدري: ومتى كان القول بالقدر في عهد النبي ﷺ؟ فالقدرية لم يظهروا إلا بعد النبي ﷺ؟

فقال له: «إذا كان قولكم هذا غير موجود في عهد النبي ﷺ، فمن أين أتيتم به؟!»

- وقال الحافظ الذهبي رحمه الله:

«سارَ القاضِي أبو بَكرٍ الباقِلّانيّ رسولاً عَن أمِيرِ المُؤمِنِينَ إلى طاغيَةِ الرُّومِ، فقالَ لراهبهم: «كَيفَ الأَهلُ والأَولادُ؟» فقالَ المَلِكُ: مَه! أما علِمتَ أنَّ الرّاهبَ يتنزّه عَن هذا؟ فقالَ: «تُنَزِّهُونه عن هذا، ولا تنزهون رب العالَمِينَ عَنِ الصّاحبَةِ والولَدِ!».

وَقِيلَ: إنَّ الطّاغيَةَ سألَه: كَيفَ جَرَى لزَوجَةِ نَبيِّكُم؟ يَقصِدُ تَوبِيخاً، قال: «كَما جَرَى لمَريَمَ بِنتِ عِمران، وَبَرّأَهُما اللهُ، لَكِنّ عائِشَةَ لَم تَأتِ بِوَلَدٍ». فأَفحَمَهُ»[1].

وبالجملة: فإن الجدال لإسكات أهل الباطل، والرد على النصارى وغيرهم من أهل الكفر، من الواجبات على المسلمين، ولا يجوز لمسلم أن يُعرَض الكفر أمامه، ويسكت.

* * *

(١) سير أعلام النبلاء (١٣/ ١٢).

أضرار المراء والجدال المذمومين

إن الشرع الحكيم لا ينهى عن شيء إلا وفيه ضرر على العباد، في العاجل والآجل، ومن ذلك المراء والجدال بالباطل، فهي سبب لكثير من المضار والمفاسد، ومن أبرزها ما يأتي:

حرمان الخير العظيم:

قال الأوزاعي رحمه الله: «إذا أراد الله بقوم شراً ألزمهم الجدل، ومنعهم العمل»[1].

وقال معاوية بن قرة رحمه الله: «إياكم وهذه الخصومات؛ فإنها تحبط الأعمال»[2].

حرمان العلم:

ألم تعلموا أن ليلة القدر قد رُفع علمها بسبب المراء والمجادلة؟!

فعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج يخبر بليلة القدر، فتلاحى رجلان من المسلمين فقال: «**إِنِّي خَرَجْتُ لِأُخْبِرَكُمْ بِلَيْلَةِ القَدْرِ** -أي بتعيين ليلتها-، **وَإِنَّهُ تَلَاحَى فُلَانٌ وَفُلَانٌ، فَرُفِعَتْ، وَعَسَى أَنْ يَكُونَ خَيْراً لَكُمْ، التَمِسُوها فِي السَّبْعِ، وَالتِّسْعِ، وَالخَمْسِ**»[3].

تلاحى فُلانٌ وَفُلانٌ: تنازعا وتخاصما، وحضر معهما الشيطان، فلذلك نُسِّي النبي صلى الله عليه وسلم تعيين هذه الليلة.

فالحديث دليل على أن المخاصمة مذمومة، وأنها سبب في العقوبة، والحرمان من

(١) اعتقاد أهل السنة للالكائي (٢٩٦).

(٢) اعتقاد أهل السنة (٢٢١).

(٣) رواه البخاري (٤٩).

الخير، وقد كانت هذه الخصومة وهذه الملاحاة ورفع الصوت في المسجد، وبحضرة النبي ﷺ.

وعن يونس قال: كتب إليَّ ميمون بن مهران: «إيَّاكَ والخُصُومَةَ والجِدالَ في الدِّينِ، وَلا تُجادِلَنَّ عالِمًا، وَلا جاهِلًا؛ أمّا العالِمُ فَإِنَّهُ يَخْزُنُ عنكَ عِلمَهُ، وَلا يُبالِي ما صَنَعتَ، وَأَمّا الجاهِلُ، فَإِنَّهُ يُخَشِّنُ بِصَدرِكَ وَلا يُطِيعُكَ»[1].

هلاك الأمم

فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: **«دَعُونِي ما تَرَكتُكُم، إِنَّما هَلَكَ مَن كانَ قَبلَكُم بِسُؤالِهِم واختِلافِهِم عَلَى أَنبِيائِهِم، فَإِذا نَهَيتُكُم عَن شَيءٍ فاجتَنِبُوهُ، وَإِذا أَمَرتُكُم بِأَمرٍ فَأْتُوا مِنهُ ما استَطَعتُم»**[2].

وقال عمر رضي الله عنه لزياد بن حدير: «هل تعرف ما يهدم الإسلام؟» قال: لا، قال: «يهدمه زلة العالم، وجدال المنافق بالكتاب، وحكم الأئمة المضلين»[3].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «إنما هلك من كان قبلكم بالمراء، والخصومات في الدين»[4].

يورث الضغائن وقسوة القلوب:

قال الشافعي رحمه الله: «المراء في العلم يقسّي القلب، ويورث الضغائن»[5].

وكثيرٌ من الناس هجر بعضهم بعضاً بسبب الجدال، فلا يكلم بعضهم بعضا، ولا يزور بعضها بعضا، وذلك بسبب اللدد والمناقشة والجدال والخصومة التي حصلت في المجلس، فانتهى بالافتراق، وابتعاد القلوب بعضها عن بعض، ولذلك كان السلف يحذِّرون منه، قال

(١) سنن الدارمي (٣٠٢)

(٢) رواه البخاري (٧٢٨٨)، ومسلم (١٣٣٧)، واللفظ للبخاري

(٣) سنن الدارمي (٢١٤)، وصححه الألباني في تخريج المشكاة (١/ ٨٩)

(٤) تفسير الطبري (٩/ ٣٢٢)

(٥) شعب الإيمان (٨٤٨٨)

ابن عباس رضي الله عنهما: «كفى بك ظلماً أن لا تزال مخاصماً، وكفى بك إثماً أن لا تزال ممارياً»[1].

وقال محمد بن علي بن الحسين رحمه الله: «الخصومة تمحق الدين، وتنبت الشحناء في صدور الرجال»[2].

وقال عبد الله بن الحسن رحمه الله: «المراء يفسد الصداقة القديمة، ويحل العقدة الوثيقة، وأقل ما فيه أن تكون المغالبة، والمغالبة أمتن أسباب القطيعة»[3].

وقال إبراهيم النخعي رحمه الله في تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ [المائدة: ٦٤] قال: «الخصومات، والجدال في الدين»[4].

حرمان التوفيق:

لأن الله لا يوفق أصحاب المجالس التي تقع فيها هذه المجادلات، التي لا يراد بها وجه الله

انشغال القلب عن الله:

فأقل ما في هذه الخصومات التي ليست لوجه الله: أنها تشغل الإنسان حتى في صلاته، ويبقى خاطره معلقاً بها.

قال بعض السلف: «ما رأيت شيئاً أذهب للدين، ولا أنقص للمروءة، ولا أضيع للذة، ولا أشغل للقلب؛ من الخصومة»[5].

مدعاة للزلل:

قال مسلم بن يسار رحمه الله: «إياكم والمراء، فإنه ساعة جهل العالم، وبها يبتغي الشيطان زلته»[6].

---

(١) تاريخ دمشق (١٠/ ٨٠).
(٢) بهجة المجالس (ص٩٣).
(٣) تاريخ دمشق (٢٧/ ٣٨٠).
(٤) تفسير ابن كثير (٢/ ١٠٤).
(٥) تاريخ دمشق (١٠/ ٢٩٧).
(٦) سنن الدارمي (٣٩٦)، حلية الأولياء (٢/ ٢٩٤).

ذهاب الكرامة.

قال بعض الأعراب: «من لاحى الرجال وماراهم قلَّت كرامته، ومن أكثر من شيء عُرف به»[1].

ومما ينسب للشافعي رحمه الله:

قالوا سَكتَّ وَقدْ خُوصِمتَ، قُلتُ لهُم ... إنَّ الجَوابَ لِبابِ الشَّرِّ مِفتاحُ
والصَّمتُ عَن جاهِلٍ أَو أَحمَقٍ شَرَفٌ ... وَفيهِ أَيضاً لِصَونِ العِرضِ إِصلاحُ
أَما تَرى الأُسدَ تُخشَى وَهيَ صامِتَةٌ ... والكلبُ يُخشَى لَعَمري وَهوَ نَبّاحُ[2]

ظهور البدع واتباع الهوى.

قال عمر بن عبد العزيز رحمه الله: «من جعل دينه غرضاً للخصومات أكثر التنقل»[3].

يعني من بدعة إلى بدعة، ومن مزلق إلى مزلة، وهكذا.

وقيل للحكم بن عتيبة الكوفي رحمه الله: ما اضطر الناس إلى هذه الأهواء أن يدخلوا فيها؟[4] قال: «الخصومات»[5].

أي: لما فتحوا باب الخصومات على أنفسهم، كان لزاماً عليهم أن يدخلوا في هذه العقائد الباطلة.

وقال خالد بن برمك: «من استطاع أن يمنع نفسه من أربعة أشياء فهو خليق أن لا ينزل به كثير مكروه: العجلة، واللجاجة، والعُجب، والتواني؛ فثمرة العجلة الندامة، وثمرة اللجاجة الحيرة، وثمرة العجب البغضة، وثمرة التواني الذل»[6].

(١) الآداب الشرعية (١/ ١٨).
(٢) حسن السمت في الصمت (ص٢٦).
(٣) السنة لعبد الله بن أحمد (١٠٣)، سنن الدارمي (٣٠٤).
(٤) أي: لماذا دخلوا في البدع؟
(٥) شرح اعتقاد أهل السنة للالكائي (١/ ٢١٥).
(٦) روضة العقلاء (ص٢١٧).

وسُئل سهل بن عبد الله رحمه الله: مَتى يَعلَمُ الرَّجُلُ أنَّهُ عَلَى السُّنَّةِ والجماعَةِ؟ «قال: «إذا عَرَفَ من نفسِهِ عَشرَ خِصالٍ: لا يَترُكُ الجماعةَ، وَلا يَسُبُّ أصحابَ النَّبِيِّ ﷺ، ولا يَخرُجُ عَلَى هَذِهِ الأُمَّةِ بِالسَّيفِ، وَلا يُكَذِّبُ بِالقَدَرِ، وَلا يَشُكُّ في الإيمانِ، وَلا يُماري في الدِّينِ، ولا يَترُكُ الصَّلاةَ عَلَى مَن يَمُوتُ مِن أَهلِ القِبلَةِ بِالذَّنبِ، وَلا يَترُكُ المَسحَ عَلَى الخُفَّينِ، وَلا يَترُكُ الجماعَةَ خَلفَ كُلِّ والٍ، جارَ أو عَدَلَ»[1].

* * *

(١) اعتقاد أهل السنة (٣٢٤)

مماراة العلماء

هناك أناس يجدلون في القضايا العلمية، يريدون المنازعة في مجالس العلماء، وطلبة العلم؛ ليُظهروا علمهم، ويظهروا قدراتهم الجدلية، ويستعرضوا إمكاناتهم اللسانية.

وهذا أمر مذموم شرعاً؛ فعن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**لا تَعَلَّمُوا العِلمَ لِتُباهُوا بِهِ العُلَماءَ، وَلا لِتُماروا بِهِ السُّفَهاءَ، وَلا تَخَيَّرُوا بِهِ المَجالِسَ، فَمَن فَعَلَ ذَلِكَ: فالنَّارُ النَّارُ**»[1].

وفي الحديث الآخر: عن كعب بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**مَن طَلَبَ العِلمَ لِيُجارِيَ بِهِ العُلَماءَ، أَو لِيُمارِيَ بِهِ السُّفَهاءَ، أَو يَصرِفَ بِهِ وُجُوهَ النَّاسِ إِلَيهِ؛ أَدخَلَهُ اللهُ النَّارَ**»[2].

فلابد من الحذر من التعلم للمجادلة، ولابد من الحذر من مجادلة العلماء.

وهناك أناس همُّهم المجادلة مع العلماء وطلبة العلم، كأنه يقول: أنا أعرف القاعدة الفلانية، والدليل الفلاني، وكلام العالم الفلاني...، ولذلك تجد بعض هؤلاء يسأل الشيخ، والشيخ يجيب، فيقول: يا شيخ، هذه قال فيها فلان كذا؟ وقال فيها فلان كذا؟ وقال فيها فلان كذا؟

فإذا كان يعرف كل هذا؛ فلماذا يسأل إذن؟!

(١) رواه ابن ماجة (٢٥٤)، وصححه الألباني.

(٢) رواه الترمذي (٢٦٥٤)، وحسنه الألباني.

ومثل هذا لا يَدرُس ويقرأ ابتغاء وجه الله، وإنما يفعل ذلك إرادة الظهور، والمرور، واللمعان في المجالس.

يريد به أن يذكر اسمه، وأن يشار إليه بالبنان، وأن يقال: حافظ، وطالب علم، ومناقش عنده حجة، ونحو ذلك.

***

الخاتمة

إذا أردت أن لا نقع في الجدال والمراء المذمومين فعلينا أن نتمسك بهذا الدين القويم؛ لأن من عقوبات الله لمن ترك دينه: أن ينشر فيهم المراء والجدال.

فعن أبي أمامة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**ما ضَلَّ قومٌ بعدَ هُدًى كانُوا عَلَيهِ إلَّا أُوتُوا الجَدَلَ**» ثم تلا النبي صلى الله عليه وسلم هذه الآية: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ [الزخرف: ٥٨][1].

(إلا أوتوا الجدل) يعني: انتقم الله منهم وعاقبهم بأن أعطاهم الجدل بدل العلم الذي أعرضوا عنه، وأعطاهم الخصومة بالباطل واللجج والمهارة بلا فائدة، أي: لما تركوا العلم النافع ظهر الجدل.

وهذه قاعدة: فأي قوم يتركون العلم النافع علم الكتاب والسنة؛ يعاقبون بانتشار الجدل والخصام فيهم.

اللهم أرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله، وصحبه أجمعين.

***

(١) رواه الترمذي (٣٢٥٣)، وحسنه الألباني.

اختبر فهمك

فيما يلي مستويان من الأسئلة حول الموضوع: أسئلة حلولها مباشرة، وهي أسئلة المستوى الأول.

وأسئلة تحتاج إلى بحث وتأمل، وهي أسئلة المستوى الثاني.

أسئلة المستوى الأول (المباشرة):

١. عرف الجدال والمراء.

٢. ما الفرق بين الجدال والمراء؟

٣. للمراء والجدال أسباب، اذكر أبرزها.

٤. ما هي شروط الجدال المحمود؟

٥. ما هي أنواع الجدال؟ واذكر مثالا لكل نوع منها.

٦. ما المفاسد والأضرار الناجمة عن الجدال والمراء؟

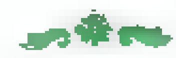
أسئلة المستوى الثاني (الاستنباطية):

١. ما المقصود بالمراء في القرآن الكريم؟

٢. ما معنى قوله ﷺ: «اقرؤوا القرآن ما ائتلفت قلوبكم، فإذا اختلفتم فقوموا عنه»؟

٣. ما معنى قوله ﷺ: «ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل»؟

٤. قال الله تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ﴾ فما معنى قوله تعالى: ﴿إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾؟.





الكبر



مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، نبينا محمد، وعلى آله، وأصحابه أجمعين.

أما بعد:

فإن الكبر والعجب من أدواء النفس الخطيرة، التي تمثل انحرافاً خُلقيا، يجنح بالإنسان عن سبيل الهدى والحق، إلى سبل الردى والضلال؛ وذلك لأنه متى نفخ الكبر والعجب بالنفس في أنف المستكبر المغرور، واستوليا على عقله وإرادته، ساقاه بعنف شديد، وتمرد لئيم إلى بطر الحق، وردّه، وطمس معالمه، ثم إلى انتحال صور من الباطل، يعمل على تزيينها وتحسينها بالأقوال المزخرفة التي لا حقيقة لها، ويتبع ذلك غمط الناس واحتقارهم، صغاراً وكباراً – والعياذ بالله تعالى.

وسنتعرّض في هذا الفصل لبيان معنى الكبر، والفرق بينه وبين العُجب، وخطورته، ومظاهره، وأسبابه، وبعض آثاره، ونختم بالعلاج

ولا يفوتني أن أشكر كل من ساهم في إعداد هذه المادة، وإخراجها بالصورة المرضية.

نسأل الله تعالى العفو، والعافية، والمعافاة الدائمة، في الدين، والدنيا، والآخرة

وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله، وصحبه أجمعين.

***

تعريف الكبر

لغةً:

قال ابن فارس: «الكِبْرُ: العظمة، وكذلك الكبرياء، يقال: ورثوا المجد كابراً عن كابر، أي كبيراً عن كبير في الشرف والعز»[1]، وذكر ابن منظور: «أن الكِبر والكبرياء: العظمة والتجبُّر...، وقد تكبَّر واستكبَرَ وتكابر، وقيل: تكبَّرَ من الكِبر، وتكابر من السِّنِّ، والتكبُّرُ والاستكبار: التَّعظُّم»[2].

شرعاً:

عرفه النبي ﷺ؛ فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**لا يَدخُلُ الجَنَّةَ مَن كانَ في قَلبِهِ مِثقالُ ذَرَّةٍ مِن كِبرٍ**» قال رجلٌ: إنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أن يكُونَ ثوبُهُ حَسَناً، ونَعلُهُ حَسَنةً، قال: «**إنَّ الله جَميلٌ يُحِبُّ الجَمالَ، الكِبرُ بَطَرُ الحَقِّ، وَغَمطُ النّاسِ**»[3].

فعرّف النبي ﷺ الكبر بشقين هامين:

الأول: «بطر الحق» يعني جحود الحق مع الاستهانة به، والاستعلاء عن قبوله.

إننا نجد كثيراً من الناس، إذا عَرَض عليهم مَن دونهم في المكانة أو السن أمراً هو حق لا شك فيه، ولكنه جاء مخالفاً لرأيهم، أو لما كانوا قرروه أو عملوا به: جحدوه، وأنكروه، واستصغروا صاحبه، وأصروا على مخالفته، وربما كانت مصلحتهم الخاصة في جانب الحق، لا في جانب الباطل الذي أصروا عليه.

(١) معجم مقاييس اللغة (٥/ ١٥٤).

(٢) لسان العرب (٥/ ١٢٥).

(٣) رواه مسلم (٩١).

هـذا الصنف من النـاس موجود بكثرة، خاصة في المجتمعات الصغيرة في الأسرة، وفي المدرسة، وفي العمل، وبين الزملاء.

إن المحـذور الذي يخشـاه هذا المتكبر إذا هـو قبِل الحقَّ الصادرَ من غـيره: أن ينال المجدَ غيرُه، فيكبرَ عند الناس، وينازعه المكانةَ التي يطلبها لنفسه؛ لأنه يخشى أن يكون تابعاً لغيره.

ولو عقل هذا المستكبر وتبصر؛ لعلم أن مكانته ومنزلته هي في اتباع الحق، لا في التمادي في الباطل.

كتـب عمر بن الخطـاب رضي الله عنه إلى أبي موسـى الأشـعري رضي الله عنه: «لا يمنعـنّـك قضاءٌ قضيتـه بالأمـس، وراجعـت فيه نفسـك، فهُديت فيه لرشـدك، أن تراجع الحـق؛ فإن الحق قديم، ومراجعة الحق خير من التمادي في الباطل»[1].

وقـال عبـد الرحمن بن مهـدي رحمه الله: «كنا في جنـازة فيهـا عبيد الله بن الحسـن وهو على القضـاء، فسُئل عن مسـألة، فغلط فيهـا، فقلت: أصلحـك الله، القول في هذه المسـألة كذا وكذا، فأطرق سـاعة، ثم رفع رأسـه، فقال: إذن أرجع وأنا صاغر، إذن أرجع وأنا صاغر، لأن أكون ذنَبا في الحق، أحبُّ إليَّ من أن أكون رأساً في الباطل»[2].

الثـاني: (غمط الناس)، والغمط: هو الاحتقار والازدراء والاسـتصغار، فغمط الناس هـو احتقارهم واسـتصغارهم والازدراء بهم، والترفع عن الثناء عليهـم بفضائلهم، وعدم الاعتراف بحقوقهم، وصفاتهم الفاضلة.

ويصـل طغيـان هذا الغمـط إلى أقصى مداه عندما يحاول هدم فضائـل النـاس، وطمس كمالهم، وتحقيرهم وتصغيرهم بالكذب والبهتان؛ بُغية احتفاظ المتكبر بالمكانة العالية لنفسه دون الآخرين.

فالمتكـبر إذا لم يسـتطع أن يحتـي مكانة المجـد بكمالاته، فإنـه يحـاول أن يحتليها بتحطيم كمالات الآخرين، والحطّ من مكانتهم

(١) رواه الدارقطني (٤/ ٢٠٦).

(٢) تاريخ بغداد (١٠/ ٣٠٨).

الفرق بين الكبر والعجب

قال أبو وهب المروَزي رحمه الله: سألت ابن المبارك: ما الكبر؟ قال: «أن تزدري الناس».

فسألته عن العُجب؟ قال: «أن ترى أن عندك شيئاً ليس عند غيرك، لا أعلم في المصلين شيئاً شراً من العُجب»[1].

* * *

(١) سير أعلام النبلاء (٨/ ٤٠٧).

أسباب الكبر

يشعر المتكبّر بالاستعلاء الذاتي على الأقران، وبالتميز على الآخرين، وبالرغبة الجامحة بعدم الخضوع لأحد.

ويمكن حصر أسباب الكبر فيما يلي:

١. الرغبة في عدم الخضوع لأحد:

تتنامى هذه الرغبة في نفس المتكبّر، حتى يصل به الحال إلى التمرد على طاعة الله، الذي بيده مقاليد السموات والأرض، وهو على كل شيء قدير.

ومع هذه الرغبة يأتي شعور المستكبر باستغنائه؛ فيتولد منه الطغيان، ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ٦ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ﴾ [العلق: ٦-٧].

قال البغوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أي: إن الإنسان يتجاوز حده، ويستكبر على ربه؛ لأنه رأى نفسه غنياً»(١).

٢. الطموح الجامح إلى الامتياز على الآخرين:

المستكبر يجد أن مِن حقه على المجتمع أن يمنحه الامتياز والتفوق، وأن يعترف له به.

فإن لم يعترف المجتمع له بذلك، سوّلت له نفسه أنه يستطيع أن ينال ما يطمح إليه عن طريق الاستكبار.

٣. الرغبة في إخفاء المستكبر ما يشعر به من نقص في ذاته أو عمله

المستكبر حريص أن يكون في أعين الناس كبيراً، وألا يكتشفوا نقصه، ثم هو باستكباره

---

(١) معالم التنزيل (٨/ ٤٧٩) بتصرف.

يفضح نفسه، ويدلّ الناس على عوراته؛ إذ يوجّه أنظار الناس إليه، باحثين عن حقيقة حاله، فيكتشفون أمره، ويستبينون نقصه، فيحتقرونه، ويستصغرونه.

ولقد كان باستطاعته أن يستر عيوب نفسه بالتواضع، ولين الجانب، والتحبب إلى الناس، والصمت عما يجهل، والاعتذار عما لا يُحسن، والبعد عن التحديات، وعن الادعاءات الباطلة.

٤. مبالغة الآخرين في التواضع:

قد يكون الباعث على الكِبر، مبالغة الآخرين في التواضع، وهضم النفس، والعزوف عن التقدم لتحمل المسئولية، أو تحمل الأمانة، فيرى المتكبر أن عزوف الناس عن ذلك إنما هو لإقرارهم بفضله عليهم، فلا يزال به الشيطان حتى يرى نفسه فوق الجميع، فيحتقرهم، فيقع في الكبر.

٥. اختلال القيم ومعايير التفاضل عند الناس:

من أسباب الكبر الباعثة عليه اختلال معايير التفاضل عند الناس، فتراهم يقدّمون الغني صاحب الجاه، ولو كان عاصيا فاسقا، ويؤخّرون التقيّ النقيّ؛ لفقره وعدم وجاهته، فيكون ذلك سببا في تقديم من لا يستحق التقديم، فيقع في احتقار الآخرين، والترفع عليهم.

وقد أوضح النبي ﷺ ذلك بمثال عملي مع أصحابه رضي الله عنهم، معلنا رفضه المطلق هذا المعيار، عند تقديم الناس، أو تأخيرهم.

فعن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه قال: مَرَّ رجل على رسول الله ﷺ فقال: «**ما تَقُولُونَ في هَذا؟**»، قالوا: حَرِيٌّ إن خطب أن يُنكَحَ، وَإِن شفع أن يُشَفَّعَ، وإن قال أن يُستَمَعَ، قال: ثم سكت، فَمَرَّ رَجلٌ من فقراء المسلمين، فقال: «**ما تَقُولُونَ في هَذا؟**» قالوا: حَرِيٌّ إن خطب أن لا يُنكَحَ، وَإِن شفع أن لا يُشفَّعَ، وإن قال أن لا يُستَمَعَ، فقال رسول الله ﷺ: «**هَذا خَيرٌ مِن مِلءِ الأَرضِ مِثلَ هَذا**»[1].

---

(١) رواه البخاري (٥٠٩١).

٦ ـ مقارنة نعمته بنعمة الآخرين، ونسيان المنعم سبحانه وتعالى:

مِن أسباب الكبر: أن ينظر الإنسان إلى النعم التي أنعم الله بها عليه، ويقارن نفسه بالآخرين الذين منعهم الله تلك النعم؛ لِحِكَمٍ يعلمها سبحانه وتعالى، فيرى أنه أهلٌ لتلك النعم، وأنها وصلت إليه لاستحقاقه لها، فينظر لنفسه نظرة المعظِّم، ويحتقر الآخرين الذين يراهم ليسوا أهلاً لتلك النعم

❊ ❊ ❊

بماذا يحصل الكبر؟

النعم التي يتكبر بها أصحابها كثيرة، منها:

• **المال**

قال الله تعالى عن صاحب الجنتين: ﴿ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴾ [الكهف: ٣٤]، وقال: ﴿ إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [القصص: ٧٦-٧٧].

وقال: ﴿ فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الزمر: ٤٩].

• **العلم:**

وما أسرعَ الكِبرَ إلى بعض المتعلمين.

فلا يلبث أن يستشعر في نفسه كمال العلم؛ فيستعظم نفسه، ويحتقر الآخرين، ويستجهلهم.

وسبب كبره بالعلم أمران:

أحدهما: أن يكون اشتغاله بما يُسمَّى علماً وليس علماً في الحقيقة، فإن العلم الحقيقي هو ما يعرف به العبدُ ربَّه ونفسه، وهذا يورث الخشية والتواضع دون الكبر، قال الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ﴾ [فاطر: ٢٨].

ثانيها: أن يخوض في العلم وهو خبيث النفس، سيء الأخلاق، فهذا إذا حفظ شيئاً من العلم وجد ما يتكبر به؛ فازداد تكبُّراً وتيهاً.

كما قال المعري - العاري عن الفضائل - يمدح نفسه:

وإني وإن كنتُ الأخيرَ زمانُهُ لآتٍ بما لم يأتِ به الأوائلُ[1]

ومن الكبر: ما يفعله بعض صغار طلبة العلم، حيث يجعل نفسه نداً للعلماء، فيقول: هم رجال، ونحن رجال !!

قال أيوب العطار رحمه الله: سمعت بشر بن الحارث يقول: (حدثنا حماد بن زيد) ثم قال: «أستغفر الله، إنّ لِذِكرِ الإسناد في القلب لخيلاء»[2].

• العمل والعبادة:

فبعض الناس يتكبر بعبادته، فيرى حقاً على الناس أن يقدموه، ويذكروه بالورع والعبادة، ويرى الناس هالكين، ويرى نفسه ناجياً.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إذا قالَ الرَّجُلُ: هَلَكَ النّاسُ، فَهُوَ أَهلَكُهُم»[3].

قال النووي رحمه الله: «قوله صلى الله عليه وسلم: «إذا قالَ الرَّجُلُ: هلَكَ النّاس فَهُوَ أَهلَكُهُم» رُوِيَ (أَهلَكَهُم) على وجهين مشهورين: رفع الكاف وفتحها، والرفع أشهر ... ومعناها: أشدهم هلاكاً، وأما رواية الفتح، فمعناها: هو جعلهم هالكين، لا أنهم هلكوا في الحقيقة، واتفق العلماء على أن هذا الذم إنما هو فيمن قاله على سبيل الإزراء على الناس، واحتقارهم، وتفضيل نفسه عليهم، وتقبيح أحوالهم، لأنه لا يعلم سرّ الله في خلقه، قالوا: فأما من قال ذلك تحزُّناً لِما يَرى في نفسه وفي الناس من النَّقص في أمر الدين: فلا بأس عليه، كما قالت أم الدرداء رضي الله عنها: دخل عليَّ أبو الدرداء وهو مغضب فقلت: ما أغضبك؟ فقال: «والله ما

(١) وفيات الأعيان لابن خلكان (١/ ٤٥٠).

(٢) سير أعلام النبلاء (٧/ ٤٦١).

(٣) رواه مسلم (٢٦٢٣).

أعـرف من أمة محمد ﷺ شـيئا إلا أنهم يصلُّون جميعـ»[١]. هكذا فسره الإمام مالك، وتابعه الناس عليه»[٢].

قـال ابن الجوزي رحمه الله «وبعـض المتزهدين عنده غفلة، يكاد يوطّن نفسـه على أنه ولي محبـوب ومقبـول، وربما احتقر غيره، وظنّ أن محنته محفوظة به، تغرّه ركيعات ينتصب فيها، أو عبدة ينتصب بها، وربما ظن أنه قطب الأرض، وأنه لا ينال مقامَه بعده أحد»[٣].

روى الخطـابي رحمه الله في كتابـه (العزلـة): أن عبـد الله بن المبـارك قدم خراسـان، فقصد رجلا مشـهورا بالزهد والورع، فلما دخل عليه لم يلتفت الرجل إليه، ولم يأبه به، فخرج من عنـده عبـد الله بن المبارك، فقال له بعض مَن عنده: أتدري من هذا؟ قال: لا، قال: هذا أمير المؤمنـين في الحديث، هذا عبد الله بن المبارك! فَبُهِـتَ الرجل، وخرج إلى ابن المبارك مسرعاً يعتذر إليه، ويتنصل مما حدث قائلاً: يا أبا عبد الرحمن، اعذرني، وعظني!

قال بن المبارك: «نعم، إذا خرجت من منزلك فلا يقع بصرك على أحد إلا رأيت أنه خير منك». وذلك أنه رآه معجباً بنفسه[٤].

وأما السـلف الصالح فكان أحدهم يقول «نظرت إلى أهل عرفات، فظننت أنهم غُفِر لهم، لولا أني كنت فيهم»[٥].

والمؤمن لا يزال يحتقر نفسـه وعمله، قيلَ لِعُمَرَ بنِ عَبدِ العَزِيزِ: يا أَمِيرَ المُؤمِنِينَ لو أَتَيتَ المَدِينةَ، فَإِن قَضَى اللهُ مَوتاً دُفِنتَ في مَوضِعِ القَبرِ الرّابعِ مَعَ رَسُـولِ الله ﷺ وأبي بَكرٍ وعُمَـرَ. قـالَ: «والله لأَن يُعَذِّبَنِي اللهُ بِكُلِّ عَذابٍ إلا النّارَ فإنّي لا صَبرَ لِي عَلَيهِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِن أَن يَعلَمَ اللهُ مِن قَلبِي أَنّي أَرانِي لِذَلِكَ أَهلاً»[٦].

(١) رواه البخاري (٦٢٢)
(٢) شرح النووي على مسلم (١٦/ ١٧٥)
(٣) صيد الخاطر (ص١٣٥)
(٤) العزلة (ص٢٢٠)
(٥) رواه البيهقي في شعب الإيمان (٨٢٥٢) عن بكر بن عبد الله المزني
(٦) الطبقات الكبرى (٥/ ٣١٦)

• النسب

بعض من له نسب شريف يحتقر مَن دونه في النسب، وقد يتكبر ويأنف من مخالطة الناس ومجالستهم، وقد يجري هذا الكبر والتفاخر على لسانه، فيقول لمَن يخاطبه: مَن أنت؟ ومَن أبوك؟ ومَع مثلي تتكلم؟!!

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: كان عمر رضي الله عنه يقول: «أبو بكر رضي الله عنه سيدنا، وأعتق سيدنا»[1] يعني بلالاً رضي الله عنه.

عن المَعْرُورِ بن سويد رحمه الله قال: رأيت على أبي ذر رضي الله عنه بُرداً وعلى غلامه بُرداً، فقُلت: لو أخذت هذا فلبسته كانت حلة، وأعطيته ثوباً آخر. فقال: كان بيني وبين رجل كلام، وكانت أمه أعجمية، فنلت منها، فذكرني إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فقال لي: **«أَسَابَبْتَ فُلاناً؟»** قلت: نعم، قال: **«أَفَنِلْتَ مِن أُمِّهِ؟»** قلت: نعم، قال: **«إِنَّكَ امرُؤٌ فيكَ جاهِلِيَّةٌ»**، قلت: على حين ساعتي هذه من كبر السن؟! قال: **«نَعَم، هُم إخوانُكُم، جَعَلَهُم الله تَحتَ أَيدِيكُم، فَمَن جَعَلَ الله أَخاهُ تَحتَ يَدِهِ فَلْيُطعِمهُ مِمّا يَأكُلُ، وَلْيُلبِسهُ مِمّا يَلبَسُ، وَلا يُكَلِّفُهُ مِنَ العَمَلِ ما يَغلِبُهُ، فَإِن كَلَّفَهُ ما يَغلِبُهُ: فَلْيُعِنهُ عَلَيهِ»**[2].

قال ابن حجر رحمه الله: «قوله: «هُم إخوانكم» أي العبيد، أو الخدم، حتى يدخل من ليس في الرق منهم... ويؤخذ منه المبالغة في ذم السب واللعن؛ لما فيه من احتقار المسلم، وقد جاء الشرع بالتسوية بين المسلمين في معظم الأحكام، وأن التفاضل الحقيقي بينهم إنما هو بالتقوى، فلا يفيد الشريف النسب نسبه إذا لم يكن من أهل التقوى، وينتفع الوضيع النسب بالتقوى؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]»[3].

وقال في موضع آخر: «قوله: «إنك امرؤٌ فيك جاهليَّة» أي: خصلة من خصال الجاهلية، ويظهر لي أن ذلك كان من أبي ذر رضي الله عنه قبل أن يعرف تحريمه، فكانت تلك الخصلة من خصال الجاهلية باقية عنده، فلهذا قال: «قلت: على ساعتي هذه من كبر

(١) رواه البخاري (٣٧٥٤).

(٢) رواه البخاري (٦٠٥٠)، ومسلم (١٦٦١).

(٣) فتح الباري (١٠/٤٦٨).

السن؟ قال: نَعَم» كأنه تعجب من خفاء ذلك عليه مع كبر سنه، فبيّن له كَونَ هذه الخصلة مذمومة شَرعاً»[1].

***

(١) فتح الباري (١/ ٨٧).

أمثلة من المتكبرين الذين صرفهم الكبر عن اتباع الحق

- **إبليس:**

الكبر هو الباعث لإبليس على الكفر، والتمرد على أمر ربه:

قال الله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ۖ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ ۖ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [ص: ٧١-٨٧].

- **فرعون وجنوده:**

وكذلك فرعون وجنوده: كان الكبر هو الباعث على كفرهم، قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِي ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ﴾ [القصص: ٣٨-٤٢].

• **ثمود قوم صالح** عليه السلام

قال الله تعالى: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ [الأعراف: ٧٥-٧٦]

• **عاد قوم هود** عليه السلام:

قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾ [فصلت: ١٥-١٦].

• **قوم شعيب** عليه السلام:

قال الله تعالى: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ﴾ [الأعراف: ٨٨].

• **قوم نوح** عليه السلام:

قال الله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّى دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّىٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾﴾ [نوح: ٥-٩].

• **بنو إسرائيل:**

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ٨٧-٨٨].

• **مشركو العرب.**

قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ

وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ ۗ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا (٢٠) وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٢٠، ٢١].

* * *

آثار الكبر على السلوك

للكبر آثار سيئة على سلوك المستكبر، فمن هذه الآثار:

الاستكبار عن الإيمان بالله، وعبادته، وطاعته:

قال الله تعالى: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ ۖ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٧٢-١٧٣].

وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ [الأعراف: ٤٠-٤١].

تصعير الخد للناس، ومشية الخيلاء:

من وصايا لقمان الحكيم لابنه: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [لقمان: ١٨]، وتصعير الخد للناس: هو إمالة الوجه عنهم على سبيل الاستكبار.

والمشي في الأرض مرحاً: هو المشي بطراً وكبراً.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ أي مستكبر على الناس، متعاظم عليهم.

﴿فَخُورٍ﴾ بنفسه، أو قوته، أو ماله، أو ذكائه، ونهى الله تعالى عن المشي في الأرض تكبراً، فقال: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾ [الإسراء: ٣٧]

وإذا كان من سلوك المتكبرين المشي في الأرض مرحاً، فمن صفات عباد الله: المشي في الأرض تواضعاً، ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ [الفرقان: ٦٣].

وكان السلف يتحفّظون في مشيتهم؛ فعن خالد بن معدان عن عمرو بن الأسود العنسي، أنه كان إذا خرج من المسجد قبض بيمينه على شماله، فسئل عن ذلك، فقال: «مخافة أن تنافق يدي».

قال الذهبي رحمه الله: «يمسكها؛ خوفاً من أن يخطر بيده في مشيته؛ فإن ذلك من الخيلاء»[1].

وكان علي بن الحسين رحمه الله إذا مشى لا تجاوز يده فخذيه، ولا يخطر بها[2].

إطالة الثوب، وجرّه على الأرض:

عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**لا يَنظُرُ اللهُ إلى مَن جَرَّ ثَوبَهُ خُيَلاءَ**»[3].

قال النووي رحمه الله: «قال العلماء: الخيلاء، والمخيلة، والبطر، والكبر، والزهو، والتبختر كلها بمعنى واحد، وهو حرام. ويقال: خال الرجل واختال اختيالاً: إذا تكبر»[4].

عن جابر بن سُلَيم رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله، اعهد إليّ، قال: «**لا تَسُبَّنَّ أَحَداً**»، قال: فما سببت بعده حرّاً، ولا عبداً، ولا بعيراً، ولا شاة، قال: «**وَلا تَحقِرَنَّ شَيئاً مِنَ المَعرُوفِ، وَأَن تُكَلِّمَ أَخاكَ وَأَنتَ مُنبَسِطٌ إِلَيهِ وَجهُكَ، إِنَّ ذَلِكَ مِنَ المَعرُوفِ، وارفَع إِزارَكَ إلى نِصفِ السّاقِ، فَإِن أَبَيتَ فَإِلى الكَعبَينِ، وَإِيّاكَ وَإِسبالَ الإِزارِ؛ فَإِنَّها مِنَ المَخِيلَةِ، وَإِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ المَخِيلَةَ، وَإِن امرُؤٌ شَتَمَكَ وَعَيَّرَكَ بِما يَعلَمُ فِيكَ، فَلا تُعَيِّرهُ بِما تَعلَمُ فِيهِ؛ فَإِنَّما وَبالُ ذَلِكَ عَلَيهِ**»[5].

وقد استُحدِثت الآن مظاهرُ كثيرة، دالة على الخيلاء في الثياب غير الإسبال، كأشكال

---

(١) سير أعلام النبلاء (٤/ ٨٠)، تاريخ دمشق (٤٥/ ٤١٧).

(٢) سير أعلام النبلاء (٤/ ٣٩٢).

(٣) رواه البخاري (٥٧٨٣)، ومسلم (٢٠٨٥).

(٤) شرح النووي على مسلم (١٤/ ٦٠).

(٥) رواه أبو داود (٤٠٨٤)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (١١٠٩).

الثياب، وأصنافها، وما يُبذل في الحصول عليها من أموال كثيرة؛ إسرافاً وتبذيراً، بقصد التفاخر والتعاظم والخيلاء.

يحب أن يسعى الناس إليه، ويقوموا له:

عن أبي مِجلَزٍ رَحِمَهُ اللَّهُ قال: خرج معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على ابن الزبير وابن عامر، فقام ابن عامر، وجلس ابن الزبير، فقال معاوية لابن عامر: اجلس؛ فإني سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: **«مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَتَمَثَّلَ لَهُ الرِّجالُ قِياماً، فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النّارِ»**[1].

التقعر في الحديث:

عن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: **«إِنَّ مِنْ أَحَبِّكُم إِلَيَّ، وَأَقْرَبِكُم مِنِّي مَجلِساً يَومَ القِيامَةِ أَحاسِنَكُم أَخلاقاً، وَإِنَّ أَبْغَضَكُم إِلَيَّ، وَأَبعَدَكُم مِنِّي مَجلِساً يَومَ القِيامَةِ الثَّرثارُونَ، والمُتَشَدِّقُونَ، والمُتَفَيهِقُونَ»** قالوا: يا رسول الله، قد علمنا الثرثارون والمتشدقون، فما المتفيهقون؟ قال: **«المُتَكَبِّرُونَ»**[2].

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «والثرثار: هو الكثير الكلام بتكلُّف، والمُتَشَدِّق: المتطاول على الناس بكلامه، الذي يتكلم بملء فيه؛ تفاصُحاً، وتَفَخُّماً، وتعظيماً لكلامه، والمُتَفَيهِق: أصله من الفَهَق، وهو الامتلاء، وهو الذي يملأ فمه بالكلام، ويتوسع فيه؛ تكثُّراً، وارتفاعاً، وإظهاراً لفضله على غيره»[3].

الاستهزاء، والسخرية، والهمز، واللمز، والتنابز بالألقاب:

المتكبر يرى نفسه أعلى من الناس؛ فيحتقرهم، ويسخر منهم، ويستهزئ بهم.

الغيبة:

المتكبر يريد أن يُظهر أنه أعلى من غيره، فمن وسائله لتحقيق ذلك: الغيبة، وفضح عيوب الآخرين، وكشف نقائصهم.

(١) رواه أبو داود (٥٢٢٩)، وصححه الألباني في صحيح أبي داود (٤٣٥٧).

(٢) رواه الترمذي (٢٠١٨) وحسنه.

(٣) حاشية ابن القيم على سنن أبي داود (٢/ ٤٤٥)، مدارج السالكين (٢/ ٣٠٧).

الترفع عن مجالسة الفقراء، والمساكين، والضعفة من الناس:

المتكبر يأنف من الجلوس مع من يراهم أقل منه مالاً، أو نسباً، أو طبقة اجتماعية.

وكان هذا السلوك وراء صدّ بعض المشركين عن الدخول في الإسلام؛ فعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم ستة نفر، فقال المشركون للنبي صلى الله عليه وسلم: اطرد هؤلاء؛ لا يجترئون علينا، فوقع في نفس رسول الله صلى الله عليه وسلم ما شاء الله أن يقع، فحدّث نفسه، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾(١).

وعن خباب رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام: ٥٢]، قال: «جاء الأقرع بن حابس التميمي، وعيينة بن حصن الفزاري، فوجدا رسول الله صلى الله عليه وسلم مع صهيب، وبلال، وعمار، وخباب، قاعدا في ناس من الضعفاء من المؤمنين، فلما رأوهم حول النبي صلى الله عليه وسلم حقروهم، فأتوه، فخلوا به، وقالوا: إنا نريد أن تجعل لنا منك مجلسا تعرف لنا به العرب فضلنا، فإن وفود العرب تأتيك، فنستحيي أن ترانا العرب مع هذه الأعبُد! فإذا نحن جئناك فأقمهم عنك، فإذا نحن فرغنا فاقعد معهم إن شئت، قال: «نَعَم» قالوا: فاكتب لنا عليك كتابا، قال: فدعا بصحيفة، ودعا عليا ليكتب، ونحن قعود في ناحية، فنزل جبرائيل عليه السلام فقال: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام: ٥٢]، ثم ذكر الأقرع بن حابس وعيينة بن حصن فقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَٰؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَا ۗ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ [الأنعام: ٥٣] ثم قال: ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤].

قال: فدنونا منه حتى وضعنا ركبنا على ركبته، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجلس معنا،

---

(١) رواه مسلم (٢٤١٣).

فإذا أراد أن يقوم قام وتركنا، فأنزل الله: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ [الكهف: ٢٨].

قال خباب: «فكنا نقعد مع النبي ﷺ، فإذا بلغنا الساعة التي يقوم فيها قمنا وتركناه، حتى يقوم»[1].

ملازمة العيوب والنقائص:

المتكبر أبعد الناس عن إصلاح نفسه، أو معالجة عيوبه؛ لأنه يرى نفسه قد بلغ الكمال، فلا يفتّش في عيوب نفسه، ولا يقبل نصيحة ناصح؛ فيبقى غارقاً في عيوبه ونقائصه، ملازماً له، إلى أن تنقضي الحياة.

ويكون ممن قال الله تعالى فيهم: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ۝ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: ١٠٣-١٠٤].

عدم قبول النصيحة:

قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ [البقرة: ٢٠٦].

عدم تعلّم العلم:

قال مجاهد رحمه الله: «لا يتعلمُ العلم مُستحيٍ، ولا مستكبر»[2].

فالمتكبر يحمله الكبر على الترفع والاستعلاء، فلا يكتسب من غيره علماً، ولا خبرة، ولا مهارة، ولا تجربة، فيبقى طوال حياته جاهلاً، قصير النظر.

لا يبدأ من لقيه بالسلام:

وإن ردّ عليه رأى أنه قد بالغ في الإنعام عليه، ولا ينطلق للناس وجهه، ولا يسعهم

---

(١) رواه ابن ماجه (٤١٢٧)، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجة.

(٢) رواه البخاري تعليقاً (١/ ٣٨) «باب الحياء في العلم»، وأبو نعيم في الحلية (٣/ ٢٨٧)، وصححه الحافظ في الفتح (١/ ٢٢٩).

خلقه، ولا يرى لأحد عليه حقا، ويرى حقوقه على الناس، ولا يرى فضلهم عليه، ويرى فضله عليهم، ولا يزداد من الله إلا بعدا، ومن الناس إلا صَغارا، وبُغضا[(١)].

لا يمشي إلا ومعه غيره يمشي خلفه، ويحب التصدّر في المجالس، والشهرة بين الناس، وأما المتواضعون: فإنهم يهربون من ذلك.

فعن عامر بن سعد قال: «كان سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في إبله، فجاءه ابنه عمر، فلما رآه سعد قال: أعوذ بالله من شر هذا الراكب، فنزل، فقال له: أنزلت في إبلك وغنمك، وتركت الناس يتنازعون الملك بينهم؟! فضرب سعد في صدره، فقال: اسكت، سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**إِنَّ اللهَ يُحِبُّ العَبْدَ التَّقِيَّ، الغَنِيَّ، الخَفِيَّ**»»[(٢)].

قال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: «المراد بالغَنيّ: غَنيّ النفس، هذا هو الغنى المحبوب؛ لقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وَلَكِنَّ الغِنَى غِنَى النَّفْسِ**».. وَأَمَّا (**الخَفِيّ**): فمعناه: الخامل، المنقطع إلى العبادة، والاشتغال بأمور نفسه»[(٣)].

***

(١) الروح (ص٢٣٦).

(٢) رواه مسلم (٢٩٦٥).

(٣) شرح النووي على مسلم (١٨/ ١٠٠).

عقوبة المتكبر

عقوبة المتكبر في الدنيا:

١. يعاقب المتكبر بنقيض قصده؛ فيحتقره الناس، ويستصغرونه:

وهذا من الجزاء الرباني، والسنن الربانية الجارية في هذا الكون، فمن تواضع لله رفعه الله، ومن تكبر على الحق وضعه الله.

٢. الحرمان من النظر، والاعتبار، والاستفادة من آيات الله.

قال الله تعالى: ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٤٦].

قال السعدي رحمه الله: «﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ﴾ أي عن الاعتبار في الآيات الأفقية، والنفسية، والفهم لآيات الكتاب. ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾ أي: يتكبرون على عباد الله، وعلى الحق، وعلى من جاء به، فمَن كان بهذه الصفة حرمه الله خيراً كثيراً، وخذله، ولم يفقه من آيات الله ما ينتفع به، بل ربما انقلبت عليه الحقائق، واستحسن القبيح»[1].

٣. المتكبر توعده النبي صلى الله عليه وسلم بالعذاب في الدنيا:

عن سلمة بن الأكوع رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **«لا يَزالُ الرَّجُلُ يَذهَبُ بِنَفسِهِ، حَتَّى يُكتَبَ في الجَبّارينَ؛ فيُصيبُهُ ما أصابَهُم»**[2].

---

(١) تفسير السعدي (ص٣٠٢).

(٢) رواه الترمذي (٢٠٠٠)، وقال: «حسن غريب»، وضعفه الألباني.

«لا يَزالُ الرَّجُلُ يَذهَبُ بِنَفسِهِ» أي: يُعلي نفسه، ويرفعها، ويبعدها عن الناس في المرتبة، ويعتقدها عظيمة القدر، «حتَّى يُكتَبَ في الجَبَّارِينَ» أي في ديوان الظالمين والمتكبرين، كفرعون، وهامان، وقارون، أو معهم في أسفل السافلين[1].

إن هذا الحديث يصوِّر حالة تدرج المستكبر في سلم الاستكبار والانتفاخ، حتى يكون جباراً من الجبارين، وأنه في أول حاله قد لا يكون كذلك، فليخشَ العاقل عاقبة الكبر، مهما كان في صغائر الأمور، فقد يتطور المرض اليسير، حتى يتدهوَر حال المريض، ومعظم النار من مستصغر الشرر.

٤. الكبر سبب لزوال النعم، وحلول النقم:

عن سلمة بن الأكوع: رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رجلاً أكل عند رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بشماله، فقال: «**كُلْ بِيَمِينِكَ**»، قال: لا أستطيع، قال: «**لا استَطَعتَ، ما منعه إلا الكبر**» قال: فما رفعها إلى فيه[2].

قال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: «وفي هذا الحديث: جواز الدعاء على من خالف الحكم الشرعي بلا عذر»[3].

فهذا الرجل منعه الكبر من طاعة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وامتثال أمره؛ فكان عقابه العاجل أن دعا عليه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالعجز، فاستجاب الله دعاء نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأصيب الرجل بالعجز في الحال.

أما يخشى المتكبرون الذين يمنعهم الكبر من اتباع الحق أن يسلبهم الله تعالى نعمه التي عصوه بها، وتكبروا بها؟!

٥. الكبر من أسباب الخسف، وعذاب القبر:

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**بَيْنَمَا رَجُلٌ مِمَّن كانَ قَبلَكُم يَمشِي في حُلَّةٍ تُعجِبُهُ نَفسُهُ، مُرَجِّلٌ جُمَّتَهُ، إذ خَسَفَ اللهُ بِهِ الأَرضَ، فَهُوَ يَتَجَلجَلُ فيها إلى يَومِ القِيامَةِ**»[4].

---

(١) تحفة الأحوذي (٦/ ١١٧)

(٢) رواه مسلم (٢٠٢١)

(٣) شرح النووي على مسلم (١٣/ ١٩٢)

(٤) رواه البخاري (٥٧٨٩)، ومسلم (٢٠٨٨).

قال الفيروزآبادي رحمه الله: «خسف المكان: ذهب في الأرض، وخسف الله بفلان الأرض: غيَّبه فيها»[١].

قال ابن حجر رحمه الله: «(يمشي في حُلَّة) إزار ورداء، وعن أبي هريرة رضي الله عنه عند مسلم: «بينما رَجُلٌ يتبختر في بُرْدَيه»، قوله: «مُرَجِّلٌ جُمَّته» هي مجتمع الشعر إذا تدلى من الرأس إلى المنكبين، وإلى أكثر من ذلك، وترجيل الشعر: تسريحه ودهنه، قوله: «إذ خَسَفَ الله بِهِ الأرض، فهُو يَتَجَلْجَلُ فيها إلى يوم القيامة» التجلجل: التحرك، وقيل: الجلجلة: الحركة مع صوت، وقال ابن فارس: التجلجل: أن يسوخ في الأرض مع اضطراب شديد، ويندفع من شق إلى شق، فالمعنى: يتجلجل في الأرض، أي: ينزل فيها مضطربًا متدافعًا، ومقتضى هذا الحديث: أن الأرض لا تأكل جسد هذا الرجل، فيمكن أن يُلغز به، فيُقال: كافر لا يبلى جسده بعد الموت»[٢].

عقوبته في الآخرة:

١. المتكبر هالك لا محالة مع الهالكين:

عن فضالة بن عبيد رضي الله عنه قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: **«ثلاثةٌ لا تسأل عنهم: رَجُلٌ يُنازِعُ الله في كِبريائه، فإنَّ رِداءَهُ الكِبرياءُ، وإزارَهُ العِزَّةُ، ورَجُلٌ يَشُكُّ في أمرِ الله، والقُنُوطُ مِن رَحمَةِ الله»**[٣].

٢. أبغض الناس وأبعدهم مجلساً من رسول الله يوم القيامة: المتكبرون.

عن جابر رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: **«إنَّ مِن أَحَبِّكُم إليَّ، وأَقرَبِكُم مِنِّي مَجلِساً يَومَ القِيامَةِ: أَحاسِنَكُم أَخلاقاً، وإنَّ أَبغَضَكُم إليَّ، وأَبعَدَكُم مِنِّي مَجلِساً يومَ القِيامَةِ: الثَّرثارُونَ، والمُتَشَدِّقُونَ، والمُتَفَيهِقُونَ»**. قالُوا: يا رَسُولَ الله، قد عَلِمنا الثَّرثارُونَ والمُتَشَدِّقُونَ، فما المُتَفَيهِقُونَ؟ قالَ: **«المُتَكَبِّرُونَ»**[٤].

---

(١) القاموس المحيط (ص١٠٣٩).

(٢) فتح الباري (١٠/ ٢٦١).

(٣) رواه ابن حبان (٤٥٥٩)، والطبراني (٧٨٩)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٠٥٩).

(٤) رواه الترمذي (٢٠١٨)، وحسنه، وصححه الألباني في صحيح الترمذي.

٣. المتكبر يلقى الله تعالى وهو عليه غضبان:

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «مَن تَعَظَّمَ في نَفسِهِ، أَو اختالَ في مِشيَتِهِ؛ لَقِيَ الله وَهُوَ عَلَيهِ غَضبانُ»(١).

٤. يُحشر المتكبرون يوم القيامة في غاية الذل والمهانة:

عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «يُحشَرُ المُتَكَبِّرُونَ يَومَ القِيامَةِ أَمثالَ الذَّرِّ في صُوَرِ الرِّجالِ، يَغشاهُم الذُّلُّ مِن كُلِّ مَكانٍ، فَيُساقُونَ إلى سِجنٍ في جَهَنَّمَ يُسَمَّى بُولَسَ، تَعلُوهُم نارُ الأَنيارِ، يُسقَونَ مِن عُصارَةِ أَهلِ النّارِ، طِينَةَ الخَبالِ»(٢).

قوله: «يُحشَرُ المُتَكَبِّرُونَ يَومَ القِيامَةِ أَمثالَ الذَّرِّ»: الذر: النمل الأحمر الصغير، فيحشرون أمثال الذر في الصغر، والحقارة.

(في صُوَرِ الرِّجالِ) يعني صورهم صور الإنسان، وأجسامهم كأجسام الذر في الصغر.

(يغشاهُم الذُّلُّ مِن كُلِّ مَكانٍ) والمعنى: أنهم يكونون في غاية من المذلة والنقيصة، يطؤهم أهل المحشر بأرجلهم؛ من هوانهم على الله.

(يُساقُونَ إلى سِجنٍ في جَهَنَّمَ يُسَمَّى بُولَسَ، تَعلُوهُم) أي تحيط بهم وتغشاهم (نارُ الأَنيارِ، يُسقَونَ مِن عُصارَةِ أَهلِ النّارِ) وهو ما يسيل منهم من الصديد، والقيح، والدم(٣).

ولأن المتكبر يأخذ حجمًا في الدنيا أكبر من حجمه، فإن الله تعالى يعاقبه يوم القيامة بإذلاله أمام الناس، ويُحشر كأمثال الذر.

٥. الكبر من أسباب المنع من دخول الجنة

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «لا يَدخُلُ الجَنَّةَ مَن كانَ في قَلبِهِ

---

(١) رواه أحمد (٥٩٩٥)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١/ ١١٦): «رجاله رجال الصحيح»، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٢٩١٨).

(٢) رواه الترمذي (٢٤٩٢) وقال: حسن صحيح، وحسنه الألباني.

(٣) تحفة الأحوذي (٧/ ١٦٢) بتصرف.

مِثقالُ ذَرَّةٍ مِن كِبرٍ». قال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنا ونعله حسنة، قال: «إنَّ الله جَمِيلٌ يُحِبُّ الجمالَ، الكِبْرُ بَطَرُ الحَقِّ، وَغَمطُ النّاسِ»[١].

٦. المتكبرون متوعدون بالنار:

عن حارثة بن وهب الخزاعي رضي الله عنه قال: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: «ألا أُخبِرُكُم بِأَهلِ الجَنَّةِ، كُلُّ ضَعِيفٍ مُتَضَعَّفٍ، لَو أَقسَمَ عَلَى الله لأَبَرَّهُ. ألا أُخبِرُكُم بِأَهلِ النّارِ، كُلُّ عُتُلٍّ جَوّاظٍ مُستكبِرٍ»[٢].

قال النووي رحمه الله: «(العُتُلّ): الجافي الشديد الخصومة بالباطل، وقيل: الجافي الفظ الغليظ»[٣].

(جوّاظٍ): هو الجموع المنوع، وقيل: كثير اللحم المختال في مشيته. وقيل غير ذلك[٤].

(عُتُلّ): هو الشديد الجافي: والغليظ من الناس[٥].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «احتَجَّتِ النّارُ والجَنَّةُ، فَقالَتِ النّارُ: يَدخُلُنِي الجَبّارُونَ والمُتَكَبِّرُونَ، وَقالَتِ الجَنَّةُ: ما لِي لا يَدخُلُنِي إِلّا ضعفاءُ النّاسِ وَسَقَطُهُم؟ فَقالَ الله عز وجل لِلنّارِ: أَنتِ عَذابِي أُعَذِّبُ بِكِ مَن أَشاءُ -وَرُبَّما قالَ: أُصِيبُ بِكِ مَن أَشاءُ- وَقالَ لِلجَنَّةِ: أَنتِ رَحمَتِي أَرحَمُ بِكِ مَن أَشاءُ، وَلِكُلِّ واحِدَةٍ مِنكُما مِلؤُها»[٦].

قوله: «اِحتَجَّت» أي: خصمت، كما في رواية للبخاري[٧].

قوله: «يَدخُلُنِي الجَبّارُونَ والمُتَكَبِّرُونَ» قيل: هما بمعنى، وقيل: المتكبر المتعاظم بما ليس فيه، والمتجبر الممنوع الذي لا يوصل إليه، وقيل: الذي لا يكترث بأمر.

---

(١) رواه مسلم (٩١).

(٢) رواه البخاري (٤٩١٨) ومسلم (٢٨٥٣).

(٣) شرح النووي على مسلم (١٧/ ١٨٧).

(٤) تحفة الأحوذي (٧/ ٢٧٩).

(٥) حاشية السندي على ابن ماجة (٢/ ٥٢٧).

(٦) رواه البخاري (٤٨٥٠)، ومسلم (٢٨٤٦)، واللفظ له.

(٧) برقم (٧٤٤٩).

قوله «ضُعَفاء النّاس وَسَقَطهم» أي: المحتقرون بينهم، الساقطون من أعينهم، هذا بالنسبة إلى ما عند الأكثر من الناس، وبالنسبة إلى ما عند الله هم عظماء رفعاء الدرجات، لكنهم بالنسبة إلى ما عند أنفسهم -لعظمة الله عندهم وخضوعهم له- في غاية التواضع لله، والذلة في عباده، فوصفُهم بالضعف والسقط بهذا المعنى صحيح، أو المراد بالحصر في قول الجنة (إلّا ضُعَفاء النّاس) «الأغلب»[1].

٧. المتكبرون متوعدون بدخول جهنم صاغرين:

قال تعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَاۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٧١ قِيلَ ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [الزمر: ٧١-٧٢].

وقال: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠].

وعن أبي هريرة رَضِّيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: الكِبرِياءُ رِدائِي، والعَظَمَةُ إزارِي، فَمَن نازَعَنِي واحِداً مِنهُما قَذَفتُهُ في النّارِ**»[2].

فالكبرياء والعظمة لا يليقان إلا بالله عَزَّوَجَلَّ، فإذا تكبر العبد فقد نازع الله تعالى فيما لا يليق إلا به؛ فاستحق أن يقذفه الله تعالى في النار.

* * *

(١) فتح الباري (٨/ ٥٩٧).

(٢) رواه أبو داود (٤٠٩٠)، وصححه الألباني.

علاج الكبر

اعلم أن الكبر من المهلكات، وإزالته فرض عين، ولا يزول الكبر بمجرد التمني، بل بالمعالجة، فمن علاج الكبر:

استئصال أصل الكبر من القلب:

بأن يعرف العبدُ نفسه، ويعرف ربه تعالى، فإنه إذا عرف نفسه حق المعرفة، عَلِم أنه لا يليق به إلا التواضع، وإذا عرف ربه حق المعرفة، علم أن الكبرياء والعظمة لا تليق إلا بالله.

فمعرفته بنفسه: أن يتفكر في بداية خلقه، ونهايته، ووسطه.

أما بداية خلقه: فإن الله خلقه من نطفة، ثم من علقة، ثم من مضغة، ثم جعله عظاماً، ثم كسا العظام لحماً.

فهذه بداية خلقه، فلم يُخلق في ابتدائه خلقاً كاملاً، بل بدأ بموته قبل حياته، وبضعفه قبل قوته، وبجهله قبل علمه، وبضلاله قبل هداه، وبفقره قبل غناه، فمن أين له البطر، والكبرياء، والفخر، والخيلاء؟!!

ثم إذا خرج إلى هذه الحياة الدنيا سلط الله عليه الأمراض والآفات، تنال منه، شاء أم أبى؛ فيجوع كرهاً، ويعطش كرهاً، ويمرض كرهاً، ويموت كرهاً، يريد أن يعلم الشيء فيجهله، ويريد أن يذكر الشيء فينساه، ويريد أن ينسى الشيء فيذكره، فهو عبد مملوك، لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً، ولا خيرا ولا شرا.

فأي شيء أذل منه، لو عرف نفسه؟!

وأما آخر حاله: فهو الموت، فيسلب روحه، وسمعه، وبصره، وعلمه، وقدرته، وحسه، وإدراكه، وحركته، فيعود جماداً كما كان أول مرة، ثم يوضع في التراب، فيصير جيفة منتنة قذرة.

ولينه بقي كذلك، بل يحييه بعد طول البلى، ليقاسي شديد البلاء، فيخرج من قبره، إلى أهوال القيامة، ويبشر له كتاب أعماله، ويقال له: ﴿ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ [الإسراء ١٤]. ﴿ وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ [الكهف ٤٩].

قال الأحنف رضي الله عنه: «عجبت لمن يجري من مجرى البول مرتين، كيف يتكبر؟!»[١].

رأى مطرف بن الشخير رحمه الله يزيد بن المهلب يسحب حلته، فقال له: «إن هذه مشية يبغضها الله»، قال: أو ما تعرفني؟، قال: «بلى، أولك نطفة مذرة، وآخرك جيفة قذرة، وأنت بين ذلك تحمل العذرة»[٢].

وقد نظم هذا المعنى أبو محمد عبد الله بن محمد السامي الخوارزمي فقال:

عجبتُ من مُعجَبٍ بصورتهِ ... وكانَ مِن قبلُ نطفةً مَذِرَه[٣]

وفي غدٍ بعد حسنِ صورتهِ ... يصيرُ في الأرضِ جيفةً قذره

وهو على عُجبهِ ونَخوَتهِ ... ما بين ثوبيهِ يحملُ العذره[٤]

وقال آخر:

يا مُظهرَ الكبرِ إعجاباً بصورتهِ ... انظر خلاءك إن النَّتن تثريبُ

لو فكر الناسُ فيما في بطونهمُ ... ما استشعر الكبرَ شبانٌ ولا شيبُ

يا ابنَ الترابِ ومأكولَ الترابِ غداً ... أقصر؛ فإنك مأكولٌ ومشروبُ[٥]

النظر والتأمل في الأسباب التي تكبّر بها، وإدراكه أنه لا يليق به التكبر بها

من يعتريه الكبر من جهة النسب؛ فليصلح قلبه بمعرفة أن هذا جهل، من حيث إنه تكبر بكمال غيره.

---

(١) وفيات الأعيان (٢/ ٥٠٥)، سير أعلام النبلاء (٤/ ٩٢).

(٢) سير أعلام النبلاء (٤/ ٥٠٥).

(٣) مذرة أي فاسدة، القاموس المحيط (ص٦٠٩).

(٤) وفيات الأعيان (٦/ ٢٨٤).

(٥) عيون الأخبار (ص١١٦).

وكيف يليق بعاقل أن يتكبر بكمال غيره؟!

عن أبيّ بن كعب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: انتسب رجلان على عهد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال أحدهما: أنا فلان بن فلان، فمن أنت لا أمّ لك؟ فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«انْتَسَبَ رَجُلانِ عَلَى عَهْدِ مُوسَى عليه السلام، فَقالَ أَحَدُهما: أنا فُلانُ بنُ فُلانٍ -حَتَّى عَدَّ تِسعَةً- فَمَن أَنتَ لا أُمَّ لَكَ؟ قالَ: أنا فُلانُ بنُ فُلانٍ ابنُ الإِسلامِ، قالَ: فَأَوحَى الله إلى مُوسَى عَلَيهِ السَّلام: أَنَّ هذَينِ المُنتَسِبَينِ: أَمّا أَنتَ أَيُّها المُنتَمِي أَوِ المُنتَسِبُ إلى تِسعَةٍ في النّارِ: فَأَنتَ عاشِرُهُم، وَأَمّا أَنتَ يا هَذا المُنتَسِبُ إلى اثنَينِ في الجَنَّةِ: فَأَنتَ ثالِثُهُما في الجَنَّةِ»**[1].

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ قَد أَذهَبَ عَنكُم عُبِّيَّةَ الجاهِلِيَّةِ، وَفَخرَها بِالآباءِ، مُؤمِنٌ تَقِيٌّ، وَفاجِرٌ شَقِيٌّ، والنّاسُ بَنُو آدَمَ، وَآدَمُ مِن تُرابٍ، لَيَدَعَنَّ رِجالٌ فَخرَهُم بِأَقوامٍ إِنَّما هُم فَحمٌ مِن فَحمِ جَهَنَّمَ، أَو لَيَكُونُنَّ أَهوَنَ عَلَى اللهِ مِنَ الجِعلانِ الَّتِي تَدفَعُ بِأَنفِها النَّتَنَ»**[2].

(عُبِّيَّة الجاهليَّة) أي: فخرها وتكبرها ونخوتها.

(مُؤمِن تَقِيّ وفاجر شَقِيّ) قال الخطابي: «معناه: أن الناس رجلان: مؤمن تقي، فهو الخيِّر الفاضل، وإن لم يكن حسيبًا في قومه، وفاجر شقي، فهو الدني، وإن كان في أهله شريفًا رفيعًا».

وقيل: معناه: أن المفتخر المتكبر: إما مؤمن تقي، فإذن لا ينبغي له أن يتكبر على أحد، أو فاجر شقي، فهو ذليل عند الله، والذليل لا يستحق التكبر، فالتكبر منفي بكل حال.

(أَنتُم بَنُو آدَم، وَآدَم من تُراب) أي فلا يليق بمن أصله التراب: النخوة والكبر.

(لَيَدَعَنَّ): بلام مفتوحة في جواب قسم مقدر، أي: والله ليتركنّ.

(إِنَّما هُم): أي أقوام (أو لَيَكُونُنَّ): أي: ليصيرُنّ (أَهوَنَ): أي أذلّ (عَلى الله): أي

(١) رواه عبد الله بن أحمد في زوائد المسند (٢٠٦٧٤)، والبيهقي في الشعب (٤٧٧٠)، وصححه الألباني في الصحيحة (١٢٧٠).

(٢) رواه أبو داود (٥١١٦)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (١٧٨٧).

عنده (من الجعلان): دويبة سوداء، تدير الخراء بأنفها (الَّتي تدفع بأنفها النَّتن) أي العذرة[1].

عن أبي ريحانة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**مَنِ انتَسَبَ إلى تِسعَةِ آباءٍ كُفَّارٍ، يُرِيدُ بِهِم عِزّاً وكَرَماً، فَهُوَ عاشِرُهُم في النّارِ**»[2].

ومن تكبر بسبب العلم؛ فليعلم أن حجة الله على أهل العلم آكد، وأن من عصى الله على علم فجنايته أعظم.

وليعلم أن الكبر لا يليق إلا بالله تعالى، فإذا تكبر صار ممقوتاً عند الله، بغيضاً، فهذا مما يزيل التكبر، ويبعث على التواضع.

وليعلم أن التكبر بالعمل والعبادة فتنة عظيمة على العباد.

قال أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**كانَ رَجُلانِ في بَنِي إسرائيلَ مُتَواخِيَينِ، فَكانَ أحَدُهُما يُذنِبُ، والآخَرُ مُجتَهِدٌ في العِبادَةِ، فَكانَ لا يَزالُ المُجتَهِدُ يَرَى الآخَرَ عَلَى الذَّنبِ فَيَقُولُ: أقصِر، فَوَجَدَهُ يَوماً عَلَى ذَنبٍ، فَقالَ لَهُ: أقصِر، فَقالَ: خَلِّني وَرَبِّي، أبُعِثتَ عَلَيَّ رَقِيباً؟! فَقالَ: واللهِ لا يَغفِرُ اللهُ لَكَ -أو: لا يُدخِلُكَ اللهُ الجَنَّةَ- فَقَبَضَ أرواحَهُما، فاجتَمَعا عِندَ رَبِّ العالَمِينَ، فَقالَ لِهَذا المُجتَهِدِ: أكُنتَ بِي عالِماً؟ أو كُنتَ عَلَى ما في يَدِي قادِراً؟ وَقالَ لِلمُذنِبِ: اذهَب فادخُلِ الجَنَّةَ بِرَحمَتِي، وَقالَ لِلآخَرِ: اذهَبُوا بِهِ إلى النّارِ**».

قال أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «والذي نفسي بيده، لتكلم بكلمة أوبقت دنياه وآخرته»[3].

وقد وصف الله تعالى السابقين إلى الخيرات بأنهم يعملون الطاعات، وهم على وجل وخوف أن لا يقبل الله منهم، قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٠-٦١].

عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا زوج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قالت: سألت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن هذه

(١) عون المعبود (١٤/ ١٦).

(٢) رواه أحمد (١٦٧٦١)، وصححه الألباني في الصحيحة (٢٤٣١).

(٣) رواه أبو داود (٤٩٠١)، وصححه الألباني.

الآية ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ﴾ قالت: أهم الذين يشربون الخمر، ويسرقون؟ قال: «لا يا بِنتَ الصِّدِّيقِ، وَلَكِنَّهُم الَّذِينَ يَصُومُونَ، وَيُصَلُّونَ، وَيَتَصَدَّقُونَ، وَهُم يَخَافُونَ أَن لا يُقبَلَ مِنهُم، أُولَئِكَ الَّذِينَ يُسارِعُونَ فِي الخَيراتِ»[1].

الدعاء والاستعانة بالله تعالى:

عَن عمرِو بنِ مُرَّةَ عن عاصم العنزي، عن ابن جُبَيرِ بنِ مُطعِمٍ عَن أَبِيهِ قال: كانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إذا دخل الصلاة قال: «الله أكبر كبيرا، والحَمدُ للهِ كَثِيرًا -ثلاثًا- سُبحانَ اللهِ بُكرَةً وَأَصِيلاً -ثلاثًا- أَعُوذُ باللهِ مِنَ الشَّيطانِ الرَّجِيمِ: مِن نَفخِهِ وَهَمزِهِ وَنَفثِهِ»

قالَ عَمرٌو: نَفخُهُ: الكِبر، وهمزه: الموتة، ونفثه: الشعر[2].

التواضع:

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «إن كانت الأمة من إماء أهل المدينة لتأخذ بيد رسول الله ﷺ، فتنطلق به حيث شاءت»[3].

قال ابن حجر رحمه الله: «(فتنطلق به حيث شاءت) في رواية أحمد: (فتنطلق به في حاجتها)، وقد اشتمل على أنواع من المبالغة في التواضع؛ لذكره المرأة دون الرجل، والأمة دون الحرة، وحيث عمم بلفظ الإماء، أي أمة كانت، وبقوله (حيث شاءت) أي من الأمكنة.

والأخذ باليد إشارة إلى غاية التصرف، حتى لو كانت حاجتها خارج المدينة، والتمست منه مساعدتها في تلك الحاجة على ذلك، وهذا دال على مزيد تواضعه، وبراءته من جميع أنواع الكبر ﷺ»[4].

عن الأسود رحمه الله قال: سألت عائشة رضي الله عنها ما كان النبي ﷺ يصنع في بيته؟ قالت: «كان يكون في مهنة أهله -تعني خدمة أهله- فإذا حضرت الصلاة خرج إلى الصلاة»[5].

---

(١) رواه الترمذي (٣١٧٥) وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي.

(٢) رواه أبو داود (٧٦٤)، وابن حبان (١٧٨٠)، واللفظ له، وصححه الألباني في تخريج الكلم الطيب (٨٠).

(٣) رواه البخاري (٦٠٧٢).

(٤) فتح الباري (١٠/ ٤٩٠).

(٥) رواه البخاري (٦٧٦).

قال ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: «(في مَهنَةِ أهله) وقد فسرها في الحديث بالخدمة، والمراد بالأهل: نفسه، أو ما هو أعم من ذلك. وقد وقع مفسرا في الشمائل للترمذي من طريق عمرة عن عائشة بلفظ: «ما كان إلا بشرا من البشر: يفلي ثوبه، ويحلب شاته، ويخدم نفسه» ولأحمد وابن حبان من رواية عروة عنها: «يخيط ثوبه، ويخصف نعله». وفيه الترغيب في التواضع، وترك التكبر، وخدمة الرجل أهله»[1].

عن جبير بن مطعم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: تقولون فيَّ التيه، وقد ركبت الحمار، ولبست الشملة، وقد حلبت الشاة، وقد قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«مَن فَعَلَ هَذا فَلَيسَ فيهِ مِن الكِبرِ شَيءٌ»**[2].

(فيَّ التيه): الكبر، أي: في نفسي الكبر، (وقد ركبت الحمار، ولبست الشملة) هو كساء يُتغطى به، ويتلفف فيه، (من فعل هذا) أي المذكور من ركوب الحمار، ولبس الشملة، وحلب الشاة، (فليس فيه من الكبر شيء) فإن هذه الأفعال لا يأنف منها إلا المتكبرون[3].

عن عبد الله بن سلام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه مر في السوق، وعليه حزمة من حطب، فقيل له: ما يحملك على هذا، وقد أغناك الله عن هذا؟ فقال: أردت أن أدفع الكبر عن نفسي، سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: **«لا يدخل الجنة مَن في قلبه خردلة من كبر»**[4].

❁ ❁ ❁

---

(١) فتح الباري (٢/ ١٦٣).

(٢) رواه الترمذي (٢٠٠١) وقال: هذا حديث حسن غريب، وصححه الألباني في صحيح الترمذي.

(٣) تحفة الأحوذي (٦/ ١١٨).

(٤) رواه الطبراني في الكبير (٣٦٣)، وحسنه الهيثمي في مجمع الزوائد (١/ ١١٧)، وحسنه الألباني في صحيح الترغيب (٢٩١٠).

الخاتمة

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أصول الخطايا كلها ثلاثة: الكبر: وهو الذي أصار إبليس إلى ما أصاره، والحرص: وهو الذي أخرج آدم من الجنة، والحسد: وهو الذي جَرَّأ أحد ابني آدم على أخيه. فمن وُقِيَ شَرَّ هذه الثلاثة فقد وُقِيَ الشر. فالكفر من الكبر، والمعاصي من الحرص، والبغي والظلم من الحسد»[1].

نسأل الله أن يجعلنا من الذين يتواضعون له، ولخلقه، ويعافينا من الكبر، وأهله، وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله، وصحبه أجمعين.

* * *

---

(١) الفوائد (ص٥٨).

اختبر فهمك

فيما يلي مستويان من الأسئلة حول الموضوع: أسئلة حلولها مباشرة، وهي أسئلة المستوى الأول.

وأسئلة تحتاج إلى بحث وتأمل، وهي أسئلة المستوى الثاني.

أسئلة المستوى الأول (المباشرة):

١. عرّف الكبر في اللغة.

٢. عرّفَ النبي ﷺ الكبر تعريفاً جامعاً مانعاً، فما هو تعريفه؟

٣. للكبر أسباب متعددة، فما هي أسبابه؟

٤. بِمَ يحصل الكبر؟

٥. ما هي أصول الخطايا؟

أسئلة المستوى الثاني (الاستنباطية):

١. ما الفرق بين الكبر والعجب؟

٢. متى يكون العلم سبباً للكبر؟

٣. بماذا يعاقَب المتكبر في الدنيا؟

٤. بماذا يعاقب المتكبر في الآخرة؟

٥. كيف نعالج المتكبر؟

مفسدات القلوب

لمّا كان في صلاح القلب صلاحُ البدن كلّه، وفي فساده فسادُ البدن كله، لازم الشيطانُ قلبَ ابن آدم، فشغله بالدنيا ومفاتنها عن ذكر الله وعبادته وخشيته ومراقبته، فألهاه بالتكاثر، وغرّه بالأمانيّ الكواذب، وأغفله بالفتن، إلا مَن عصمهُ الله برحمته، وتداركه بفضله، فأنجاه من كيده ومكره، وبصّره بفخوخه ومصاليه.

وفي هذا الكتاب نتناولُ بعضًا من هذه المكائد التي يكيد بها الشيطانُ ابنَ آدم؛ ليصدّه عن ذكر الله وطاعته وخشيته، ويفسدَ عليه قلبه، ويشغله عن عبادة ربه ، كاتّباع الهوى، والشهوة، والغفلة، والكبر، والجدالِ بالباطل، وحبّ الدنيا، وغير ذلك من الآفات؛ لنتعرف على أسبابها، ومفاسدها، وطرق الوقاية منها، وأحوال أصحابها، ممّن أغواهم الشيطانُ؛ لئلا نتشبّه بهم؛ فنكون منهم.

قال العلماء: ما جعل الله للقلب مرضا إلا جعل له شفاءً بضدّه، فإن علمه صاحبُ الداء واستعمله وصادف داء قلبه؛ أبرأه بإذن الله. وما من مرضٍ من أمراض القلوب والأبدان إلا وفي القرآن سبيلُ الدلالة على دوائه وسببه، والحمية منه، لمن رزقه الله فهمًا في كتابه.

والعاقلُ يتعرف على الخير ليأتيَه، ويتعرف على الشرّ ليتّقيه، ومَن لازم الخيرَ وعمل به، وعرف الشرّ ونأى عنه؛ فقد صلح قلبُه، وتمّ فلاحُه.



المملكة العربية السعودية
الخبر - هـ: ٨٦٥٥٣٥٥
جدة - هـ: ٦٩٢٩٢٤٢
ص.ب ١٢٦٣٧١ جدة ٢١٣٥٢

- خصم خاص للتوزيع الخيري: ٠٥٠٤٤٤٦٤٣٢ -

ISBN: 978-603-8047-87-3

